

محمد كرد علي مكتبة

فِي الْأَدَبِ وَالْفَنِّ وَاللُّغَةِ



تحرير وتقديم
د. محمد ناصر الدين

استغاثات
الدين

فِي الْأَدَبِ وَالْفَنِّ وَاللُّغَةِ

ما الأدب والفن واللغة ..

إلا ثمرة الأعلام

بعض الأعلام صادقة ..

في الأدب واللغة والفضن

محمد كرد علي

اعتنى بجمعه وترتيبه: د. محمد ناصر الدين

On Litterature, Art and Language

By Mohammad Kurd Ali

الطبعة الأولى: مايو - أيار، 2021 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain2021

مكتبة
t.me/soramnqraa



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: +961 1 345683 / +961 1 541980

بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860 / +9647714440520

info@daralrafidain.com

dar alrafidain

daralrafidain@yahoo.com

Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com

@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 37 - 3

فِي الْأَدَبِ وَالْفَنِّ وَاللُّغَةِ

مكتبة

t.me/soramnqraa

علامة الشام

محمد كرد علي

اعتنى بجمعه وترتيبه:

د. محمد ناصر الدين



www.daralrafidain.com

الفهرس

7	العلامة العلم مقدمة عامة بقلم الدكتور محمد ناصر الدين
13	مقدمة هذا الكتاب
17	الأمية والكتاتيب
20	تأثير الآداب
24	فتيان يؤلفون
27	الجنون بالكتب
32	نكات الوهراني
38	مكتبة الإسكندرية
45	شعر فقيه
48	مقاصد المؤلفين
53	النظامية والمستنصرية
58	من ملاهي الأندلسيين
59	عميان يؤلفون
62	نوع من نقد الشعر
69	ملكة العربية
75	الترجمة والتعريب
79	النقل والنقلة
88	الشيخ إبراهيم اليازجي
92	الترجمات وحكم المترجم فيها

94	فضل العربية
100	قصيدة مجهولة للسموأل
108	غلاة الكتب
125	مصائب المكاتب
131	الشعر الاجتماعي
138	اللغات الافرنجية
146	إكرام الشعراء
160	الحماسة البصرية
162	تهذيب الكلام
173	الكتاب
193	العامية من الفصحى
200	عبث الوليد
207	شرف الموسيقى
214	النقل والناقلون
218	المطبوعات العربية
225	سعة التأليف في الإسلام
236	مناظرة القنائي والسيرافي
254	الكلمات الدخيلة
271	الفروق
303	جزء العلماء والأدباء
315	سماع الألحان
328	آداب العرب

مقدّمة عامة بقلم الدكتور محمد ناصر الدين

يمكن اعتبار العلامة السوري محمد كرد علي (1876 - 1953) أحد المفكرين المعاصرين القلائل ممّن روّجوا في بداية العصر الماضي إلى نوع من العلمانية - الإسلامية المعاصرة، وبشكل عضوي (Synthetic) ومركّز كما يقول الباحث الفلسطيني المرموق سليم تاماري في كتاب يتناول أحوال سورية في خضم الحرب العالمية الأولى. يمكن اعتبار كرد علي اليوم، مع المجموعة الطليعية المتنورة التي جمعته وإياها مجلة المقتبس (1914 - 1908) الصادرة في دمشق في مطلع القرن العشرين، رُواداً للحدّاث العربية في الفكر والصحافة والأدب، وهي مجموعة ضمّت إليه رفيق العظم من سورية، أحمد زكي باشا من مصر، جرجي زيدان وشكيب أرسلان وعيسى اسكندر المعلوف وأحمد رضا من لبنان، ومحمد رضا الشيبسي من العراق وغيرهم من الأسماء اللامعة مثل أخيه أحمد كرد علي وشكري العسلي.

ولدَ محمد كرد في السليمانية في شمالي العراق لأب كردي وأم شركسية، وتعلّم في الكتاب القراءة والكتابة والقرآن الكريم، ودرس المرحلة الإعدادية في المدرسة الرشدية، ثم أتمّ تعليمه الثانوي في المدرسة العازرية للراهبات العازريات بدمشق، التي أتقن فيها إلى جانب

العربية اللغتين الفرنسية والتركية، وتفتّحت قريحته مبكراً على مطالعة الصحف والتبحّر في كتب التراث، إذ يشير في أحد مقالاته في المقتبس إلى قائمة من ذخائر التراث كانت قد شكّلت في بدايات وعيه ذائقته الأدبية والفكرية: «وإنّي لا أزال أذكر ما كنتُ أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي ومقامات الزمخشري ومقامات الأصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمع الأنفس للفتح بن خاقان وخُطب ابن نباته وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الأدب لابن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها في خلوتي وجلوتي. ولما كُتِب لي الاطلاع على الآداب الفرنسية والتركية، وأنشأتُ أبحث عن كتبٍ كُتِبَت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل ابن هارون وأبي حيان التوحيدي والراغب الأصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين، غدوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلقّف تلك الأسفار المُسجّعة وفي اللغة مثل نهج البلاغة و«البيان والتبيين» و«الذريعة والإحياء» وغيرها مما لا يتّسع المجال لتعدادده وهو في الحقيقة مادة أدب كما مادة علم لا تبلى على الدهر جدّتها ولا تخلق ديباجتها، كما كنتُ أعجبُ من إقبالي أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفّي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي الطيّب وابن عبادة وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس وأبي فراس الحمداني».

كان لا بد لمن سيصبح أول وزير للمعارف والتربية في سورية ورئيساً لمجمع اللغة العربية في دمشق منذ تأسيسه (1919) حتى وفاته (1953) أن ينهل من خزانة التراث العربي الغنية والضاربة في التاريخ، إذ لا حداثة ممكنة لا تتوكأ على حمولة معرفية تمتد لأكثر من ألفي عام في الشعر والأدب والخطابة والبلاغة واللغة. اتصل محمد كرد علي بعدد من علماء الشام المعروفين، يتلمذ على أيديهم ويغرف من بحار علومهم وأدبهم وأبرزهم الشيخ سليم البخاري، والشيخ محمد مبارك واستاذة الأكبر الذي يشير إليه في أكثر من موضع من «المقتبس» ويستشهد فيه في كتبه، ألا وهو العلامة طاهر الجزائري، وقد قرأ كرد علي على هؤلاء العلماء الأفاضل كتب الأدب واللغة والبلاغة والفقه وعلم الاجتماع والتفسير وعلم الرجال والأسانيد والفلسفة.

استهوت الصحافة محمد كرد علي مبكراً، ليُعهد إليه بتحرير جريدة (الشام) الأسبوعية عام 1897 بعد أن أمضى خمس سنوات كاتباً في قلم الأمور الأجنبية عام 1892 وهو في سن السابعة عشرة لإجاده التركية والفرنسية. أخذ محمد كرد علي يرسل مجلة (المقتطف) المصرية لمدة خمس سنوات، وقد شغفته القاهرة التي اعتبرها قبلة لكل مريدي نهضة العرب والمسلمين وكانت تجربة محمد علي باشا في الإصلاح والتحديث لما ينقضي ذكر أحوالها بعد، ليسافر كرد علي إلى القاهرة سنة 1901 لابتأ فيها حقبة قصيرة في تحرير جريدة «الرائد المصري» ويعود أدراجه إلى دمشق بعد تفشي الطاعون في القاهرة، وتبدأ فترة من الاضطرابات والملاحقات من البوليس التركي إذ أن كرد علي لم يوفر الأتراك وولاتهم من النقد اللاذع في مقالاته كافة. يعود محمد كرد علي

إلى مصر عام 1906، وينشر «المقتبس» المجلة الأشهر في حينها بعد جريدة «الجوائب» التي أنشأها أحمد فارس الشدياق في الأستانة وطار صيتها في الآفاق. نشر كرد علي في المقتبس البحوث العلمية والأدبية والتاريخية، كما تولّى في الوقت ذاته تحرير جريدة «الظاهر» اليومية، ولما أغلقت دعاه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد - وهي يومئذ كبرى جرائد العالم الإسلامي - إلى التحرير فيها فعمل فيها حتى سنة 1908 حيث غادر القاهرة إلى الشام بعد الانقلاب العثماني فيها. في دمشق تابع حتى سنة 1914 إصدار مجلة المقتبس، وكانت المقتبس ترصد بعين أخبار الولايات العثمانية واحتكاكها الصعب مع الحداثة في مطلع القرن العشرين، وبعين أخرى الضوء القادم من الغرب، إذ كانت باريس قبلة لعلامة الشام الكبير، وهو يشير في إحدى محاضراته إلى ما لهذه العاصمة من فضل في مساعدة العرب في ترقية علومهم ومعارفهم أيام نهضة محمد علي باشا، وإن كان يعيب على الفرنسيين في محاضرة أخرى حربهم التي فاقت المئة عام مع الدين والتدين. حين اشتدت على كرد علي وشايات المغرضين، يمم وجهه شطر عاصمة النور التي زارها سرّاً وأقام بها فترة وجيزة قبل بداية الحرب الأولى، ليرصد أزاخير حركتها العلمية ونهضتها السياسية والفكرية ويلتقي بكوكبة من رجال الفكر والسياسية فيها، فكان أن توجّ هذه الرحلة بما يقارب الأربعين مقالة نشرها في المقتبس، وما لبثت أن تحولت إلى كتاب بعنوان «غرائب الغرب» جمع فيه كرد علي رحلات أخرى إلى لبنان والجليل والقلمون السوري ومحطات ارتادها في طريقه إلى أوروبا في تلك الفترة.

بعد هزيمة تركيا في الحرب الأولى، استطاع محمد كرد علي أن

ينتزع من حكومة الملك فيصل ممثلة بالحاكم العسكري علي الرضا الركابي قراراً بتغيير ديوان المعارف بأعضائه ورئيسه واستبداله بأول مجمع علمي عربي في دمشق عام 1919، ليكون «مجمع اللغة العربية» في عاصمة الياسمين أول مجمع رسمي عربي استحق ريادته بفضل جهود علامة الشام الأكبر. لئن ذاع صيت محمد كرد علي كمؤرخ، وكصحفي وصف جريدته المقتبس بأنها «معتدلة في السياسة، وطنية بلا تحفظ، ناقدة للسلوك الإداري العثماني في الحكم»، فإن الإطلاع على مؤلفات كرد علي الأخرى ولا سيما «خطط الشام» (8 - 1925) الكتاب المرجع في الجغرافيا السياسية في سورية الكبرى، ومؤلفه الآخر «الإسلام والحضارة العربية» (1934) تطرح تحديات جدية على كل من يصر على إخراج محمد كرد علي من خانة «المفكر» وإدراجه في خانة الصحفي أو المؤرخ حصراً. تشكل نصوص «الإسلام والحضارة العربية» أول محاولة جدية من عقل عربي لنقد الاستشراق، كما أن مراجعات محمد كرد علي لصفحات إشكالية من التراث وإبراز جمالياتها وإمكانية استخدامها في حداثة ممكنة هي خطوة أولى في مشروع كبير سيشرع به مفكرون وشعراء ومثقفون كبار أمثال حسين مروة، ومحمد عابد الجابري، وأدونيس وجورج طرابيشي وغيرهم في ما بعد.

مقدمة هذا الكتاب

حاز محمد كرد علي شهرة جابت الآفاق ونهل من كل علم وأدب منهل العلامة الذواقة وضخّ في كتبه التي ملأت دنيا العرب مثل «خطط الشام» و«غرائب الغرب» وفي مجلته «المقتبس» التي تصدرت قائمة المجلات العربية في مطالع القرن العشرين من كل أدب برفيعه ولا سيما آداب العرب في القرون المشرقة، ومن كل فن بأرقى ما جادت به قريحة الأُمم، ومن بحر اللغة العربية لآلئها وجواهر كلامها وجميل بيانها وسحر بديعها، في مقاربة يقف فيها العرب موقف النّدّ للنّدّ في كل ما يصنع الحضارة ويرتقي بالأمم، فبحسب «علامة الشام».

«ليس العلم وقفاً على أمة معينة ولا على أهل دين خاص ولغة خاصة، بل العلم مشاع بين سكان الأرض يقتبسه الراغبون فيه ممن عرفوا غناه لهم وفائدته لقيام جامعتهم وإعلاء كلمتهم، كما أن الحضارة تنتقل من يد إلى يد وتأخذها الأمة المتحضرة عن جارتها أو ترثها عن أختها الذاهبة. ولذلك لم تستغن أمة في النقل عن غيرها ما يعوزها من علوم البشر على اختلاف أنواعها نقلاً ينتفع به أهل جيلها وقبيلها ويؤثر الأثر المطلوب في العقول. فقد نقل الفرس علومهم عن جيرانهم الهنود ونقل الرومان عن اليونان ونقل اليونان عن المصريين ونقل العرب عن اليونان والفرس ونقل الإفرنج عن العرب واليونان والرومان وغيرهم من أمم الخليقة.

وقد مست الحاجة في هذا النقل إلى ترجمة أهم كتب أولئك الأقوام في الصناعات والديانات وعلوم الحكمة والطب والرياضيات والشرائع والتاريخ والأدب». غاص محمد كرد علي في تاريخ العرب الحافل، من الجاهلية حتى التاريخ الحديث مستطلعاً نتائجهم وتاريخهم في الآداب والفنون كافة وكتب عن حضارتهم ونهضتهم وعمرانهم وملاهيهم وأعلامهم وظرفائهم وبرّهم وفاجرهم، وما أنتجتهم حواضرهم من المشرق إلى الأندلس من جميل الفنون ولطيف الآداب وعناية باللغة في فترات استقرار هذه الحواضر وازدهارها إلى حين أفولها بفعل عوامل الضعف الداخلية التي أنهكت جسد أمة العرب من فرقة وتمزق واحتراق مكتباتهم على أيدي المغول والتتار والغزاة الذين داسوا بسنابك الخيل أجمل ما جادت بها حضارة «خير أمة أُخرجت للناس». ورغم تحيزه الواضح لأمة العرب ورفع رايته ودفاعه عن قضاياها، فإن محمد كرد علي في دراساته وبحوثه هذه حول الآداب والفنون واللغة لم يكن إقليماً ضيق الأفق، بقدر ما كان عالماً منفتحاً على نتاج الأمم الأخرى، ومنصفاً للقارئ بفتح الأفق لعقله وذوقه للمقارنة بين تراث أمته العريق وما جادت به قريحة علماء العرب الأفذاذ مع أعلام الأمم الأخرى والأقطار القريبة والبعيدة. لقد شغف محمد كرد علي بأمته التي أنجبته، وأوطان العرب التي أنبتته، فأخلص الود في كل نتاجه لنفض الرماد عن جواهرها الرفيعة، وخلاصة فكرها وفنها وأدبها التي تمثل خميرة لازمة لكل نهضة، ووقوداً لمشاعل كل يقظة. الرجل الذي أخلص الود للحضارة العربية والإسلامية بمعناها المنفتح والمتنور، كان لا بد لدار الرافدين أن تذكر بأياديه البيضاء وتفانيه في سبيل استنهاض أمته، فكان لزاماً علينا

أن نحرص على تخليد ما كتب وحقق في التراث مما تناولناه في الجزء الأول من الاستعدادات، وفي اللغة والآدب والفن في هذا الجزء الثاني، واعددين القارئ الكريم باستكمال تظهير نتاج العالم العلم الذي استمر في العطاء حتى آخر دفقة دم في عروقه.

د. محمد ناصر الدين

بيروت، ربيع 2021

الأمية والكتاتيب

ليس في التاريخ ما يصح الاعتماد عليه في حال الأمية في الصدر الأول اللهم إلا بضعة سطور مبعثرة في تضاعيف الأسفار. وغاية ما استخلصته أن الكتابة والقراءة والحساب انتشرت بين أهل الإسلام على الزمن، ولم يكن تعليمها الناس إلزامياً حتماً بل كان اختيارياً على نحو ما أمر الرسول عليه السلام اسارى أصحابه في إحدى الوقائع أن يفتدوا أنفسهم إذا لم يكن لهم مال بتعليم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة.

والأُمِّيُّ والأَمَانُ من لا يكتب أو من على خلقه الأمة لم يتعلم الكتاب وهو باقٍ على جبلته كما جاء في القاموس وزاد في التاج *إنّا أمة أمية* لا نكتب ولا نحسب أراد أنه على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهُم على جبلتهم الأولى. وقال بعضهم ومجاز الأُمِّيِّ على ثلاثة وجوه: قولهم أُمِّيٌّ منسوب إلى أمة رسول الله (ص) ويقال رجل أُمِّيٌّ إذا كان من أم القرى أي مكة والنبي الأُمِّيُّ إنما أراد الذي لا يقرأ ولا يكتب، والأمية في النبي فضيلة لأنها أدل على صدق ما جاء به.

قال صديق حسن خان: في تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ﴾ أي من اليهود. والأُمِّي المنسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن قراءة المكتوب. ومن حديث *إنّا أمة أمية* لا نكتب ولا نحسب. وقال أبو عبيدة:

إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب فكأنه قال: ومنهم أهل كتاب وقيل هم نصارى العرب وقيل هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها، وقيل هم المجوس حكاة المهدوي وقيل غير ذلك والراجح الأول وقيل أميون أي عوام.

على أن الكتابة العربية لم تنتشر في جزيرة العرب قبل الإسلام بكثير. وأول من كتب فيها مرامرة بن مرة من أهل الأنبار. قال الأصمعي: ذكروا أن قريشاً سئلوا من أين لكم الكتابة؟ فقالوا من الحيرة وقيل لأهل الحيرة من أين لكم الكتابة؟ فقالوا من الأنبار. والناقل لهذه الكتابة كما في رواية بعض المؤرخين حرب بن أمية القرشي الأموي والغالب أن واضعها مرامرة المشار إليه. هكذا شاعت الكتابة قبيل الإسلام كما نقل العرب الحساب عن الهند. وكانت لحمير على ما روى ابن خلكان كتابة تسمى المسند وحروفها منفصلة غير متصلة وكانوا يمنعون العامة من تعلمها فلا يتعاطاها أحد إلا بإذنهم فجاءت ملة الإسلام وليس في جميع اليمن من يقرأ ويكتب.

قلت: وليس هذا شأن اليمانيين وحدهم في منع عامتهم من تعلم الكتابة والقراءة والخروج من دركات الجهل والأمية، بل كانت هذه عادة الأمم القديمة إلا القليل منها يخصصون العلم والتعلم بطبقة خاصة من الناس. فقد حصر قدماء المصريين والآشوريين العلم بخدمة الدين واحتكره أبناء الأشراف عند الغرناطين والرومانيين واختصت به فئة معلومة منتخبة من الهنديين واليونانيين، حتى إذا جاء الإسلام أطلق حرية التعلم وأباح تناول العلم لكل متناول وكان من أثره ما كان من الحضارة الراسخة.

هذه زبدة ما يقال في معنى الأمية في الإسلام وقد تقلبت الأحوال

بأهله حتى أصبح من لا يستحق منهم هذه الصفة أعزّ من الغراب
الأعصم، وهبت على أهل هذا الشرق هبة من روح الارتقاء منذ نحو
قرن وما برحت تختلف باختلاف الأيام حتى قام في العهد الأخير
ناسٌ راغبون في إنهاض الأمة من حضيض الأمية رجاء تحسين أحوال
المجتمع وانتقاء فئة من نوابغ المتعلمين ليكونوا بعد رجال العلم
والقضاء والإدارة وسائر مذاهب المعاش.

وما أظن مصر حتى اليوم قامت بعمل أعظم من اهتمام رجالها هذه
الآونة بافتتاح كتاتيب يتعلم فيها عامة بنيتها ما يخرجهم عن طور الأمية
ويلحقهم بالمتعلمين النافعين. وقد شهد كل عاقل ينظر في العواقب من
آثار هذه الهمة القعساء ما يرجى معها إذا دامت على أشدها زمناً أن يزيد
عدد الدارسين في هذا القطر على عدد الأميين من أهله، وهناك أبشّر بالخير
الذي يعود من فضل هذه العناية على القطر المصري بل على سائر الأقطار
والأمصار. وعسى أن يعتبر بهذه النهضة المباركة رجال البلاد المجاورة
فيجنون من كتاتيبهم ومدارسهم لو توفروا على إصلاحها والاستكثار منها
ما لا يأتيهم به الأمانى والتعللات والله الملهم والمسدد.

تأثير الآداب

للآداب معان كثيرة فمعناها اللغوي حسن الأخلاق وفعل المكارم وأطلقه المولّدون في الإسلام على علوم العربية، وأعني به هنا المنظوم والمنثور من الكلام ومنزلته من الفصاحة والبلاغة ليفعل في الأرواح فعل الراح. ولكل أمة أدب بحسب اصطلاحها ورسوم لغتها يطرب به عامتها فضلاً عن خاصتها، وتثار به الأحقاد وتحرك الحفائظ وتدعى به إلى سبل السلام والوثام ويدلّها على مواقع السداد والسؤدد ويذكرها بأيامها وأيام النازلين بقربها والقاصين عنها وهو على الجملة مسبر للوقوف على الحاضر والغابر ومهماز يدفع إلى العمل بعد القول ومثار كل فضيلة رافعة ومنار كل نجاح عاجل أو آجل.

لابد في كل نهضة دينية كانت أو مدنية أن تتقدمها الآداب ويتفانى أبناؤها في حبها، شهد بذلك تاريخ الأمم جمعاء. ألا ترى أن أديب القبيلة في الجاهلية كان يتدفق من لسانه معين البلاغة فتفعل كلماته في قبيلته يعقد بها سلمها ويشهر حربها ويعدد مفاخرها ومآثرها ويدوّن تاريخها وأيامها، وإن سوق الأدب عند العرب لما نفقت وكثر تغاليهم في نقلها وإنشادها وأصبحت بينهم للبلاغة دولة، ولجوامع الكلم تأثير وصوله، نزل القرآن فأدهش بإعجازه البلغاء، وأسكت ببيانه مصاقع الخطباء، وتأدب رجال الخطابة والكتابة بآدابه وتبيانه فزاد تأثير الشعراء والخطباء أكثر من ذي

قبل، حتى كان أهل الحكم يحاذرون فلتات ألسنهم فيوسعون لهم من برهم ما يقطعونها به.

ولما أخذت الآداب موقعها من النفوس ونالت حظها من العناية ونضجت ثمرتها حتى كادت تذبل، عرفت العرب أن كيائها لا يقوم بالآداب وحدها وسلطتها لا تأمن البوائق بينات الأفكار، وإن دور الأقوال انقضى حكمه وجاءت النوبة للأفعال ونضبت مادة البيان ومست الحاجة إلى البرهان فأنشأت إذ ذاك تتوفر على الأخذ من كل علم يزيد في سعادتها ويضمن لها الراحة الدنيوية كما ضمن لها الدين الراحة الأخروية، وكان من أمر علوم الأمم وتناقلها بين ظهرانيها ما كان من حسن الأثر وخدمة الحضارة والغضارة.

وهكذا لو بحثت في تاريخ كل أمة لألفت الآداب روادها، إلى مسالك إسعادها، وقوادها إلى ذرى رقيها وإصعادها، كان هذا شأن الفرس واليونان والرومان في القرون الماضية، بل وشأن الترك والعرب في القرون الحديثة، فإنهم لم ينبغ لهم في التاريخ والسياسة وفنون الحرب والطبعة والرياضة والفلسفة رجال أحرىء بالاعتبار بالنسبة لمحيطهم وأسبابهم حتى نبغ بينهم أهل آداب أمثال كمال وضيا وناجي والأبياري والفاروقي والأسير والأحدب واليازجي وكرامة والجندي والهلالي ومراش والشدياق والبربر، وأمثالهم ممن بيّضوا الصحف بما سودوه في القرطاس من رائع آدابهم وفيض قرائحهم وخفة أرواحهم.

وقر زعماء الأدب في الصدور بما نفثوه من صدورهم أكثر من العلماء والمفنين بما خدموا به العلم والمدنية من نتاج عقولهم المستنيرة وما ذاك والله أعلم إلا لأن الأدباء يكتبون للعامة والخاصة معاً، أما العلماء فيكتبون

للخاصة فقط. وشأنهم في هذا شأن أهل العلم والاختراع مع أرباب الأموال في الغرب. لعهدنا فإن الأول يتعبون في الإبداع فلا يتمتعون بغير جزء طفيف من أعمالهم الشاقة الطويلة ويجيء أرباب المال فيجنون الثمرة غصة يانعة.

قال بلونشلي الألماني في كتابه «السياسة» ما تعريبه: للآداب في أفكار الطبقة المنورة تأثير أعظم من تأثير العلم، إذ أن لجمال الشكل والصورة وقعاً كبيراً في النفس أكثر من العلوم التي هي في الغالب قضايا غثة باردة، وإن كتب شكسبير وولتير سكوت معروفة أكثر من كتب باكون ونيوتن، وأن التمدن الفرنسي ينسب إلى راسين ومولير أو فولتير أكثر منه إلى بوفون ولا بلاس ودويين، وإن كيتي وشيلر قد نورا وحمّسا طبقات أكبر من التي نورها كانط والإخوان هو مبولد وليسنغ قد أثرا بروايتهما في ناتان أكثر من روايات لاوكون.

قال لي أحد ساسة الألمان يوم زار الإمبراطور غليوم الثاني بلاد الشام: أتدري لم أحب مليكنا السلطان صلاح الدين يوسف حتى قصد دمشق لزيارة ضريحه وفاخر بأنه بات في مدينة عاش فيها من كان أعظم أبطال العصور السالفة؟ قلت لا علم لي بذلك. قال لأنه قرأ في صباه رواية وأظنه قال لشاعرنا شيلر تضمنت سيرة صلاح الدين ووقائعه فأشرب قلبه حبه وراح ما لقنه في العاشرة يبرز أثراً من آثاره وهو في الأربعين.

قلت وهذا ملك عظيم في الحديث أثر فيه شاعر أمته أحسن تأثير. على أنه الأدب يلطف الشعور ويحسن العواطف ولقد كان جد هذا الإمبراطور فريدريك الكبير لما عزم على إنهاض أمته من كبوتها يوعز إلى الشعراء بواسطة بعض وزرائه أن ينظموا قصائد حماسة ترقق الإحساس وتكبر

النفوس وتدعوها إلى المعالي فكانت هذه القصائد سبباً في إنهاض ألمانيا
ووحدتها على ما قيل.

وإليك مثلاً من تأثير الآداب في القديم قال معاوية بن أبي سفيان:
اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم فإن فيه مآثر أسلافكم ومواضع
إرشادكم، فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردني إلا
قول ابن الإطنابة الأنصاري:

أبت لي عفتي وأبى بلائي	وأخذي الحمد بالثمن الربيع
وإجشامي على المكروه نفسي	وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات	وأحمي بعد عن عرض صحيح

فتيان يؤلفون

تناقلت الصحف الدورية في الغرب هذه الأيام رأياً للمسيو إميل فاغي من رجال العلم في فرنسا وأحد الأعضاء الأربعين في المجمع العلمي الباريزي قال فيه: أنه لا ينبغي للكاتب أن ينشر ما كتب لينفع به الناس قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره وما هو قبل هذا السن إلا معلم نفسه وممرن قلمه. وقد أذكرني هذا الرأي بأن في أمتنا من نبغوا قبل بلوغهم تلك المدة المعينة وأفادوا واستفادوا من ثمرات عقولهم. ولا يحضرني الآن من أهل الغرب إلا اسم الشاعرين الإنكليزيين كيت وشيلي اللذين قضيا في نحو الثلاثين من عمرهما وقد راق شعرهما كثيراً من الناقدين.

أما في الشرق العربي فقد توفي ابن المقفع صاحب كيلة ودمنة وغيره من الكتب الممتعة وهو في السادسة والثلاثين. وتوفي سيويه وهو لم يتجاوز الأربعين وقد برز في النحو حتى كان من لا يحفظ كتابه لا يعد بشيء في علم الإعراب. وفي مثل هذا السن توفي بديع الزمان الهمذاني صاحب الرسائل والمقامات البديعة. ولم يستكمل ابن سينا ثماني عشرة سنة من عمره إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التي عاناها من أصول الدين والأدب والطبيعي والرياضي والطب وعلم الأوائل ومات في الثالثة والخمسين وقد فاق الأوائل والأواخر. وابتدأ الشريف الرضي يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل. وألف ابن سبعين كتاب بدء المعارف وهو

ابن خمس عشر سنة. وقرأ ابن الأعلم النحو قبل أن يلتحق. وكتب سليمان ابن وهب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة ثم لايتاخ ثم لاشناس ثم ولي الوزارة. وقال السلامي الشاعر الشعر وهو ابن عشر سنين وأول شيء قاله وهو في المكتب

بدائع الحسن فيه مفترقه وأعين الناس فيه متفقه
سهام الحافظه مفرقة فكل من رام لحظه رشقه
قد كتب الحُسن فوق وجته هذا مليح وحق من خلقه

واستظهر الوزير أبو القاسم المغربي من أهل القرن الرابع القرآن العزيز والكتب المجردة في النحو واللغة ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم، ونظم الشعر وتصرف في النثر وبلغ من الحظ ما يقصر عنه نظراؤه من حساب المواليذ والجبر والمقابلة إلى ما يستقل بدونه الكاتب، وذلك كله قبل استكماله أربع عشرة سنة، واختصر كتاب إصلاح المنطق فتناهى في اختصاره وأوفى على جميع فوائده حتى لم يفته شيء من ألفاظه، وكان ذلك قبل أن يستكمل سبع عشرة سنة.

ونظم الوزير إسماعيل بن حبيب النظم الفائق والنثر الرائق، قال في النفع: وأبو جعفر بن الأبار هو الذي صقل مرآته، وأقام قناته، وأطلعه شهاباً ثاقباً، يرسلك به إلى فنون الآداب طريقاً لاجباً، وله كتاب سماه بالبديع في فصل الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة أعرب فيه عن أدب غزير، وحظ من الأدب موفور، وتوفي وهو ابن اثنين وعشرين سنة واستوزره داهية الفتنة ورحى المحنة قاضي اشبيلية عباد جد المعتمد ولم يزل يصغي إلى مقالته ويرضى بفعاله وهو ما جاوز العشرين إذ ذاك وأكثر نظمه ونشره في الأزاهر وذلك يدل على رقة نفسه.

هذا ومن يستقر التاريخ يجد أمثلة كثيرة للنوابغ قبل السن الذي ضربه
الكاتب الفرنسي على أن النفع إذا لم يحصل ممن بلغ الرشد فأحر به أن
لا يحصل أصلاً وحصول النفع الحقيقي من ثمرات أعمال الكاتب قد لا
يكون في الثلاثين ولا في الأربعين من عمره ولذلك قيل:
إذا بلغ الفتى عشرين عاماً ولم يفخر فليس له افتخار

الجنون بالكتب

الغالب أن عشاق الكتب كعشاق الجمال أو هم أضل سبيلاً، فتراهم هائمين خاملين لا يعون على شيء في الأرض ولا يحفلون بعظائم الأمور فضلاً عن صغارها، يجعلون الكتب روحهم وراحهم وريحانهم، بل فروضهم ونوافلهم وأحاديثهم وأشغالهم. وكل شيء إذا جاوز الحد انقلب إلى الضد. وكذلك الحال بعاشق الأسفار فربما جَوَّز لنفسه السرقة ولكن سرقة الكتب بل وربما أفتى بحل ذلك لمن يستفتيه. ولقد قرأت فصلاً لأحد كتاب الفرنجة فآثرت تلخيصه كما يلي: أقر أحد عشاق الكتب يوماً في إنكلترا عن نفسه واسمه دييدن (1776 - 1847) أنه همّ يوماً أن يسرق وحمد لله على أن خلا بنفسه في خزانة كتب ستراسبورغ ولم تحدثه نفسه بسرقة كتاب منها. وكان خطر على بال رجلين في إنكلترا أن يطبعا لأنفسهما خاصة كتاباً يكون آية في طبعه ووضع صورته وورقه وتجليده ولم يطبعا منه غير نسختين. فما كان إلا كلا ولا حتى حدثت أحدهما نفسه بأن يذهب إلى دار صاحبه ويستأثر دونه بالنسخة فيسرق بعض صورها حتى تكون نسخته هي التي يرجع إليها، فراح في غياب صاحبه إلى زوجه وطلب إليها أن تريه النسخة لغرض بدا له فدفعتها إليه وجعل يقلبها مهتماً بأمرها ثم استغفلها فمزق بعض صور الكتاب وجعلها في جيبه وانصرف فلما عاد صاحبه ارتاب

في مجيء صاحبه وقلب أوراق الكتاب فرأى ما فعله فرفع عليه قضية حكمت له فيها جمعية الكتب بألفي جنيه تعويضاً.

وقد راودت أحد هؤلاء الغلاة يوماً نفسه أن يحرق مكتبته بعد أن زار مكتبة الدوك دومال ابن لويز فيليب أحد ملوك فرنسا المتوفى سنة 1897، إذ مزق الحسد والطمع والغيرة أحشاء ذاك الرجل. بيد أن العريق في محبة الكتب الحقيقي هو محب الآداب أيضاً وعضد المعارف فيغتنب إذا ظفر غيره بكتب لم يسعده الحظ بمثلها ويأمل أن يكون من ورائها مغنم كبير للمطالعين والدارسين.

ومن غرائب هؤلاء العشاق غليوم بودي (1467 - 1540) قال إنه اغتتم الفرصة يوم عرسه فمر بكتبه قبل أن يني بعرسه ومع هذا رزق بنين وبنات، وهو الذي يروى عنه أن خادمه جاءه يوماً وهو يلث فقال أن لسان اللهب أخذ يندلع على البيت وكان أمام كتبه بالطبع فأجابه قل لزوجي وهلا تعرف أنني لا أتدخل في أمور المنزل.

وأغرب من هذا ما أجراه أدرين تورنيب من مشاهير اليونان وأحد فلاسفة القرن السادس عشر (1512 - 1565) فإنه نسي يوم عرسه الذي يقضى عليه بأن يجتمع في يومه بالناس. وكذلك كان أمر فردريك مورل لجون من علماء فرنسا المشتغلين وكان يبحث في أخبار ليبانيوس السفسطائي اليوناني فجاءه رسول يقول له أن زوجته تريد أن تكلمه بضع كلمات وكان يحبها حباً جماً فقال له دعني الآن انظر هاتين الكلمتين لكن المهلة التي طلبها طالت واسبطرت فبعثت إليه برسول آخر قال له إن زوجتك كادت تفارق الحياة فحوقل وامتدح منها وردد بعض مآثرها وسيرتها الصالحة وعاد يغوص في بحر كتبه.

ومات القس كوجي (1697 - 1767) حزناً لأنه أكره على بيع كتبه. ويروى مثل ذلك عن سكاليجر العالم الطلياني المتوفى سنة 1558 وباترو الفقيه الفرنسي المتوفى سنة 1681 فقد قال الأول إن رمت أن تصاب بأعظم خطوب الأرض فبع كتبك تلق الشقاء ومن رام أن يجمع على رأسه ضروب البلايا صفقة واحدة فما عليه إلا أن يبيعه كتبه. ورأى يعقوب غوبيل (1564) من مشاهير فرنسا مكتبته نهب أيدي الضياع والسلب في فتنة عصابات الكاثوليك فمات يائساً بائساً. وحزن العالم الكتبي كولنه دورافل الفرنسي حزناً ولا حزن يعقوب على يوسف لما رأى كتب الأبرشية تطفو على نهر السين وكان يقدر قيمتها حق قدرها لأنه رتبها وبوبها.

واضطرت الحاجة اللغويّ برونك من ستراسبورغ (1729 - 1803) أن يبيع جانباً من مكتبته واشتد حزنه عليها حتى كان إذا ذكر أمامه مؤلف اقتناه وباعه في جملة ما أباعه تنحدر عبراته على خديه طوعاً وكرهاً. واضطر الأمير كاميراتا في القرن التاسع عشر أن يبيع أسفاره في المزاد العلني ولم تكد توزع على مبتاعها حتى انتحريده وقال بيدي لا بيد عمرو. ويقرب من ذلك ما فعله الكونت لايدوير فإنه توهم أن كتبه أتعبته فباعها فما هو إلا يوم وليلة حتى عاد يشتريها ثانية بكل مرتخص وغال فأشبه في حاله ولداً مبذراً غادر بيت أبيه.

وحدث أن أحد الأميركيين المستر بريان وهب إحدى المكاتب مجاميع نفيسة من روايات نادرة فلم تمض أيام حتى عاد إلى قيم المكتبة يطلب إليه أن يرى كتبه فأخذ يحدق بها ويصوب في جلودها ويصعد فظن القيم أن صاحبه ينوي أن يسترجع ما وهب ولكن راح المسكين فانتحر بعد يومين وعزَّ عليه أن يفعل فعلته قبل أن يودع محبوباته قديماً ويرعى

لهن ذمامهن. ومات المركيز شالابر في القرن التاسع عشر قانطاً مخففاً لكونه لم يتمكن من ابتياع نسخة من التوراة ثمينة. قيل إنه كان في محفظة جعلت في جلدها أوراق مالية بأربعين ألف فرنك فعثر عليها الكتبي لما اشتراها من صاحبها فأعادها إليها. وقضى بيترايك (1304 - 1374) في مجلسه ولما استبطأه أصحابه أطلوا عليه فوجدوه ميتاً والكتاب في حجره. وكذلك مات الصحفي ارمندبرتين (1801 - 1854) مدير جريدة الديبا وكان له مجاميع من أجمل القنيات والكنوز ذكروا أنه مات بين كتبه عقيب وفاة حليلته فوجدوه ماسكاً بكتاب كانت هي تحبه في حياتها فجاء الموت وهو على هذه الحال.

ومات المؤلف يعقوب برونه (1780 - 1867) وهو على كرسيه وبين كتبه بعد أن عمّر طويلاً ولا شغل له غير الدرس والتبحر. وقضى الجماعة موبللي منذ نحو نصف قرن وكانت مكتبته تساوي مائة ألف فرنك ولم يوجد عنده من الدراهم ما يكفي نفقات دفنه. ومن عشاق الكتب من سقطوا عن سلالم مكاتبهم فقصوا نحبهم ومنهم ايبرت (1791 - 1834) من غلاة الكتب في درسد والمركيز مورانت (1808 - 1868) الإسباني وروفر وغيرهم. والمؤرخ الكاتب تيودور مومسان الألماني (1817 - 1903) ذهب إلى خزانة كتبه ذات يوم والشمعة بيده فسرى لهيبها إلى لحيته البيضاء وقضى بعد شهر متأثراً.

وأعجوبة المولعين بالأسفار انطون ماكليابيشي (1633 - 1714) من مدينة فلورنسا فقد خدم لأول أمره في دكان فاكهانية وأخذ ينظر في الأوراق التي تصر بها الفاكهة فوق في نفسه أن يتعلم القراءة فاتصل بكتبي ولم يعدم من يدرسه ويعلمه، وكان ذا ذاكرة قوية ما حفظ شيئاً ونسيه،

وحفظ من أسماء الكتب ومظانها حتى أصبح عبارة عن مكتبة سيارة ثم اتصل بالغراندوق كوسم الثالث وجعله قيماً على كتبه، ولم تكن هذه الكتب لتشفى مطامعه بل أخذ يطالع فهارس المكاتب الأوربية مطبوعها ومخطوطها ويسأل كبار العلماء السياح عن نوادرها حتى صار يعرف كل دقيق وجليل من أحوال الكتب، وكانت له طريقة غريبة في المطالعة فإذا أخذ كتاباً لم يكن طالعه من قبل ينظر في اسمه وفهرسته ومقدمته وتقدمته ويتصفح أوائل فصوله، وبعد دقائق يقول لك رأيي في موضوع الكتاب والمصادر التي أخذ منها مؤلفه ولا ينسى ذلك على الدهر. ولم تكن له عناية بهندامه ونظام معيشته بل كان في ليله ونهاره مستغرقاً في أسفاره لا يخرج إلا إلى مكتبته. وكان أعلى بيته وأسفله ومدخله وحجره ونوافذه كلها ملأى بالكتب. وهو غريب في تقشفه حتى كان يأكل في الغالب بيضاً وخبزاً وماء - والخبز والماء أكل العلماء كما قيل - ولطالما سرق له خدامه وخدام جيرانه دراهم من خزانة بقره كان يضع فيها البيض والدراهم معاً، وقد أراد البابا والملك أن يتمثل بين أيديهما فتجاهل ما أمرا به وعاش على كسله إحدى وثمانين سنة وأوصى بمكتبته لبلده وكانت تبلغ ثلاثين ألف مجلد وجعل لها مورداً تعيش به وما زالت معروفة به إلى الآن.

نكات الوهراني

1

من مضحكات الوهراني مقامة في قصة عجوز تزوجت بإسكافي فجعلته بتعليمها فقيهاً وقالت له كن فقيهاً فكان. قال عيسى بن حماد فقلت للراوي مثلك من أفاد، وشفى بحديثه الفؤاد، فكيف تمشي حاله، وتغطي على الفقهاء محاله، فقال أعلم أنه لما أجمعت العجوز على تعليمه، ورده إلى المدرسة وتسليمه، تخوف من ذلك الأمر، وبات ليلته على الجمر، فلما أصبح قال لها: اعلمي يا هذه أنني كنت في بلدي إسكافياً... فكيف لي بالمدارس، وأنا كالطلل الدارس، ومن أين لي بالتخبيز (كذا) وأنا مثل حمار العزيز، والله ما أفرق بين الحروف، وقرن الخروف، فقالت أنا أعلمك العلم كله، إلا أقله، وأعلمك فصلاً في التدريس، تغلب به محمد بن إدريس، فقال لها يا هذه والله ما أرجو من المدرسة نفعاً، وإنني أخاف أن يقتلونني صفعاً، فدعيني في... فقالت أريد إخراجك من المدابر، وأرفعك على رؤوس المنابر، فاحضر ذهنك، وافتح لهذا الدرس أذنك، واعلم أن الألف قائم كالْمغزل، وهو كتاب المنزل، والباء كالصنارة، أو كرجل المنارة، والهاء كالثقاله، وفيها شيء كالعرقالة، والطاء كالخف، أو كطائرة الدف، وكل مدور ميم، وكل معوج جيم، والصاد تشبه نعالك، والذال تشبه قذالك، وأن القاف والكاف، يشبهان الاكاف، فاحفظ

هذا الكلام، وقد أصبحت مفتي العراق والشام، واحذر اعتزالي، واعلم أن بهذا الفصل مقدمة الغزالي.

فأقبل التيس يكرر لفظه، حتى أجاد حفظه، وعندها خرج في القمة والغمة (كذا) وعزم على مدرسة جمال الأئمة، فخرجت تُبخره من العين، وتقرأ عليه المعوذتين، وقالت له إذا جلست فترجع، ولا تتقنع، وانشر أكمامك، واطهر للناس أعلامك، فإن الغريب ابن ثوية، والمقيم ابن جدية (؟) فقال لها: أوصيني يرحمك الله. فقالت له إذا حضرت فانفخ حضنك، وبطنك، وانفش بين الفقهاء ذقنك، وباكراً المدرسة عند الصباح، وسابقم في الرواح، وإن غلبوك في العلم فلا يغلبوك عند الصياح، فقال والك، أخاف أن افتل باللوالك ولكن أوصيني فقالت خذ اللفظ بأناملك بين شفتيك، وزاحم الفقهاء بمنكبيك، وازعق في وجه الشيخ ولا جناح عليك. قال فهاتي إذا شيئاً من قماشك، أرد به صفع الشماشك، فقالت اجسر على القوم، فما هو إلا بياض اليوم، واعلم أن الفقه ليس هو إلا النفاق والزقاق، وتلويت وجه الخصم بالبزاق، فقال لها إن صدقت، فأنا أكون أمام الوقت، وقام في ذلك الأوان، حتى دخل على الفقهاء في الإيوان، فهابته قلوب الجماعة، وخافوا أن يكون من أهل البراعة، فأنصفوه في السلام، وبسطوه في الكلام، وأنسوه بالمحاضرة، حتى جاء وقت المناظرة.

2

كتب الوهراني على لسان بغلته إلى الأمير عز الدين موسك فقال: المملوكة ريحانة بغلة الوهراني تقبل الأرض بين يدي المولى عز الدين حسام أمير المؤمنين، نجاه الله من حر نار السعير، وعطر بذكره قوافل

العير، ورزقه من القرط والتبن والشعير، وسق مائة ألف بعير، واستجاب فيه صالح الأدعية من الجرم الغفير، من الخيل والبغال والحمير، وتنهي كل ما تقاسيه من مواصلة الصيام، وسوء القيام، والتعب في الليل والدواب نيام، قد أشرفت مملوكته على التلف، وصاحبها لا يحتمل الكلف، ولا يوقن بالخلف، ولا يحل به البلاء العظيم، إلا في وقت حاجتي إلى القضييم، لأنه في بيته مثل المسك والعبير...

فشعيره أبعد من الشعري العبور، لا وصول إليه ولا عبور، وقرطه أعز من قرط مارية، لا يخرج به بيع ولا هبة ولا عارية، والتبن أحب إليه من الابن، والجلبان، أعز من دهن البان، والقضييم، بمنزلة الدر النظيم، والفصة، أجمل من سبائك الفضة، وأما الفول، فمن دونه ألف باب مقفول، فما يهون عليه أن يعلف الدواب، إلا بعيون الآداب، والفقهاء للباب، والسؤال والجواب، وما عند الله من الثواب.

ومعلوم يا سيدي أن البهائم، لا توصف بالحلوم، ولا تعيش بسماع العلوم، ولا تطرب إلى شعر أبي تمام، ولا تعرف الحارث بن همام ولا سيما البغال، التي تشتغل في جميع الأشغال، شبكة من القصيل، أحب إليها من كتاب التحصيل، وقفه من الدريس، انتهى إليها من فقه محمد بن إدريس لو أكل البغل كتاب المقامات، مات، فإن لم يجد إلا كتاب الرضاع، ضاع ولو قيل له أنت هالك، إن لم تأكل موطأ مالك، ما قبل ذلك. وكذا الجمل، لا يتغذى بشرح أبيات الجمل، وحزمة من الكلاء، أحب إليه من شعر أبي العلاء، وليس عنده طيب، شعر أبي الطيب. وأما الخيل، فلا تطرب إلا لسماع الكيل، وإذا أكلت كتاب الذيل، ماتت في النهار قبل الليل، والويل لها ثم الويل. ولا تستغني الأكاديش، عن الحشيش، بكل ما

في الحماسة من شعر أبي الحريش. وإذا أطعمت الحمار، شعر ابن عمار حل به الدمار، وأصبح منفوخاً كالطبل، على باب الإسطل. وبعد هذا كله قد راح صاحبهما إلى العلاف، وعرض عليه مسائل الخلاف. وطلب من بيته خمس قفاف، فقام إليه بالخفاف، فخاطبه بالتقعر، وفسر عليه آية العير، وطلب منه وية (كذا) شعير، فحمل على عياله ألف بعير، فانصرف الشيخ منكسر القلب مغتاضاً من الثلب، وهو أنجس من ابن بنت الكلب، فالتفت إلى المسكينة، وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة، وقال لها إن شئت أن تكدي فكدي، لا ذقت شعيراً ما دمت عندي: فبقيت المملوكة حائرة، لا قائمة ولا سائرة، فقال لها العلاف لا تجزعي من حباله ولا تلتفتي على سباله، ولا تنظري إلى نفقته، ولا يكون عندك أخس من عنفقه.

3

قال الوهراني لبعض أصحابه وقد فارقه من الشام إلى مصر: فاجتمع يوماً ببعض المعارف الراسخين في المعارف، فسأله عن أسعار الأشعار فأخبره عنها بالكساد، والفساد، وعن أهلها بالحراف، والانحراف، وقال: كل كلام مسجوع، لا يسمن ولا يغني من جوع، وصاحب القصيد، كالباسط ذراعيه بالوصيد، وما عند الأمراء، أخسُّ من ذقون الشعراء، فلو بشر أحدهم بشار وهناك ابن هاني، وقصده أبو العلاء، ونزل به صريع الدلاء، ومدحه الدؤلي بداليته، والطائي بطائيته، والوأواء بوأويته، لما أجازوه على ذلك بجوزة، ولا أثابوه بثوب خليع، ورد أمس الذاهب أهون عليه من أخذ ذهبه، وخلع الأكتاف أهون من خلعه، وحنوط الغاسل أقرب من حنطته، والشعري أقرب من قرطه، والتبن مثل التبر.

منام الوهراني: للوهراني صورة منام رآه أو تخيله أتى فيه بكل حلاوة اعتذر ابن خلكان بطوله عن ذكره في ترجمة الرجل. رأى كأن القيامة قامت والناس يعرضون على الديان بأعمالهم، فوصف حال فريق الجنة وفريق السعير بالفاظ لو عرت عن البذيء لساغ نشرها على رؤوس الملاء. فسأل عن بعض من يدعون التصوف وهم بعيدون منه فقيل له هؤلاء قوم غلب عليهم العجز والكسل في الدنيا فهربوا من كد الصنائع والأعمال إلى زوايا المساجد والمشاهد بحجة العبادة والانقطاع، فلا يزال أحدهم يأكل وينام حتى يموت. قال: فبأي شيء كانوا ينفعون الناس ويعينون بني آدم فقيل له: والله بلا شيء البتة وما كانوا إلا كمثل شجر الخروج في البستان يشربون الماء ويضيقون الطريق وليس لهم ثمرة.

ثم قال: ومشينا معه (في المحشر) مقدار أربعة فراسخ وإذا بجمع عظيم يحتوي على مشايخ وشبان وكهول قد حفّ مجلسهم السكينة والوقار وجلالة الملك والرياسة تلوح على وجوههم. فسألنا عنهم فقيل هؤلاء السادة والقادة من بني شمس فدخل قسيم الأعور حتى وقف بين يدي عظيمهم فقال: يا خال (كذا) المؤمنين يا كاتب وحي رب العالمين نحن قوم من محبيكم وقد طردنا عن الحوض لأجلكم ونحن هالكون من شدة العطش بسببكم فقال: لك بينة تشهد بما تقول فقال: نعم جماعة من شيعتكم ومحبيكم الأكراد فقال: أحضرهم فقال: ابعث معي رجلاً شامياً فتخلل الناس ونادى بأعلى صوته: يا عبد الملك بن درياش (?) قاضي قضاة مصر في أيام الملك الناصر صلاح الدين فلم يجبه أحد. فوقع ابن

بدر مغشياً عليه من شدة الأوام فقعدنا عند رأسه وسألنا هل عندكم قطرة ماء نبلُّ بها حلقة. فقالوا: لا والله لو تقدمتم قليلاً لما احتجتم إلى هذا كله. فقلنا له: وكيف ذلك. فقال: لأن أم حبيبة زوجة النبي (ص) تبعث إلى أخيها معاوية كل يوم خمس ثلجيات مزملات، كل ثلجية مثل جبل الثلج عشرين كرة فيها الماء الخاص من عين التسنيم. يدفع واحدة منها إلى عمرو بن العاص والأخرى إلى زياد بن أبي سفيان وذويه والأخرى إلى مروان بن الحكم وذويه والأخرى إلى سعيد ابن العاص وذويه ويقسم الواحدة في آل أبي سفيان.

وما كان أسرع من أن حضرة القاضي في جماعة من الأكراد فتقدموا إلى معاوية فسلموا عليه ثم التفتوا إلى ابنه يزيد فقالوا: السلام عليك يا إمام العدل السلام عليك يا خليفة الله في الأرض السلام عليك يا ابن عم رسول الله السلام عليك يا سيدي ورحمة الله وبركاته نفعا الله بطاعتك وأدخلنا في شفاعتك ورفع درجتك في الجنة كما رفعها في الدنيا فرداً عليهم رداً خفيفاً وقال للقاضي صدر الدين: الحمد لله الذي جعل في أصحابي وشيعتي من يصلح أن يكون قاضي قضاة المسلمين. فقال له القاضي: كل ذلك ببركة الفقيه عيسى ضياء الدين. فقال له أوصيك بأصحابك الأكراد خيراً فإنهم أولى بحسن تدبيرك من سائر الناس فقال: نعم يا أمير المؤمنين ما أحتاج فيهم وصية هذا أنا قد وليت القضاء لجماعة منهم أنا أعرفهم في بلادنا لا يعيشون إلا من لصوصية البقر في الليل وسرقة الحمير بالنهار ولم أفعل ذلك إلا لأنني ألزمت باستقضاء قوم أنحس منهم بكثير.

مكتبة الإسكندرية

زعم بعض متأخري المؤرخين أن عمر بن الخطاب (رض) أوعز إلى عمرو بن العاص لما فتح المسلمون مصر أن يحرق مكتبة الإسكندرية وكان فيها مؤلفات الحكماء الأقدمين فانقطع بذلك سند العلوم والصنائع والاختراعات التي عرفت وبعبارة ثانية محيت المدنية القديمة وعاد العالم في جهالة جهلاء. مسألة شغلت بال الباحثين والمفكرين. وقد ألف أحد أفاضل الأستانة محمد منصور كتاباً بالتركية سماه مكتبة الإسكندرية وذلك عقيب مناقشة دارت بينه وبين بعض كتاب تلك العاصمة في إحدى المجلات العلمية التركية منذ نحو أربعين سنة. فتصفحت الكتاب وعربت بعض صفحاته المتعلقة بحريق هذه المكتبة وهاك ما قاله ملخصاً:

هلك اسكندر المكدوني فانقسمت مملكته بين قواده واستولى على مصر بطليموس سوتير وكان محباً للعلوم والمعارف، وإذ رأى تفرق حكماء اليونان ايدي سبأ بما دهم بلادهم من زوال العلم وعفاء المدنية دعاهم إلى حماه فأتوه ومعهم بقايا من الكتب المنوعة فأحسن وفادتهم ووفادتها وأقام لحفظ هذه المصنفات مكتبة بالقرب من معبد السرايوم علوها مائة قدم وهي قائمة على جبل صناعي وسط مدينة الإسكندرية. وروى بعض المؤرخين أن هذا الملك أحدث في قصره مكتبة أخرى جعل في الأولى أربعمائة ألف مجلد وفي الثانية ثلاثمائة ألف.

ولقد ظلت مكتبة الإسكندرية بعناية بطليموس وأخلافه مرجع أهل العلم وكهف حفدة المعارف إلى سنة سبع وأربعين ق. م، وقد أبدى مالتابرون في جغرافيته والمجمع العلمي الذي ألف في فرنسا للبحث عن الأبنية القديمة الدائرة وجغالديغي في تاريخه العام وسائر كتب تواريخ رومية الأسف الكثير لحريق هذه المكتبة برمتها عقيب فتنة نشأت من افتتان أحد قياصرة رومية بملكية مصر كليوباترة المشهورة بجمالها وذلك لما استحال حكم رومية إلى الملوكية وأخذ القيصر يطارد عدوه بومبيس حتى بلغ الإسكندرية، وهنا جرى بينه وبين كليوباترة أمور أدت إلى إحراق تلك الكتب المتنوعة التي بذل النفس والنفيس في استجلابها منذ تأسيس المكتبة إلى أن نعق في أرجائها غراب الدمار.

واختلفت روايات المؤرخين في عدد أسفار هذه المكتبة، وأكد بعضهم أن الكتب التي أثرت عن حكماء اليونان وحدهم تبلغ سبعة آلاف مجلد، وهو عدد فيه نظر إذا أحصينا ما تنتجه كل مملكة على حدتها في أوربا لهذا العهد من المصنفات على انتشار الطبع والورق وتوفر أسباب التأليف توفراً لم يسبق له نظير في تاريخ العالم. وأن معظم حكماء اليونان اشتهروا عند بعض المؤرخين على حين لم يؤثر عنهم كتاب ما. وعليه فبعيد عن التصديق ما يدعى بوجود مليون كتاب في مكتبة الإسكندرية. ولو كان الأمر على ما ذكروا لاقتضى لكل حكيم من حكمائهم أن يؤلف ثلاثين أو أربعين كتاباً وهو محال.

عرفت كليوباترة أن لها يداً في إحراق مكتبة الإسكندرية فأعادت بناء المكتبة تكفيراً عن سيئاتها، وجعلت في هذه الخزانة مكتبة برغمة التي أهدت إليها وكان فيها مائتا ألف مجلد في رواية. وبعد قليل استولى

الرومان على مصر فاشتد ضغطهم على أهلها جرياً على عاداتهم القديمة، فسقط عمران الإسكندرية في أوجز مدة ثم اشتغل أكثر الأهلين بحل المسائل الدقيقة من الدين المسيحي الذي كان ظهر في جوار تلك البلاد. واستحالت الحال فبطلت العلوم وانقطع تدريسها في الإسكندرية بالمرة.

واحتفظت دولة الرومان بالعاديات والمصانع التي وجدت في البلاد المتغلبة عليها في أوروبا وآسيا وإفريقية إلى سنة 390 للميلاد أي قبل الهجرة بمائتي سنة تقريباً. بيد أن تيودوس أحد قيصرة الرومان ارتأى لجهله وتعصبه أن لا يبقى في المملكة الرومانية غير الدين المسيحي وأن تلغى سائر الأديان والمذاهب فاستولى على المعابد وضبط عقاراتها ونفائسها وقامت قيامة الرهبان وحملوا الحملات المنكرة على المعابد والمصانع وهدموها وعاثوا بما فيها جملة.

وفي خلال تلك المدة قام تيوفيل رئيس أساقفة الإسكندرية في جملة من رهبان تلك الناحية وخرّب المعبد البديع المعروف باسم بياكوس ثم هدم معبد السرايوم بعد مجادلات امتدت لألأؤها وفتن شعواء طالت برحاؤها. وهذا المعبد الذي يعد من بدائع الصنائع وله المقام الأول بين مصانع المملكة الرومانية يماثل بناية الكابتول في رومية. وهدم ما كان في جوار المعبد الآنف ذكره من المكتبة التي أنشئت للمرة الثانية على ما تقدم وقد تلفت هذه المرة جميع كتبها. نعم أنشئت بيعة في محل هذا المعبد ولكن لم تتجدد المكتبة قط ولم يبق لها اسم ولا رسم.

واشتد ضغط الإمبراطور جوستينانوس على عبدة الأوثان وعطل بيوت العلم وقضى بإقفال المدرسة التي كان يدرس فيها ديوجنس وهرمياس واتاليوس وبرسيان وداماسقوس وإيسيدور وغيرهم من الفلاسفة لأنهم

لم يرجعوا عن اعتقاد القدماء ويتحلوا النصرانية حتى اضطروا فراراً بأنفسهم عن مواطن الهلكة أن يرحلوا إلى فارس ولما أرادوا الرجوع إلى بلادهم توسط في أمرهم انوشروان ملك الفرس ومن الشروط التي عقدها مع قيصر اليونان أن لا يمس هؤلاء الفلاسفة بسوء وأن يكونوا أحراراً في اعتقادهم على أن مدرستهم عطلت وخربت مع غيرها من مدارس آثينة.

علم بهذا أنه كان للإمبراطورين تيودوس وجوستينانوس يد طولى في إتلاف آثار أهل العلم ومصانعهم قديمها وحديثها رجاء بث دعوة النصرانية فدثرت المدنية التي قامت بحسنات الأجيال السالفة والأمم الغابرة وذلك بأعمال هذين العاهلين وبما أبداه الرهبان والرومان من ضروب العدوان.

ثم أفاض المؤلف في حملة أهل البندقية والفرنجة على القسطنطينية سنة 1202م وحرقهم لها ثلاث مرات بحيث دثر ثلثاها وأحرقت أعلاق الكتب التي جمعت فيها منذ نحو تسعمائة سنة ولما استولى هؤلاء الفاتحون على هذه العاصمة تفرقوا في أطرافها وأنشأوا يسلبون كل ما تطول إليه أيديهم من أموال الناس وعروضهم إلى آخر ما قاموا به من العيث في الكنائس والبيع التي أنقذت من لسان اللهب وعبثوا بحليها وجواهرها وخصوصاً كنيسة أيا صوفية المشهورة فقد أخذوا كل ما أتحفها به الملوك والأغنياء من الجواهر والحلي والنفائس باعوا بعضه بيع السماح وأتلفوا الآخر كأنه لا قيمة له إلى نظائر ذلك مما قاموا به من الأعمال الوحشية التي فصلها حق التفصيل المؤرخ نيكيتاس أحد رجال دولة الروم.

واستفاض المؤلف فيما آل إليه أمر مكتبة الإسكندرية من الحريق بقضاء الله وقدره سنة 47ق. م وخرابها للمرة الثانية بحملات رئيس الأساقفة الإسكندري وجماعته عمداً قبل الهجرة بمائتي سنة وإحراق

ما جمع في زهاء تسعمائة سنة منذ جعلت القسطنطينية عاصمة لدولة الرومان إلى استيلاء اللاتين عليها بداعي ما حدث فيها من الفتن بين الروم واللاتين. وإن ما أنقذ من هذه الحرائق من الكتب أتى عليه اللاتين بجهلهم واستهزائهم بالمعارف وأهلها حتى أن مصر لما فتحها المسلمون لم يبق لمكتبة الإسكندرية فيها عين ولا أثر ولما فتحت الأستانة أيضاً لم يكن فيها عاديات ولا أعلاق بتاتاً.

وقد صرح جيون في تاريخه على سقوط دولة الرومان بأن نسبة الحريق لعمر أو لعمر و أكنوبة لفقها أبو الفرج رئيس أساقفة حلب على طائفة اليعاقبة إحدى الطوائف المسيحية بعد مضي نحو ستمائة سنة من الهجرة في تاريخ له ألفه بالعربية ولما نقل ما كتبه إلى اللاتينية انتشرت هذه الأغلوطة في أوربا. ومما قاله أبو الفرج أن عمر بن الخطاب أصدر أمره إلى عمرو بن العاص بإحراق هذه الكتب اكتفاء بما في القرآن من العلم وادعى أن هذه الكتب وزعت على أربعة آلاف حمام في الإسكندرية فظلت المواقد تحرقها حصباً ووقوداً ستة أشهر لا تحتاج إلى غير لهيب تلك الكتب لإحماء الماء.

قال جيون: لا يخفى على أهل البصر أن مكتبة الإسكندرية احترقت قبل الميلاد وما زعمه رئيس أساقفة حلب من أن المسلمين أحرقوها لم يتعرض له مؤرخ واحد ممن ظهروا قبل أبي الفرج حتى أن افتيكيوس بطريرك الإسكندرية عند توسعه في الكلام على استيلاء المسلمين على الإسكندرية لم يذكر كلمة عن حرق عمرو بن العاص لهذه المكتبة. وبهذا علم أن هذه أسطورة ملفقة بالكذب المحض.

على أن الإسكندرية كانت من القديم مقر البطارقة ومنبعث المجادلات

المعلومة التي حدثت في مسألة الألوهية. فلو صح أنه كان في هذه المدينة مكتبة كما زعم أبو الفرج حين فتحها واحترقت بأمر عمرو بن العاص لاستخدمت تلك المجلدات الضخمة التي ملئت بمباحث تلك المسألة المذكورة ومقالات المناقشين فيها في غير إحماء ماء الحمامات. وهب أن العرب أحرقوا تلك المجلدات فقد أزالوا كثيراً من الأفكار الباطلة التي ألف الناس الاشتغال بها عبثاً وخدموا عالم الإنسان خدمة عظيمة.

قال المؤرخ التركي بعد أن أورد هذه الجملة عن المؤرخ جيون: من البديهي أن ما افترض المؤرخ الموما إليه وقوعه وما زعمه رئيس الأساقفة المذكور من حريق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية التي ملئت بالمجلدات الضخمة في مباحث الألوهية أو مؤلفات الحكماء المتقدمين على فرض وقوعه فليس من العقل ولا من الحكمة ما روي في كيفية حريقها. وغير نكير أن هذه فقرة وضعت بعد لمآرب وغايات.

ولو كانت عقدت النية على إحراق هذه الكتب كما ادعى رئيس الأساقفة لمطابقتها للقرآن العظيم أو لمباينتها له لاقتدر عمرو بن العاص أن يبيد هذه الكتب بحضرته جملة واحدة في يوم واحد وربما في ساعات معدودة وكان في غنى عن تسليمها لأصحاب الحمامات في الإسكندرية ولأهل هذا الثغر وكلهم من الروم يحرقونها كما يحب ويرضى بما تلهمهم إليه معرفتهم. نعم كان ابن العاص يحذو حذو مسيحيي إسبانيا لما استولوا على قرطبة وأحرقوا في يوم زهاء مليون مجلد من مصنفات علماء المسلمين وكانت في عدة مكاتب على ما روى المؤرخ دياردو.

ومن البلاهة وال حماقة أن يصدق أن عمر يختار هذه الطريقة في إبادة الكتب ويدفعها إلى أرباب الحمامات في الإسكندرية وينقطع عن وظيفة

الجهاد المقدسة مع رجاله من المسلمين وعددهم لا يتجاوز أربعة آلاف رجل حين استيلائه على مصر لينقطعوا إلى إحراق كتب دونت بلغة أعجمية ويصرف في ذلك خمسة أشهر أو ستة في قمامين الحمامات مما لا يقبله العقل ولا يوافق الحكمة. وأتى لأرباب الحمامات في الإسكندرية وهم من بني الروم أن يحتفظوا بهذه الكتب ويحرقوها في غياب المسلمين حصباً لحماماتهم فأحرَّ عند ذاك أن ينحي باللائمة على الروم لا على المسلمين باختلاق فئة من الجهال وخصوصاً بعض أصحاب الأغراض.

نقض الكاتب التركي ما أتى به بعض أرباب الأهواء وزيفه بالبرهان السديد ثم نقل ما قاله رئيس مدرسة آثينة الكلية في تاريخه العام عند كلامه على الإسكندرية من أن هذه المكتبة حرقت لدى وصول قيصر إلى مصر وأن ما بقي من الكتب تلف قبل استيلاء المسلمين على الإسكندرية بزمان طويل وأن ما يحكى من أن عمرو بن العاص حرقها إن هي إلا فقرة مدخلة بعد هذا. وقد عرب ما تقدم حباً بإظهار حقيقة طال البحث فيها وتعارضت الآراء بأمرها والحقيقة ضالة كل باحث ومستفيد.

شعر فقيه

الشائع على الألسن أن شعر الفقهاء منحط عن شعر الأدباء ولكن هذا الحكم لا يصح على إطلاقه إذ ما كل فقيه جامد القول تافه الأساليب، وليس كل الناس المهذب والأديب. نعم وليس كل الشعراء منحلة قيود تربيتهم، معتلة عهود حميتهم وحماستهم. ومن المذكورين بالرحمة القاضي علي بن عبد العزيز (366) الذي وصفه صاحب اليتيمة بأنه: فرد الزمان، نادرة الفلك، وإنسان حذقة العلم، وقبة تاج الأدب، وفارس عسكر الشعر، ومجمع خط ابن مقلة، إلى نثر الجاحظ، ونظم البحري، وقد كان في صباه خلف الخضر في قطع الأرض وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرهما واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً وفي الكمال عالماً، وله من أبيات:

وقالوا تَوَصَّلْ بالخضوع إلى الغنى	وما علموا أَنَّ الخُضُوعَ هو الفقرُ
وبيني وبين المال بابان حَرَمًا	عليَّ الغِنَى نفسي الأيُّهُ والدهرُ
إذا قال هذا اليُسْرُ أَبْصَرْتُ دونه	مواقفَ خَيْرٍ من وقوفي بها العُسْرُ

وله:

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق واسعٌ	فقلتُ ولكن مَطْلَبُ الرزقِ ضَيِّقُ
إذا لم يَكُنْ في الأرض حُرٌّ يُعِينُنِي	ولم يَكُ لي كَسْبٌ فمن أين أُرزقُ

صرتُ للبيتِ والكتابِ جليسا
مَ فَلِمَ أبتغي سواه أنيسا
سَ فدَعُهُم وَعِشْ عزيزاً رئيسا
وقال وهو مما هو يجدر بكل عالم أن يجعله نصب عينه ورهن أذهنه:

رَأَوْا رَجُلًا عَنِ مَوْقِفِ الدُّلِّ أَحْجَمًا
وَمَنْ أَكْرَمَتُهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرَمًا
بَدَأَ طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمًا
مِنَ الدُّلِّ أَعْتَدُ الصِّيَانَةَ مَغْنَمًا
وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
مَخَافَةَ أَقْوَالِ الْعِدَا: «فِيمَ» أَوْ «لِمَا»
وَقَدْ رُحْتُ فِي نَفْسِ الْكَرِيمِ مُعْظَمًا
أَقْلَبُ فِكْرِي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمًا
وَإِنْ مَالٌ لَمْ أَتْبِعْهُ: «هَلَا» وَ«لَيْتَمَا»
إِذَا لَمْ أَنْلُهَا وَافِرَ الْعِرْضِ مُكْرَمًا
وَأَنْ أَتَلَقَّى بِالْمَدِيحِ مُذَمَّمًا
إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسُ الْمُعْظَمًا
وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَدُهُ الْحُرُّ مَغْرَمًا
لِأَخْدَمٍ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأَخْدَمًا
إِذَا فَاتَّبَعَ الْجَهْلُ قَدْ كَانَ أَخْزَمًا
وَلَوْ عَظُمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظَّمَا

ما تطعمتُ لذة العيش حتى
ليس شيءٌ أعزَّ عندي من العل
إنما الدُّلُّ في مخالطة النَّا
وقال وهو مما هو يجدر بكل عالم أن يجعله نصب عينه ورهن أذهنه:
يَقُولُونَ لِي: فَيْكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا
وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بَعْرَضِي جَانِبًا
إِذَا قِيلَ: هَذَا مِنْهُلٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَى
أَنْزَهَهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُهَا
فَأَصْبَحُ عَنْ عَيْبِ اللَّئِيمِ مُسَلِّمًا
وَلِإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبْتَ
وَلَكِنَّهُ إِنْ جَاءَ عَفَوا قَبِلْتُهُ
وَأَقْبِضْ خَطْوِي عَنْ حُطُوظِ كَثِيرَةٍ
وَأَكْرَمْ نَفْسِي أَنْ أَضَاحِكَ عَابِسًا
وَكَمْ طَالِبَ رَفِيٍّ بِنِعْمَاهُ لَمْ يَصُلْ
وَكَمْ نِعْمَةٌ كَانَتْ عَلَى الْحُرِّ نَقْمَةٌ
وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي
أَشْقَى بِهِ غَرَسًا وَأَجْنِيهِ ذَلَّةً
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَاَنَ وَدَنَسُوا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَّاحٍ لِي يَسْتَفْزِنِي
وَلَكِنْ إِذَا مَا اضْطَرَّنِي الضُّرُّ لَمْ أَبْتَ
إِلَى أَنْ أَرَى مَا لَا أَعْصُ بِذِكْرِهِ

مُحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا
وَلَا كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَرْضَاهُ مُنْعِمًا
أَقْلَبُ فِكْرِي مُنْجِدًا ثُمَّ مُتْهِمَا
إِذَا قُلْتُ: قَدْ أَسْدَى إِلَيَّ وَأَنْعَمَا

مقاصد المؤلفين

الانتقاد في البشر خلة يجيدون فيه بحسب ما رزقوا من القوى العقلية واستنبطوا من الأسرار العلمية، والمرء في الغالب لا يرى عيوب نفسه ويحتاج أن يدلّه دال معتدل عاقل عليها. وكذلك المؤلف وما تأليفه إلا بضعة من نفسه وحسنة من حسناتها أو سيئة من سيئاتها. ولكن ما يسوغ للقرين أن يقوله لقرينه لا يسوغ للعامي أن يقوله للخاصي ولا للغائب أن يعرضه على الحاضر.

ومن الأسف أن سرعة الحكم فاشية في المشرق مستحكمة من نفوس أهله، فنرى أحد المتعلمين من أبنائه إذا ألقى إليه كتاب ينظر فيه أسطراً ويحكم على المؤلف حكمه المسمط الذي لا يقبل النقض ولا الرد دون أن يعرف مقصده أو يقرأ كتابه برمته أو مقدمته على الأقل. ولطالما كتب بعضهم تقریظاً على بعض الكتب بمجرد تلاوة صفحة من كتاب وسلق كاتبه بالسن حداد لجملة رآها فيه وربما فاتته تدبر السياق والسباق وكان ما انتقده منبهاً عليه فصار الناقد ومقصد المؤلف على طرفي نقيض ينتقد عليه ما لو كان قرأ مقدمته على الأقل لما ألقى القول على عواهنه وحكم ابتساراً وافتئاتاً.

وبعد فإن كتب العلم كالبضائع تعرض في السوق فتتناولها الأيدي بحسب الرغبات، فكما أنه لا يحق لمن نزل السوق لابتياح ثوب أن

يعترض على قماش لا يوافق ذوقه وحالته إذ أن الناس من لا يرغب في غير هذا الضرب من النسيج فإنه لا يسوغ لمن يعد نفسه من طبقة العالمين أو المعلمين أو المتعلمين أن يزيّف قولاً لقائل دون النظر في المبدأ والغاية والأصل والفرع. لا بد لكل مؤلف من غاية يرمي إليها في تأليفه يفهم ذلك في الغالب مما رتبوا كما قال ابن ساعد في صدر كل كتاب من تراجم تعرب عنها سموها الرؤوس وهي ثمانية: الغرض والمنفعة والسمة والواضع ونوع العلم ومرتبة ذلك الكتاب وتربيته ونحو التعليم المستعمل فيه. قال وكتب العلوم لا تحصى كثرة ككثرة العلوم وتفننها واختلاف أغراض العلماء في الوضع والتأليف ولكن تنحصر من جهة المقدار في ثلاثة أصناف: مختصر لفظها أو جز من معناها وهذه تجعل تذكرة لرؤوس المسائل ينتفع بها المنتهي للاستحضار وربما أفادت بعض المبتدئين الأذكياء لسرعة هجومهم على المعاني والعبارات الدقيقة ومبسوطة تقابل المختصرة وينتفع بها للمطالعة ومتوسطة لفظها بإزاء معناها ونفعها عام.

فالناظر في كتاب يقتضي عليه بادئ بدء أن يطالعه كله حتى إذا أتى على آخره، ورأى المؤلف خالف شرطاً أخذ على نفسه أن يجري عليه كأن يطيل وهو يريد الاختصار، أو يختصر وهو يتوخى الإطالة، أو يدخل علماً في علم أو يخط في العبارة ويخلط في الإشارة، أو يركب مركباً لا يسوغ ركوبه في التأليف كأن يكون كتابه في الأدب ويودعه صنوفاً من الخلاعة والرقاعة - إذا فعل المؤلف هذا يسوغ للمطالع بعد أن يتلو كلامه حق تلاوته أن يصدر رأيه فيما طالع ويعتدل في حكمه على كل حال.

كنت مرة أطلع تاريخ ابن جرير الطبري وهو في عشرين مجلداً فلم أكد أقرأ جزأين أو ثلاثة حتى كاد يعروني الملل لكثرة ما قرأته من الأسانيد

ولقيته من الحوادث قبل البعثة وأكثرها مأخوذ عن الإسرائيليات معدود في نظر المحققين من الأخبار الضعيفة. فشكوت أمري لأحد الأدباء وأشرت إلى ما ألقاه من العنت والتعب فعذلني على تطليبي لمثل هذه الأسفار المطولة وعجب من توفري على دراستها والأخذ منها فما أجبته بغير السكوت، إلا أنه لاحظ بالحال أنني وإياه على طرفي نقيض في هذا التصور. ثم ذكرت مثل ذلك أمام إمام من أئمة العلم فأغضى عن خطابي وتلهى عن جوابي، إلا أنه قال حبذا لو ظفرنا له بمختصر فإن بعض العلماء اختصروه قديماً. وما كدت أتصفح الجزء الرابع من كتابي حتى ارتاحت نفسي إليه بعد انقباضها ولانت بعد شموسها وأخذت أطلع فيه الساعات الطويلة واستفيد منه ما لم أره غيره من قبل. وأنشأت أقيم الأعذار للمؤلف رحمه الله في إطلاته لأنه جعله مأخذاً للمؤرخين والمطالعين فعَدَّ كتابه من الأمهات كما أنه هو من الإثبات الثقات.

مضت على ذلك أيام فذاكرت الإمام المشار إليه فيما وقع في نفسي، فاندفق يهدر بما جاش به صدره وأفاض في هذا الموضوع إفاضة أبانت عن ضعف المتسرعين في الأحكام على المؤلفين بما تمنيت لو كنت كلي أقلاماً تكتب ما أملاه في ساعة فمما قاله: هذا كتاب الحيوان للجاحظ ضمنه ما يلزم الطبيب والأديب، فجاء عبد اللطيف البغدادي فاختصره مقتصرأ فيه على ما هو أَمْسُ بحاجة الطبيب وأعلق بغرضه وربما يجيء غيره فيكتفي من كتاب الحيوان بما يروق الأديب. ولما ذكرت له ما نقله الدميري من ذكر ملوك الإسلام في كتاب حياة الحيوان قال: الحق معك في ذلك لكن لا يفوتك أن الدميري ليس من علماء الحيوان، ولذلك كان كحاطب ليل جمع بين النافع والضار، وما كان أحراره لو كان من أهل التحقيق أن يجرب

بنفسه خواص الحيوانات التي ذكرها فقد كان يتيسر له هذا، وإن لم يكن ذا إلمام بهذا الفن فيخفف من عناء قراء كتابه ويضمنه فوائد حسنة نافعة على أن كتابه على ما فيه قد وقع في أيدي فئة من المطالعين فاستفادوا منه واشتهر بينهم.

قال وليس من الصواب الأخذ على المقرئ صاحب نفح الطيب لأنه لم يذكر في كتابه تاريخ الأندلس وما توالى عليها، ولو أنعم الناقد نظره في مقدمة الكتاب بل في اسمه وأكثر أسماء الكتب تدل على مسمياتها لما حكم هذا الحكم وما كان نفح الطيب إلا كتاب أدب خص فيه بالذكر الوزير لسان الدين بن الخطيب، وأورد بحسب ما اقترح عليه بعض أهل الأدب في الشام طرفاً صالحاً من نشره ونظمه واستطرد إلى ذكر بعض رجال الأندلس إلى عهده وجملة من أخبارها بالعرض.

ثم قال وكذلك الحال في قلائد العقيان للفتح بن خاقان فإنه كتاب توخى فيه مصنفه إظهار الصناعة اللفظية، وأن المترجمين هم من أهل حرفته فاقصر من ترجمتهم على إيراد طرف من مثورهم ومنظومهم وليس كتابه كالذخيرة لابن بسام، فإن هذا ترجم حقائقهم وقصد بذخيرته أن تكون نافعة في الوقوف على أحوال الأندلسيين وتصوير صفاتهم. فإن تأفف بعض من تصفحوا قلائد العقيان وعابوا عليه خلوه من تاريخ مواليد المترجم بهم ووفياتهم، فإن من الناس من لا يرتضون من مثل هذه الكتب إلا بهذه الطريقة الأدبية. ولكل فئة من المطالعين طائفة من الكتب تروقها ويستهجنها غيرها.

هذا مثال في النقد السليم وقد كتب في القديم محمد بن ساعد الأنصاري كتاباً في أنواع العلوم وذكر النافع من كتبها، كما كتب عبد اللطيف البغدادى

مقالة في إحصاء مقاصد واضعي الكتب في كتبهم وما يتبع ذلك من المنافع والمضار، وكتب الفارابي في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها واليوم علينا أن نتدارس ما انتهى إلينا من علم أسلافنا الأقدمين ونضيف إليه ما وصل إليه العلم عند أهله من المتأخرين ونتعلم عن الغربيين صحة النقد والحكم كما نأخذ عنهم العلم والفهم فليس العيب في الحركة وإنما العيب في الجمود والله يسددنا حتى لا ننطق عن هوى.

مكتبة

t.me/soramnqraa

النظامية والمستنصرية

بلغت بغداد في الحضارة أعلى درجاتها إبان التمدن الإسلامي، وكانت عاصمة العلم ومبعث أشعة الحكمة حتى في عصور تدهورها أيام ضعف سياستها وأصبح حكم العباسيين فيها اسمياً ولم تبرز تنفخ فيها روح النمو والرقى التي بثها فيها خلفاء القرن الثاني والثالث. فكأن العادة أو قوة الاستمرار حكمت أن لا يكون القرن الرابع والخامس والسادس والسابع دون ذينك القرنين إلا قليلاً. وظلت هذه العاصمة على علاتها أرقى من قرطبة والقيروان ومصر ودمشق وسمرقند وخراسان وغيرها من أمصار الحضارة وقواعد العمل على ما بذل زعماء تلك العواصم من العناية في مضاهاة دار السلام وقبة الإسلام.

ولقد كانت المدارس إحدى العوامل الكبرى في ذاك الترقى، ويكاد الفضل يرجع إلى بغداد في إحداثها على هذا الطرز المألوف وإن بقيت الأمة زمنًا تتلقى علوم الدنيا والدين في حلقات المساجد والمجامع الخاصة. ولقد استاء علماء ما وراء النهر لما بلغهم توفر الخلفاء على بناء المدارس في بغداد، وأقاموا للعلم مأتمًا تفادياً من ابتذاله وخشية أن تصبح الغاية من الدراسة دنيوية محضة غايتها جر مغنم واجتلاب دنيا عريضة، وأسفوا أن رأوا بعض رجال العلم أخذوا يتناولون رواتب لقاء دروس ينفعون بها الأمة وكانوا وأجدادهم من قبل يلقونها بلا عوض ولا عرض ينالونه.

وكان الله خص القرن الرابع بأن قامت فيه أعظم كليات المسلمين اليوم ألا وهو الأزهر في القاهرة الذي بناه القائد جوهر، كما خص القرن الخامس بأن وفق نظام الملك وزير السلاجقة لتأسيس المدرسة النظامية سنة 459هـ ببغداد، ووفق المستنصر بالله العباسي أيضاً أن أسس مدرسته المستنصرية في أوائل القرن السابع ببغداد. ولما كانت النظامية والمستنصرية عامرتين بضروب العلم غاصّتين بالطلاب والأساتذة لم يكن الأزهر يذكر في جنبهما. ولكن دالت الأيام ودرست معالم هاتين الكليتين العظيمتين وكتب البقاء لهذه المدرسة المصرية. ولذلك أحصر الكلام فيهما الآن فأقول:

أسس نظام الملك مدرسته النظامية وسط الجانب الشرقي من دجلة، وقسمها إلى مقاصير كثيرة خصّ كل فرع من فروع العلوم الدينية والدنيوية ببعضها وجعل فيها غرفاً كثيرة يأوي إليها الطلبة والأساتذة، هذا عدا ما هناك من أبهاء ومنتديات وقاعات وبستان فسيح ومصلى وأماكن للاستراحة، وجميع ما يلزم لدار علم مثلها من سائر مرافق الحياة كالمطبخ والحمام وغيرهما. وكانت فيها خزانة كتب عظيمة كما في غيرها من المدارس الكبرى مسبلة على العالمين والمتعلمين فيها. وبنيت طبقتين وأقيمت في أطرافها أروقة وطاقات وجعلت فيها أنابير ومستودعات فيها كل حاجيات أهلها من طعام ولباس وفراش، وكان المعلمون كالمتعلمين يكفون المؤونة فيها فينال كل واحد من أوقافها الدارة ما يسد به عوزه وربما ما يفيض عن حاجته.

وليس فيما لدي من المواد شيء يصح الاستنباط منه لإصدار حكم صحيح على نظام الدروس والمدرسين والدارسين في تلك المدرسة،

وناهيك بأنه كان لها مفت يفتي أهلها في مصالحها على ما هناك من أساتذة هم فخر الإسلام والمسلمين في أعصارهم. فقد كان الشيخ رضي الدين أبو داود سليمان بن المظفر بن غانم بن عبد الكريم الجيلي الشافعي مفتياً فيها. كما درس فيها جلة مثل أبي اسحق الشيرازي وأبي نصر بن الصباغ وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي وأخيه أبي الفتوح أحمد وأبي الفتح بن برهان وأبي القاسم الدبوسي وأبي عبد الله الطبري وأبي محمد الشيرازي وضياء الدين السهروردي وأبي القاسم القشيري وأبي منصور الوزان وأبي الفتح أسعد المهيني وأبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله شيخ العراق في وقته وأبو سعيد المتولي وكمال الدين النحوي وفخر الإسلام أبو بكر المستظهري وأبو بكر بن الدهان النحوي الضرير والشرف يوسف بن بندار الدمشقي وعشرات غيرهم ممن تخرج بهم مئات من الفقهاء والمحدثين والأصوليين والمتكلمين والمتأدبين وغيرهم.

وشقيقة هذه المدرسة بل خليفتها المدرسة المستنصرية بناها سنة 631 المستنصر بالله في الرصافة على ضفة دجلة الشرقية وانفق في بنائها ما ينفقه الملوك في بناء إذا أرادوا به تخليد ذكرهم وإحياء مفاخرهم. وجعل فيها خزانة كتب حملت من الآفاق حملها مائة وستون حملاً، وفي رواية بعض المؤرخين أنها كانت مائتين وتسعين حملاً عدا ما أضيف إليها بعد. قال الذهبي وأوقف هذه المدرسة عظيمة غلت في بعض السنين سبعين ألف دينار قيل أن قيمة ما وقف عليها يساوي ألف ألف دينار. وقد جعلت على المذاهب الأربعة وأقيم فيها مستشفى وأطباء يدرسون الطب كما يدرس فيها علم الحيوان النبات والفلك والرياضيات على اختلاف ضروبها والآداب على أنواعها والجغرافية والتاريخ وعلوم الحديث والقرآن.

وشرط بانيتها أن يكون عدد الفقهاء فيها مائتين وثمانية وأربعين فقيهاً، يصيب أهل كل مذهب ربع هذا العدد يأخذون رواتب وجرايات كثيرة. هذا ما عدا المحدثين والمقرئين ومشاهراتهم، وعدا كتاب متصل بالمدرسة خص بثلاثين يتيماً يستظهرون فيه الكتاب العزيز ويكفون المؤونة وعدا المدرسة الطبية والمستشفى والصيدلية التي يدرس فيها الدارسون ويستشفى بها المرضى ويأخذون ما يقتضي لهم من المعاجين والأدوية.

وأول من عهد إليه التدريس في تلك الكلية محي الدين أبو عبد الله ابن فضلان الشافعي ورشيد الدين أبو جعفر الفرغاني الحنفي، والنيابة عنهما جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي وأبو الحسن المغربي المالكي، واشتهر من مدرسيها جمال الدين العاقولي. ووصف هذه المدرسة العالم محمود شكري الألوسي في كتابه مساجد بغداد ومدارسها فقال أنه كان فيها زملة للماء البارد وأن الداخل إليها اليوم من بابها الكبير الجنوبي يرى فسحة طولها نحو مائة متر وعرضها نصف ذلك، وفي كل جهة منها إيوان رفيع السمك كأنه أعدّ كل واحد منها لمدرّس من المذاهب الأربعة، وأن الموظفين بها كانوا أقل من المشتغلين فإنهم في كل وقت كانوا دون ألفي طالب على اختلاف طبقاتهم واستعدادهم. وأما الموظفون فهم دون الألف وكانت التفرقة بين الأصناف والطبقات بألوان الطيالس فذوو الطيالس الصفر صنف والبيض صنف والحر صنف وهكذا. وكان في بابها ساعة عجيبة.

هذا ملخص ما كانت عليه النظامية والمستنصرية من الإتيان العجيب ولم يبق للأولى من أثر اليوم غير قاعدة منارتها وهي مطبخ أحد الإسرائيليين، وبقيت الثانية محفوظة من أيدي التخريب إلا قليلاً بيد

أنها حوّلت إلى إدارة جمرك منذ بضع سنين وذهبت تلك الحضارة وما يتبعها جملة، وراحت النظامية ولم نعد نسمع إلا بأخبارها وربما تتبعها المستنصرية تلك المدرسة التي بلغ من غرام بانيها بها كما قال ابن العبري أنه بنى بجانبها بستاناً خاصاً له وقلما يمضي يوم إلا ويركب في السيارة ويأتي البستان يتنزه فيه ويقرب من شباك مفتح في إيوان المدرسة ينظر إلى البستان وعليه ستر فيجلس وراء الستر وينظر إلى المدرسة ويشاهد أحوالها وأحوال الفقهاء ويشرف عليهم ويتفقد أحوالهم. فليت المستنصر يحيا اليوم فيرى ما فعلت الأيام بما شاده وشاده نظام الملك.

من ملاهي الأندلسيين

ذكر الشقندي في رسالته تفضيل الأندلس على بر العدو في آثارها وحضارتها وفيما خصت به كل بلد من المزايا الطبيعية والصناعية مما يشبه فرنسا لهذا العهد أنه سمع ما في اشبيلية من أصناف أدوات الطرب كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والفنار والزلامي والشقرة والنورة، وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه، والبوق وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد قال وبابدة من أصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصناعة فإنهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك وإخراج القرى والمرابط والمتوجه. (كذا).

عميان يؤلفون

تكاد تكون قاعدة لا تتخلف أن من فقد إحدى حواسه تقوى فيه غيرها، فمن فقد بصره مثلاً تقوى ذاكرته، ومن فقد سمعه يشتد إدراكه. ولما قرأت ترجمة هوميروس الشاعر اليوناني وعلمت أنه كان ضريراً، وقرأت ترجمة ملتون الشاعر الإنكليزي وعلمت أنه كان كذلك، وقرأت ترجمة أبي العلاء المعري الشاعر العربي وقلت أنه كان مثلهما، وقرأت ترجمة ابن الحناط وقع في نفسي أن أكتب مقالاً في عميان صنفوا وأجادوا أيام كان العرب يؤلفون ويجيدون.

فمنهم قتادة بن دعامة كان أكمه، وكان يقول لقائده سعيد بن أبي عروبة تجنب بي الحلق التي فيها الخطأ فإنه ما وصل إلى سمعي شيء فأذاه إلى قلبي فنسيه. وكذلك كان بشار بن برد رأس طبقة شعراء المولدين أكمه وغاية في ذكائه وتوقد خاطره. وكان ابن الثمانيني نحوياً ألف فيه وانتفع بالاشتغال عليه جمع كثير توفي سنة 442 هجرية. وكان شمس الدين بن جابر الأندلسي ضريراً وهو صاحب بديعية العميان وله أمداح نبوية كثيرة وتأليف منها شرح ألفية بن مالك وغير ذلك وله ديوان شعر جيد توفي سنة 780. وكان أبو بكر بن هذيل الكفيف عالم أدباء الأندلس أخذ عنه صناعة الأدب جماعة منهم الرمادي الشاعر القرطبي المشهور. وكان أبو عبد الله محمد بن الصنفار القرطبي حافظاً للأدب إماماً في علم

الحساب مع أنه كان أعمى مقعداً مشوه الخلقة ولكنه إذا نطق عرف كل منصف حقه.

وكان العلامة أبو القاسم الشاطبي صاحب حرز الأمانى والعقيلة وغيرهما المقرى الفقيه الحافظ من كبار أئمة الإسلام مكفوف البصر قوى الحفظ، وكان يقول عند دخوله إلى مصر أنه يحفظ وقر بعير من العلوم، وكان عالماً بكتاب الله قراءة وتفسيراً وبحديث رسوله مبرزاً في،ه وكان إذا قرأ عليه صحيحا البخاري ومسلم والموطأ يصحح النسخ من حفظه ويملي النكت على المواضع المحتاج إليها وهو أوحى في النحو واللغة. وكان أبو البقاء العكبري شارح ديوان المتنبي وغيره من الكتب الجيدة مكفوف البصر حاسباً فرضياً نحويّاً ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله في فنونه وكان الغالب عليه علم النحو توفي سنة 616.

وكان ابن سيده المرسى الحافظ إماماً في اللغة والعربية جمع في ذلك جموعاً منها كتاب المحكم في اللغة وكتاب المخصص الذي طبع حديثاً وله غيره من الكتب الممتعة التي لم يؤلف في منها مثلها وكان ضريراً وأبوه ضريراً أيضاً، وكان أبوه قيماً بعلم اللغة وعليه اشتغل ولده في أول أمره توفي ابن سيده سنة 458 وكان يحفظ عشرات من أمهات كتب اللغة. وكان أبو الحسن علي ابن عبد الغنى الفهرى المقرى الشاعر عالماً بالقرآت له عدة تأليف توفي سنة 488. ومن مشايخ عبد اللطيف البغدادى الفيلسوف المشهور الوجيه الواسطى كان تلميذه يحفظه ويحفظ معه ثم يذهب إلى كمال الدين عبد الرحمن الأنبارى فيقرأ درسه.

وكان أبو الحزم الماكسينى الموصلى المقرى النحوى المتوفى سنة 603 جامع فنون الأدب وحجة كلام العرب أخذ الناس عنه وانتشر ذكره

في البلاد وله رواية واسعة. وكان خليفة أبي العلاء المعري في عماله وأدبه وهو ينحو منحاه. وكان أبو عبد الله هشام بن معاوية النحوي الكوفي ضريراً وله عدة تصانيف في النحو ومن جملة من أخذ عنه الخليفة المأمون. وكان أبو العز مظفر ابن إبراهيم العيلاني المصري الأعمى شاعراً مجيداً صنف في العروض وله ديوان توفي سنة 623 وكان أبو القاسم بن الخطيب الأندلسي صاحب الأشعار الكثيرة والتصانيف الممتعة المتوفى سنة 581 مكفوفاً ضريراً.

وكان أبو عيسى ابن الضحاك السلمي الحافظ المشهور أحد الأئمة المصنفين في الحديث ضريراً. وكان أبو العيناء صاحب النوادر والشعر والأدب مكفوفاً كُفَّ بصره وقد بلغ الأربعين. وكان أبو بكر ابن الدهان النحوي الواسطي ضريراً وهو من مدرّسي النظامية. وهكذا لو تقصّيت أسماء الرجال لقرأت العجب من أحوال أولئك العميان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

نوع من نقد الشعر

قلّ في رجال الأدب قديماً وحديثاً من تكتب لهم الإجابة في النظم والنثر وقد عرف مصطفى صادق أفندي الرافعي بين قراء العربية بأنه من أفراد الشعراء البلغاء ولو أنصفوه لوصفوه بالكتابة كما وصفوه بالشعر. والنبذة التالية مقتبسة من مقدمة الجزء الثالث من ديوانه وهو تحت الطبع وفيها نموذج من نثره.

الشعر تصوير عالمٍ من المعاني والألفاظ فالمجيد من جعله مختصراً من صورة العالم كله. ولا بدّ فيه من شعاع من الروح إذا تجردت له النفس امتزجت لطافتها بلطافته. وربما أخذ المرء بلذة التصوير فظنها في مكان نفسه وحسب نفسه في مكانه.

ونحن ناظرون إلى نقد الشعر من هذه الجهة التي يتمثل فيها حياً من الأحياء. تتنازع أنواعه البقاء. فقد أفاض المتقدمون في الأسباب التي يحسن بها ما يحسن من ظاهره ويقبح منه ما يقبح. وجرّدوا الكتب في طبقات الألفاظ ومخارج الأشعار وسقطات الكلام وألطفوا النظر في وجوه المعاني ومواضعها. وأصابوا منها صفة التمكن في مبادئها ومقاطعها. وإنك لتجد فيما وضعوه من علوم البلاغة البحر الزاخر بهذه الأمواج. والفلك الدائر بتلك الأبراج.

يرتقي المبتدئ في الشعر من مطلق النظم الذي هو النمط المصطلح

عليه في إقامة الوزن إلى الفكر فيما يجيء به. فإذا صارت له هذه المنزلة أدته إلى الخيال. فإذا ارتفع شيئاً بعد ذلك فهو في جو الروح الذي يسمونه التصور وهناك حدُّ الطبيعة القائم. وحجاب الغيب القاتم. فيكون في منزلة بين الوحي والإلهام ويمر هناك خاطره على النفوس كما ينتقل على الأرض ظل الغمام.

وتلك هي أطوار الشعر من طفولته التي يعث فيها بكل شيء ولا يفقه شيئاً. إلى شببته التي يتماسك فيها وقاراً ويندفع إلى شدته التي تعصم بها الحكمة وتمتنع. إلى مشيبه الذي هو نور الجمال. والحظ المقسوم له من الكمال.

والشاعر في الطور الأول كالصبي في يده القوس يغرق في نزعها ما يغرق ثم لا يكون إلا أن يسمع لها أرناناً ضعيفاً فلا هو غلب وهمه، ولا رمى سهمه. فإذا اشتد ساعده وانتقل إلى الطور الثاني كان في منزلة بين الخطأ والصواب. فإذا بلغ إلى الثالث أحكم التسديد. واستوى عنده في الإصابة ما كان من قريب وما كان من بعيد. ومتى صار إلى الطور الرابع وهو منتهى كماله حسب توزع الطير في الجو لمخافته، وتفرق الوحش في البر لمهابته. وصارت هي السهم لأنه في أثرها. ولفظته عن القنينة هي القضاء لأنه في خبرها.

وما يكن من عيب في الشاعر فلن تجد فيه كتسلط فكره عليه وعبثه بقوافيه، فتراه ينظم الكلمة أبياتاً لا معرفة بين أولها وآخرها ثم يجيء بعد جفاف الريق وتخلخل اللسان وانقطاع النفس فيمضي فيها اختياره ويأخذ في التوفيق بينها وهي متنافرة. ويعمل على التعريف وهي لا تزال متناكرة. فمثل الكثير من هذا الشعر مثل الكلمة المفردة إذا نطقت بجملتها أدت

إليك معناها على أتم ما يكون فإذا فككت أحرفها ولفظتها حرفاً حرفاً انقلبت إلى قول هراء. ولم ترد على أن تكون أصواتاً ذاهبة في الهواء. وأولئك هم الذين قال في شعرهم ابن ميادة أنه كلفة وتملح.

فإذا لم يكن فكر الشاعر عند إرادته ولم تكن إرادته عند اتجاه عواطفه أخذت عليه منافذ القول فاختل. واضطربت جهات رأيه فأنحل. وصار من نضوب المادة في آخره أمره كمن يكتب بقلم ليس عليه إلا مسحة من ردع المداد فكلما كدّه جمده. وكلما هزّه ركده. فإذا كتب مع ذلك جاء الحرف مفرّق الجهات لثيماً في الحروف فلا هو كتابة ولا هو محو.

ولقد يحار المرء إذا نظر في شعر العرب ورأى الكثير منه لا يتعدى الوزن والتقفية. ولكن أكبر حظ القوم من شعرهم أن ينقلوا الكلام إلى نمط يتفق مع النغم كما ترى في غناء هذه الأيام، فهو لا يزيد عن سائر الكلام إلا النمط والإيقاع بحيث أنك لو سمعته وقد جرد من ألحانه لخرجت منه على حساب ما دخلت فيه لا طرب ولا عجب.

والغناء على أي وجوهه ينقل النفس من تنقيبها بين الألفاظ عما هو حسن وغير حسن إلى تحركها على الألفاظ نفسها. وإنما النظم العربي أوزان موسيقية. فكل من جاء بعد العرب من الشعراء لا ينظر إلا في أعطاف اللفظ وتلاحم الكلمات وانتظام تلك المعاني القديمة فهو من الجاهلية الثانية، وإن كان الأولون قد سموا جاهلية لعبادة الأوثان. فهو لاء لعبادة الأوزان.

ويكاد شعر العرب ينحصر في غرضين الشاهد والمثل فقد كانوا لا يطلبون من الشعر غيرهما كما لا يطلبون من الخبر إلا الأيام والمقامات.

وكان أبدع ما يروج عنهم من أجل ذلك مساق الخبر ومضرب المثل ومقطع الحكمة. والحكيم فيهم يومئذ نبي.

ومن هنا تجد مثار الخلاف بينهم في قولهم هذا أشعر الناس في كذا وذلك أشعر الشعراء وغيرهما أشعر الإنس والجن، وهلم جرا.

وما عدا ذلك ففي شعرهم من الطرف المستنكرة ما يغلظ على الطبع ويثقل على الذوق، فمنهم من يشبه وجه الحسناء ببيضة النعام، ومنهم من يشبه جسمه الناحل بأشلاء اللجام... إلى غير هذا مما تهجنه الحضارة ولهم مع ذلك وجه عذر فيه ومنفسحٌ للوم عنه. وإنما ذكرناه مأخذاً أكثرها صدأ الركافة وغبار القدم... فتراجع الشعر بينهم وتعطلت قرائحهم حتى أصبحوا في اتصالهم بمتن أولئك الشعراء كما شبه أبو هفان شعر آل أبي حفصة الذين كان آخر شعرائهم متوج وكان رجلاً ساقطاً وذلك في قوله: (شعر آل أبي حفصة بمنزلة الماء الحار ابتدأه في نهاية الحرارة ثم تلين حرارته ثم يفر ثم يبرد. وكذا كانت أشعارهم إلا أن ذلك الماء لما انتهى إلى متوج جمده...).

وأعجب شيء رأيت في تاريخ الشعر أنه كان عصرٌ يسمون فيه المولد (بالرقيق)، ثم صار هذا الاسم علماً بالغلبة وأطلق على الغزل السبط والرثاء السائل ثم عدوا منه أنواعاً عرفوها (بالألفاظ الملوكية) وأجروها في بعض التشبيهات والأوصاف وما إليها. كأن الشعر كان مقضياً عليه أن يبقى في الموتى حتى يموت الأحياء. وأن يكون أهله نصباً على جانبي تلك البطحاء التي كان فيها شعراء الجاهلية... وحسبك أن أعداء ابن المعتز لم يزروا على غير نحتة وسبكه ولم يحاولوا إسقاطه إلا من بينهما وهو بالإجماع في السطح من طبقات الشعراء.

ومنتهى الحمق أن يتخذ مولد ذلك النمط الجاهلي فإن السر في بقاء شعر الجاهلية والمخضرمين بعد أهله حاجة الرواة والعلماء إلى الشاهد منه، فلما أسقطوا الاستشهاد بكلام المولدين لما يدخل عليهم من الغلط ولضعف الثقة بلغتهم سقطت هذه الطبقة بعلة طبيعية وهي سنة (بقاء الأنسب).

والعرب إنما ابتدأت الشعر بما كان عندها من جزالة اللفظ وإتقان بنية القريض وأحكام عرض القافية ونحوها مما هو طبيعة فيهم، فكان على من يخلفهم أن يأخذ في زخرف البناء وزينته بعد أن يكون قد تم منه ما لم يتم. وهو الذي فعله أبو تمام والمتنبي ومن في طبقتهما من أهل القوة والكفاية، ثم كان على من يجيء بعد هؤلاء أن يزيدوا من تحف عصورهم ومدنيتها طبقة بعد طبقة حتى يكون ذلك الموضع ديواناً للتاريخ ترتب فيه العصور وتقف على أبوابه الدهور. ولكننا نجد إلى عهدنا طوائف تنقض ذلك البناء وتقيم على أساسه فلا يلبث أن يقع الاثنان معاً.

والشعر أقسام كانت محدودة على ما نوعها أبو تمام في حماسته، ثم جاء من تفنن فيها وذهب كل مذهب كابن أبي الإصبع وغيره. وقرأت أن البديع الأسطرلابي رتب ديوان ابن حجاج على مائة وأربعين باباً وواحد. ثم قفى كل باب وجعله في فن من فنون شعر الرجل.

ولكن الذي قطع بالشعر العربي دونه إنما هو النوع الذي يسميه الإفرنج بالشعر القصصي ومنه الملاحم الكبرى عندهم كالإلياذة وغيرها. والبسيط منه نادر في العربية بل هو في بسطتها كالظل شيء كلاً شيء.

ذلك لأن الشعر العربي روح هذه اللغة وهو من اللطافة بحيث لا يضيء فيه المعنى إلا بشعاع من الخيال. فإذا أردت أن تقيم منه حديثاً سوي التركيب، كامل الترتيب، زوّت عليك القافية وتقطع الشعر فلا تدري من

أين تأخذ ولا من أين تدع. كالنور اللطيف تحاول أن تلقي عليه كثافة الغطاء فإذا هو منبسط فوق ما تلقي، فمهما تأت من ذلك لا تكون قد صنعت شيئاً. ورأس هذا الأمر عندنا على ما يقول شبيب بن شبة حظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت، فلا بد لهذا النوع في لغتنا من وضع جديد يكون وسطاً بين الشر والنظم حتى يحمل الألفاظ والمعاني معاً فيتعلق فيه الشعر بالنفس ويمتد السباق على النفس، كما فعل الأندلسيون في وضع الموشحات لحاجتهم التي بعثتهم عليها والعصر يومئذ لهو وترف، والأدب مجد وشرف.

وأساس هذا الشعر سلامة الذوق فهي الحاسة التي تتجه بها النفس إلى المعاني وتنقلب عنها. بل هي العين المركبة في الروح تجمع جمال الطبيعة في نظرة واحدة فتنقله إلى الإحساس كما تمد العين الباصرة بمرئياتها وهي المخيلة. ومن الشعراء من يكون سقيم الذوق فهو في نظره إلى الشعر مع فساد ذوقه كاللص في نظره إلى الحسناء إذا وسوس حليها في مسمعه، يغفل منها عما ينتبه إليه الناس وينتبه لما يغفلون عنه.

ومن هؤلاء طائفة الشعراء المصنعين وهم الذين لا حظّ لهم إلا في (الصنعة الشعرية) وفنونها لا تعد فيجيئون بالقصيدة كلها رقع ثم يتنافسون في هذا التصدير، ولا يدرون أن الثوب الساذج من قطعة واحدة خير من هذه الرقع كلها وإن كانت من أنفاس الخز والديباج. وانظر ما يكون موقع هذا الثقل من الأدباء فقد أراد ديك الجن الشاعر مرة أن يهول على دعبل ويقرع سمعه فأنشده بيتاً مضطرباً... فقال له دعبل اسكت فوالله ما ظننتك تتم البيت إلا وقد غشي عليك أو تشكيت دماغك. ولكأني بك في جهنم تخاطب الزبانية أو تخبطك الشيطان من المس.

والعلة الطبيعية في بؤس الشعراء هي ذلك الإحساس المتصل بالنفس
فكلما غمزته المؤثرات تحول منه بمقدار الضغط بخار روحاني ينتشر
حولها وذلك هو الشعر. وقد ترى النفس فيه ضوءاً كأنه تبسم القلب الحزين
الذي تشابه جلال الطبيعة بجلاله. لأنها مخلوقة في رأي النفس على مثاله.
وقد يكون للشاعر متسع في غلوه وكبريائه على هذه الطبيعة إلا في
العواطف التي هي روابط القلوب بالقلوب، وموضع الصلة بين ما في
الوجود وما وراء الغيوب. فقد يضرب في كلامه بسيف لم يطبع، ويرمي
بقذيفة لم تصنع، ويقطع من خيوط الحياة ما لم يقطع. ولكنه فيما دون
ذلك لا يقدر أن يذكر الحب من قلب لم يحب، ويثبت للشيء الذي لم يجبر
عليه حكم الوجوب شيئاً مما يجب. فإذا هو فعل أطفأت الطبيعة من روائه،
وقامت عواطف الناس شاهدة على كذبه في ادعائه. وقد ذكروا أن كسرى
سمع الأعشى يتغنى ذات يوم بقوله:

أرقتُ وما هذا السهادُ المؤرُقُ وما بي من سقمٍ وما بي معشوقُ
فقال ما يقول هذا العربي؟ قالوا يتغنى بالعربية فأمر أن يفسروا قوله
فقالوا زعم أنه سهر من غير مرضٍ ولا عشق. فقال هذا إذا لص؟!

وللشعر أساليب تتجها القرائح ولكن جماع القول فيها أنها تمثيل للطبيعة
فكان الشاعر ينقل مناظر الأرض إلى الروح العالية التي ترسل إلى الجسم
شعاع الحياة فتزيد تلك المناظر في قوة الشعاع الإلهي فلا يتصل بالجسم
حتى تفيض هذه القوة على القلب فتزهه الهزة التي نعرف منها الطرب.

فأي امرئ اجتمعت له قوة التمثيل وسلامة الذوق وهما يكونان عند
سعة العقل وسمو الطبع، فذلك الذي هو في معناه بين الملك والإنسان
وهو الشاعر.

ملكة العربية

اللغات من أحكم الصلات بين البشر ومن أقوى عوامل النهوض والارتقاء وعلى نسبة انتشار لغة الأمة يكون نفوذها في سياستها وآدابها وصناعاتها وكل أمة زهدت في لغتها أو تخلّت عنها ولم تجر في ترقيتها مع الزمن تُغلب على أمرها ويفنى كيانها. يقول أحد العارفين إذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح حبسها ما احتفظت بلغتها. وكان نابليون يقول علّموا الفرنسية ففي تعليمها خدمة الوطن. وباللغة قامت الوحدة الأميركية والإيطالية واليونانية والألمانية والصربية والرومانية والبلغارية فنجت هذه الأمم بلغاتها من استعباد عداتها.

جاء القرآن على ما فيه من قواعد التشريع والاعتبار بالأمم الخالية حاوياً قاعدة من أهم قواعد العمران وأعني بها الدعوة إلى توحيد اللغة فقضى على كل مسلم على اختلاف الأجناس أن يتعبد بالقرآن ويتلوه بلغته الأصلية فانتشرت بذلك العربية في القاصية والدانية وأخذ ابن الصين يتفاهم مع ابن مراکش بالعربية على بعد الديار.

ولقد قامت الحكومات الإسلامية على اختلاف لغاتها بهذه اللغة، وجعلتها لغة دواوينها وكتبت بها رسائلها وخطبها ومراسيمها. فجعلت حكومات الفرس والديلم والترك والبربر والكرد والجركس لغة العرب لغتها ولم تتخلف عن هذه القاعدة في العصور المتأخرة إلا بعض

الحكومات جعلت كل منها لغة أسرتها المالكة لغة رسمية لبلادها فاستغرب هذا منها حتى خاصة أهلها.

كان يرجى لمصر أن تكون كعبة العربية في العهد الأخير يحج إليها الطلاب من أقطار العالم لو جاء بعد محمد علي رأس الأسرة الخديوية من أنجز العمل الذي كان وضع أساسه، وتوفّر على تعهد النبتة التي غرسها وأعوّاه من الإفرنج في بث ملكة العربية ونقل العلوم الضرورية إليها من لغات الأعاجم. ولو دامت تلك النهضة سائرة سيرها الأول لكان لمصر حضارة عربية صرفة لم تمازجها عجمة الإفرنج.

نعم إن تعلّم لغة قوم تحبّبهم إلى نفس المتعلم في الغالب فمن تعلم الفرنسية كان محبباً للفرنسيين ومن أحكم الإنكليزية شغف بالإنكليز ومن شدا الألمانية أعزّ الألمان، ولكم رأينا أوربياً تعلّم العربية فأصبح يكرم العرب ويغار على مصلحتهم وآدابهم وبلادهم ولا غيره ابنها العربي البحت.

أقول هذا وأنا على يقين من أن لغة القرآن قد خدمها علماء المشرقيات من الغربيين أكثر من خدمة خاصتها ورؤساء حكوماتها لها، فطبعوا لها من نفائس الكتب وأمّاتها وأقاموا لها محافل ودروساً وسافروا في تعلمها وبذلوا في سبيلها البذول منذ وجهوا وجهتهم قبل المدنية الإسلامية، حتى أن أول الكتب التي طبعت بعد اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر للميلاد كانت كتباً عربية من مؤلفات ابن سينا والرازي وابن رشد وغيرهم من فلاسفة الإسلام. ودامت تلك الروح تسري في جسم الحضارة الغربية حتى صار اليوم من علمائهم المختصين بدراسة لغتنا من يحسنون التكلم والتأليف فيها إحسان خاصتنا لها: رأيت منهم الأميركي والإنكليزي

والألماني والفرنسي والنمساوي والأسوجي والهولندي والروسي وكلهم محل الدهشة والاستغراب وشهدت من حميتهم وغيرتهم على لغة القرآن ما لا أجد بعضه عند كثيرين من خاصتنا.

وليس في أهل الإسلام اليوم مثل أهل فارس عناية بالعربية وآدابها لأنهم لم ينسوا فيما أحسب أن تعلّمها من الدين وأن من ناهضها ووضع السدود في سبيل سيرها فكأنما ناهض الدين وعاق دعوته عن الانبعاث، ولذلك كان تعلمها عندهم على حصة موفورة. وقد يجيد متعلمهم فهمها وكتابتها إجادة العربي القحّ. ولا عجب فللفرس في تاريخ النهضة الإسلامية القديمة أثر مشكور على غابر الدهور.

ومع أن التعليم في مصر غداً إنكليزياً والأساس الذي قامت عليه نهضة العربية في أوائل القرن الماضي تُرك وبُني على غيره، لا تزال العربية بالنظر لوحدة اللغة في القطر ولما وقر في النفوس من أن الأزهر أعظم مدارس الإسلام في الأرض وأن فيه جهابذة علماء ولما ينفخه فيها نوابع البلاد المهاجرين إليها - مع كل هذا لا تزال مصر موطن العربية من هذا الشرق العربي وفيها تصدر أهم المطبوعات والصحف العربية. لا يبعد أن يكون لها شأن غير شأنها الحاضر في المستقبل القريب، وإن قلّ تخرج النوابع من أبنائها وإحكامهم ملكة اللسان العربي الإحكام الذي يسهل عليهم التأليف والإنشاء والخطابة وقرض الشعر والتميز بين صحيح الكلام وفاسده.

وكانت قويت ملكة العربية في سورية بما قام في بيروت من المدارس الكبرى منذ أربعين سنة، ولما استُبدلت تلك المدارس اللغات الإفرنجية باللغة العربية وجعلوها لغة التدريس والخطاب عاد حب لغات الأعاجم فاستحكم من النفوس، خصوصاً بعد أن أيقن كثيرون من أهل الفئة

التي هي أجراً السوريين على الهجرة للتجار والكسب أن العربية لا يأتي تعلمها بمال يعود على صاحبه بالرفاهية فلا تنفع في الماديات نفع اللغات الأوروبية لهم في ذلك. اللهم إلا تلك الفئة الفاضلة من كتاب السوريين في أميركا ممن أنشأوا الصحف وأخذوا يسعون جهدهم في بث ملكة اللسان العربي بين المهاجرين في مهاجرهم كما يعنى مهاجرة الألمان في الاحتفاظ بلغتهم في وسط بلاد الولايات المتحدة. قلت أن ملكة العربية ضعفت في بلاد الشام ويكفي أنك تجتاز البلد والبلدين ولا تجد من يحسن الكتابة والقراءة بلا غلط، بل أنك لتستقرئ حال المائة ألف نسمة في حواضر مدن الشام ولا تجد فيها خمسة يكتبون على وجه الصحة. وهكذا الحال في العراق ونجد والحجاز واليمن. وللشعر في هذه الأقطار الأخيرة أثر من الآثار القديمة أكثر من النثر، ولا عبرة بالأفراد فهم لا يتجاوزون عدد الأنامل في هاتيك الديار التي كان يعد رجالها بالمئات في العصور السالفة. والأفراد ليسوا معياراً في هذا الباب.

ومن أهل الأقطار التي يعنى أهلها بالعربية على عجمتهم مسلمو قافقاسيا والهند، فإن تدريس العربية في مدارسهم وكتاتيبهم شائع كل الشيوع وهم معتقدون أن في تعلمها تعلم الدين. من أجل هذا رأينا كثيرين من أهل النهضة فيهم في العهد الأخير طافوا بلاد الشرق العربي للبحث عن طريقة سهلة تمكن ناشئتهم من إحكام العربية في أقرب مدة ومن أيسر السبل، ولما يئس بعضهم من وجود بعض أفراد توفرت فيهم هذه الشروط من أبناء جامعتهم ليغنوا الغناء المطلوب عمدوا إلى اختيار أساتذة هم في الأصل أعاجم على نحو ما فعلت كلية عليكرة في الهند، وأقامت إنكليزياً يعلم العربية على طريقة اللغات الأوروبية تسهلاً على المتعلمين من أبنائها.

وحال القطر التونسي فيما أرى من إحكام ملكة العربية حال سورية
حذو القذة بالقذة ولعل الناشئة المتمكنة من آداب القوم يكثر عددها
فيعملون وجرائدهم ومجلاتهم وجمعياتهم على النظر في ترقيتها بينهم،
أما الجزائر ومراكش فما أخالهما يعرفان من العربية إلا بقدر ما يعرف
منها أهل مالطة أو أكثر بقليل. دع أهالي شنقيط فإنهم أعظم أهل الأرض
عناية بالعربية وحفظاً لدواوين شعرائها وخطبائها فقد تجد الطفلة تحفظ
من أسفار الأدب ما لا عهد للخاصي به عندنا، ولكن نظرهم في الأدب
والشعر نظر مجرد لا محل للعمل فيه. وهناك بلاد إسلامية كزنجبار ورأس
الرجاء وجاوه وبعض مدن الصين وأفغانستان وبخاري فإنها ضعيفة في
عربيتها ضعف الترك فيها.

وبعد فإن من رأى توفر الغربيين على دراسة العربية يكاد يوقن بأن هذه
اللغة لا تحيا إلا على أيدي هؤلاء الإفرنج فقد جعلوا لها المقام الأول بين
اللغات الشرقية ولم يحسبوها من اللغات الميتة وأحيوا من مآثر الأسلاف
ما يبيض الوجوه وينعي على الأخلاف وناءهم وتقاعسهم.

وأقدر الأمم الغربية على تلقف العربية فيما أحسب الشعب الجرمانى
فإن فيه رجالاً يلفظون ويكتبون على مثال كتاب العرب أنفسهم ويليهم في
باب العناية بها على ما أرى الإنكليز والأمريكان والنمساويون والفرنسيون
والهولنديون والروسيون والطيلىان والأسبان. وكان الفرنسيين فيما مضى
في مقدمة الأمم بالاشتغال بالعربية ولا سيما في عصر العالمين دي ساسي
وكاترمير فأصبحوا اليوم في وسطها.

ولا يبعد إذا دام الفرنجة على تعهد هذا اللسان بطبع كتبه ودراسة أصوله
وفروعه أن يهاجر أبناؤنا إلى بلادهم بعد ليتلقوه عنهم إذا دما على خمولنا

وتخلفنا. ولولا بعض كتب قديمة تحيا بالطبع اليوم لقلنا بالنظر لما نراه من ندرة المطبوعات العربية العلمية أنه سيجيء يوم نأخذ فيه عن الإفرنج حتى أصول ديننا. ومن الأسف أن جماع ما ينشر من تأليفنا منذ سنين لا يتعدى الروايات والهزليات، أما كتب الجد كالفلسفة والتاريخ والرياضة والطبيعة والاقتصاد والاجتماع فلا محل لها من الإعراب في جملة أعمالنا.

ولعل العربية في هذه الديار لا تمنى بما منيت به في سائر الأقطار فيكثر في أبنائها المتأدبون بآدابها وإن قل عدد النوابع أي يعم تعلمها أكثر مما يخص. وعندي أن الرجاء معقود على الأكثر بالمجلات والجرائد إذا صُرفت العناية بإنشائها واختيار موضوعاتها فهي المدرسة الكبرى للأمة وتأثيراتها متصلة باتصال صدورها وهي تبعث على المطالعة أكثر من الكتب. ومادام القرآن يتلى بلسان العرب فسيبقى أثر له في البلاد الإسلامية كافة وتضعف ملكته الحقيقية بضعف العمل به من دراسة آدابه.

الترجمة والتعريب

لا أصعب من تقييد الإنسان بأقوال غيره وأفعاله خصوصاً إذا كانت تخالف ما لقنه وألفه. وهذا مما يصح إطلاقه في الترجمة والنقل كما يصح في غيره. وذلك جاء في المثل الطلياني المترجم خائن لأنه لا يخلو في الجملة من الحياد عن الأصل وترك معان ربما كانت المقصودة بالذات من كاتبها الأول. ولقد انقسمت طرق الترجمة في الإسلام إلى قسمين فارتأى فريق أن التعريب وهو نقل المعاني المرادة بقلب عربي بحسب ما يقضي به ذوق الكاتب ويساعد عليه اللسان ولهجته خيرٌ من الترجمة أي النقل بالحرف والتزام ما قاله الكاتب الأصلي ولو لم ينطبق كل الانطباق مع ذوق اللغة المنقول إليها. والطريقة الأولى أطف وأعذب والثانية أصدق وأمتن.

فالأولى طريقة يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما والطريقة الثانية في التعريب طريقة حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما. وأقل ما في الأولى من الجهد أن بعض الألفاظ ليس لها ما يرادفها في لغة ثانية، وأقل ما في الثانية من الراحة أنها لا تقيّد الكاتب بالألفاظ. قال الصفدي وهذا الطريق أي الثاني أجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي فإن الذي عربه منها لم يحتج إلى إصلاح.

ولقد رأيت معرّبات كثيرة ومترجمات نقل بعضها قديماً عن السريانية والرومية والفارسية والهندية والنبطية واللاتينية وحديثاً عن الإنكليزية والفرنسية والألمانية والتركية والروسية فاستنتجت منها أن بني لغتنا يستفيدون من التعريب بالمعنى والتحصيل أكثر من النقل بالحرف. وانتفع الناس بما لخصه الحكيم ابن رشد من كتب فلاسفة اليونان أكثر من انتفاعهم من الأصل وقد اعتمد الإفرنج نقله ولم يحاولوا تطبيق ما لخصه على الأصل حتى بعد أن ظفروا بالكتب المنقول عنها بحسب ما انتهى إليه عملنا. ولا يعفى معاني هذين الطريقتين في النقل من أن يكون ضليعاً من العلم الذي يكتب فيه آخذاً بقياد اللغة المنقول عنها وإليها.

وكلما تباينت آداب أمة عن أخرى وانفسح ما بينهما مجال الاختلاف في العادات والاجتماع صعب نقل شيء من لغة إلى لغة ثانية. والفرق بين لغة شرقية ولغة غربية أكثر من الفرق بين لغتين شرقيتين أو لغتين غربيين لما في تحكك المتجاورين من المجانسة في الأفكار والمناحي. وعندى أنه لا غنية للناقل من لغة أوربية عن التلخيص مهما حاول أن يطبق مفاصل اللغة العربية على لغته فإن للغربية اصطلاحات قلما توافق ذوق لغتنا ولهم معان لا يفهمها من عرف أولئك الأقوام وتاريخهم ومجتمعهم. وهذا غير ميسور لكل الناس.

وبعد فقد ضعف القائمون بأمر الكتابة والتعريب ودامت الأمة العربية زهاء خمسة قرون وقد انقطعت منها الترجمة والنقل بانقطاع العلوم، وضعف أهل العربية وارتقت اللغات الأخرى ونمت ألفاظها العلمية ومعانيها المدنية، حتى أدّت الحال بالكاتب العربي اليوم إذا أراد وصف منضدة عمله وردة مجلسه وما يقع نظره عليه كل حين من أنواع الآنية

والماعون وكليات الأمور وجزئياتها أن لا يجد في حافظته من الألفاظ ما يسد هذه الثلمة، اللهم إلا كليات ألفاظ لا تتعدى الأغراض اليومية الشائعة من المؤاكلة والمعاشرة حتى بين أبعد الناس عن مذاهب الحضارة وما ذلك لقصر اللغة عن بلوغ هذه الغاية. ففيها لو تصفحنا ما انتهى إلينا من كتب القوم مادة تكفيننا ولو بعض الكفاية دون أن نلجأ في التعريب إلى اللفظ العامي أو المبتذل أو الأعجمي، أما الألفاظ العلمية فالأحرى بنا أن ننحتها أو ننقلها على أصلها إذا لم تخالف الأوضاع العربية أو نجد لها ما ينطبق عليها من اللغة ولو ببعض تكلف كما فعل المترجمون في القديم.

فسر ابن جلجل الأندلسي أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس العين زربي وكان ترجم ببغداد في أيام جعفر المتوكل ترجمه اصطفن بن باسيل من اليوناني إلى العربي وتصفح ذلك حنين بن اسحق فصصح الترجمة وأجازها فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية في وقته له اسماً في اللسان العربي فسرّه بالعربية، وما لم يعلم له اسماً تركه على اسمه اليوناني اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسرّه باللسان العربي إذ التسمية لا تكون بالتواطؤ من أهل كل بلد على أعيان الأدوية بما رأوا أن يسموا ذلك إما باشتقاق وإما بغير ذلك من تواطئهم على التسمية. وبقي الكتاب على الترجمة البغدادية بالأندلس إلى أيام الناصر عبد الرحمن بن محمد فكاتبه أرمانوس ملك القسطنطينية وهاداه بهدايا منها كتاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقي الذي هو اليوناني وبعث معه كتاب هروسيس (؟) هيرودتس) صاحب القصص وهو تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة.

ثم بعث ملك الروم براهب اسمه نقولا فوصل إلى قرطبة سنة 340 وكان بها جماعة من الأطباء يبحثون عن تصحيح أسماء عقاير الكتاب وتعيين أشخاصه فأنشؤوا يبحثون عنها بحيث زال الشك فيها عن القلوب وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذي لا بال به ولا خطر له وذلك يكون في مثل عشرة أدوية.

هكذا عربوا الألفاظ الطبية بالأندلس وهكذا كان تعريب غيرها من المصطلحات اليونانية وغيرها في بغداد، وهكذا يجري علماء الإنكليز في ضمّ ما يحدث من الألفاظ العلمية إلى لغتهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك ووكّل الفرنسيين وضع الكلمات اللازمة إلى مجمعهم العلمي. ولو أن نفراً من أهل الأخصاء في اللغة العربية عنوا كل على حدته بإيجاد بعض ألفاظ لتناولتها أقلام الكتاب ولسّرت على الألسن وانتشرت في الكتب والأوراق ويبقى منها الأنسب بطبيعة الزمن وينسى ما لا غناء فيه. فقد وضع بعض أرباب الجرائد والمجلات ألفاظاً لبعض المستحدثات العصرية فكادت تكون كالألفاظ المألوفة لنا ولو وفقنا إلى تكثير سوادها إذاً سهلت الترجمة والتعريب على من تمحضوا لهما ووقفوا نفوسهم على إغناء لغتنا بكنوز عظيمة مباحة لمن يحسن تناولها وفيها قيام جامعتنا وكفاء نهضتنا.

النقل والنقلة

ليس العلم وقفاً على أمة معينة ولا على أهل دين خاص ولغة خاصة، بل العلم مشاع بين سكان الأرض يقتبسه الراغبون فيه ممن عرفوا غناؤه لهم وفائدته لقيام جامعتهم وإعلاء كلمتهم، كما أن الحضارة تنتقل من يد إلى يد وتأخذها الأمة المتحضرة عن جارتها أو ترثها عن أختها الذاهبة. ولذلك لم تستغن أمة في النقل عن غيرها ما يعوزها من علوم البشر على اختلاف أنواعها نقلاً ينتفع به أهل جيلها وقبيلها ويؤثر الأثر المطلوب في العقول. فقد نقل الفرس علومهم عن جيرانهم الهنود ونقل الرومان عن اليونان ونقل اليونان عن المصريين ونقل العرب عن اليونان والفرس ونقل الإفرنج عن العرب واليونان والرومان وغيرهم من أمم الخليقة. وقد مست الحاجة في هذا النقل إلى ترجمة أهم كتب أولئك الأقوام في الصناعات والديانات وعلوم الحكمة والطب والرياضيات والشرائع والتاريخ والأدب.

هذا الكثير من العلوم التي نراها لعهدنا وكتبها التي لا تحصى في كل ضرب من ضروب المعرفة النافعة لسعادة الخلق هي ولا جرم من عمل القرون المتطاولة هي زبدة تجارب صفوة بني آدم وأغض ثمرات عقولهم منذ ألوف من السنين تكونت فيها أمم كثيرة ثم بادت وقامت مدنيات تذكر ثم سقطت منها ما نقل إلينا ومنها ما لم ينقل. فكما أن اللغات والشعوب ترجع إلى أصول قليلة تفرّع عنها هذا العدد الدثر من الأجيال المعروفة

في قارات الكرة الأرضية الخمس وكذلك كانت العلوم قليلة وما برحت تنمو بنمو الأيام والأزمان. وحال النقل من حيث القلة والكثرة حال العلوم والأمم حذو القذة بالقذة.

ولما تم للعرب النصر وتبسطوا في مناحي الملك والسلطان وانتشرت لغتهم في معظم الأصقاع التي افتتحوها انصرفت عنايتهم إلى تنظيم بلادهم بنظام الأمم التي سلفتهم إذ أيقنوا أن ليس كالعلم كفيلاً ببقاء أمة وضامناً لها سعادتها والعلم لا يتم إلا بالنقل عن أمة أخرى. وقد أمر الرسول ﷺ أحد أصحابه بتعلّم لغة اليهود كما تعلّم بعض الصحابة لغة الحبشة لما هاجروا إليها في بدء الدعوة الإسلامية. دع عنك من دخلوا في الإسلام من الفرس ومن تعلّم من العرب لغة فارس. وهذا كان مبدأ النقل والتعريب وإن لم يؤثر عن هذا الدور كتاب ولا رسالة لأن الأمة كانت أمية ولم تكن دوّنت بعد أهم علم عندها الا وهو علم الدين فأحر بها أن لا تنقل عن غيرها علوماً هي بالنسبة إليها ثانوية.

وأول كتاب نقل إلى العربية كتاب أهرن بن أعين وجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه ووضع في مصلاه واستخار الله في إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تمّ له في ذلك أربعون صباحاً أخرج به إلى الناس وبثه في أيديهم. وكان المنصور أول من عني من العباسيين بنقل شيء من علوم الأوائل ثم مشى على أثره جعفر البرمكي وجماعة من صنائع الدولة إلا أن غرام المأمون بذلك كان من وراء الغاية.

قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي أن العرب في صدر الإسلام لم تكن بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم

لحاجة الناس طراً إليها، فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك إليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميبتها وكان أول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور وكان مع براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم.

قال ولما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هرون الرشيد تمم ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجداد لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن. ثم حرّض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده.

نعم بلغت عناية المأمون بالعلم والنقل التي لا فوقها وقد ادعى بعضهم أن عدد المترجمين والناقلين والمصححين الذين حشرهم إليه من أطراف مملكته كانوا ثلاثمائة رجل من مختلف الأديان والمذاهب. أمرهم أن لا يجعلوا للتعصب عليهم سبيلاً وإن ينبذوا الجدالات الدينية ظهرياً لتكون اجتماعاتهم علمية صرفة. وقيل أنهم كانوا يجتمعون مرة في الأسبوع فتعرض المترجمات على أناس من أهل العلم والبصر بالعربية فيقرّون سليمها وينبذون سقيمها. وعلى عهده كثر الاعتماد على النحت والاشتقاق والوضع لترجمة المصطلحات الطبية وغيرها من العلوم المادية وكان المأمون ينفق على المترجمين أكثر مما يصرفه غيره على ملاذه في بضع عشرات من السنين.

وبعد فإن في الناس من لا يُعدّون من المؤلفين غير من يأتون بشيء من عندهم ولو غثاً تافهاً أو ينقلون كلاماً لغيرهم وينسقونه ويضيفون إليه ما يشاءون على أن من عنوا بإجادة النقل والترجمة من لغات الأعاجم إلى لغتهم هم في الأكثر ليسوا في فضلهم وأفضالهم دون أولئك المؤلفين بل أن من ينقل علماً لا عهد لأُمَّته به أفضل من أكثر أرباب التواليف والمصنفات.

ولذلك تقاضانا عرفان الجميل لبيض أيادي أولئك التراجمة في الإسلام أن نذكر أسماء من عثرنا عليهم منهم وندل على الجهابذة المهرة فيهم. ولا بد من الإشارة إلى أن معظم التراجمة قديماً وحديثاً كانوا من غير أهل الإسلام، لحكمة ربما كان فيها معنى من معاني ما قبل من أن العلم لو نزل من السماء لتلقاه قوم من أهل فارس. ولعل تقسيم الأعمال قضى على المسلمين أن ينقطع علماءهم إلى تدوين العلوم الدينية واللسانية وتركوا غيرها من الأشغال العلمية لمن يحسنها أو يخلق وقد لقنهما من صغره من أهل ذمتهم أو غير أرباب نحلتهم.

نقل اصطفان القديم الكيمياء لخالد بن يزيد الأموي في القرن الأول، كما تعلمها هذا من مريانوس الراهب الرومي فكان هذا أول كتاب نُقل. ونقل ماسر جويه السرياني كتاب أهرن بن أعين بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز. وكان البطريق في أيام المنصور وأمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وابنه أبو زكريا يحيى ابن البطريق وكان في جملة الحسن بن سهل. وكان حنين بن اسحق أول من نقل شيئاً من علوم الروم إلى السرياني ثم إلى العربي، وكان هذا الرجل يحسن السريانية والعربية والرومية والفارسية بل يعرف غريبها ومستعملها وهو الذي اختار له المتوكل لما ائتمنه على الترجمة كتاباً نحارير، وكانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا كاصطفي بن

بسيل وموسى بن خالد الترجمان وقيضا الرهاوي وسيرجس الراسي. وما أنا بمبالغ لو قلت أن حينئذ نقل ربع ما تُرجم إلى العربية من علوم الأوائل أيام التمدن الإسلامي وكان رבעه الجيد الذي لا غبار عليه، وذلك لأنه كان زيادة على إحكامه لتلك اللغات الأربع عالماً بالعلوم التي ينقلها من طبها وفلسفتها. ولحنين ولدان داود واسحق «صنف لهما كتباً طبية في المبادئ والتعليم ونقل لهما كتباً كثيرة من كتب جالينوس واشتهر اسحق وتميز في صناعة الطب وله تصانيف كثيرة إلا أن جلّ عنايته كانت مصروفة إلى نقل الكتب الحكمية» وكان اسحق يحسن اللغات التي يحسنها أبوه وقلد هارون الرشيد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ووضعه أميناً على الترجمة. وكان جرجس ابن جبرائيل أول من ابتدأ في نقل الكتب الطبية إلى العربية عندما استدعاه المنصور. وحيش الأعمش بن أخت حنين بن اسحق وتلميذه ناقل مجود يلحق بحنين واسحق. وعيسى بن يحيى بن إبراهيم كان أيضاً تلميذاً لحنين بن اسحق وكان فاضلاً أثنى عليه حنين ورضي نقله وقلده فيه. وقسطا بن لوقا البعلبكي كان ناقلًا خبيراً باللغات فاضلاً في العلوم الحكمية وغيرها. وما نقله أيوب المعروف بالأبرش في آخر عمره يضاهي نقل حنين. وسلام الأبرش من النقلة القدماء في أيام البرامكة ويوجد بنقله السماع الطبيعي. وأبو النصر بداري بن أيوب وابن رابطة وتيوفلي وشملي وعيسى بن نوح وقويري وداريع الراهب وهياشيون وصليبا وثابت بن قمع وأيوب وسمعان فسرازيج بطليموس لمحمد بن برمك. وأبو عمرو يوحنا بن يوسف الكاتب. وترجم آل نوبخت إلى الفارسية وترجموا منها ولابن نوبخت الفضل بن نوبخت نقل حنين في النجوم ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد.

ومن النقلة من الفارسي إلى العربي علي بن زياد التميمي ويكنى أبا الحسن وسهل بن هارون والبلاذري أحمد بن يحيى وجبله بن سالم كاتب هشام واسحق بن يزيد ومحمد بن بهرام بن ميطار الأصفهاني والفتح بن علي البنداري وعبد الله بن علي وأبو حاتم البلخي ومحمد بن الجهم وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وزادوية ابن شاهويه الأصفهاني وبهرام بن مرداشان وعمر بن الفرخان. وابن الفرخان هذا هو أحد حذاق الترجمة في الإسلام وهم كما قال أبو معشر في كتاب المذكرات حنين بن اسحق ويعقوب بن اسحق الكندي وثابت بن قرة الحراني وعمر بن الفرخان الطبري.

ونقل من السريانية الحديثي الكاتب والحسن بن البهلول الأواني الطبرهاني وأبو البشر متى والتفليسي ومرلاحي نقل بين يدي علي بن إبراهيم الدهكي، وداريشوع كان يفسر لاسحق بن سليمان بن علي الهاشمي وكذلك إبراهيم بن بكس وعلي بن إبراهيم بن بكس وأيوب بن قاسم الرقي ومن نقله كتاب الياساغوجي. ونقل من الهندية أو السنسكريتية إلى العربية منكة الهندي وأبو الريحان البيروني وابن دهن ومن الكلدانية أو النبطية ابن وحشية ونقل سعيد الفيومي عن العبرانية. وكان أبو علي عيسى بن زرعة اليعقوبي المنطقي أحد النقلة المجودين وله تصانيف مذكورة. ونقل من السرياني إلى العربي ونقل عيسى الرقي من أطباء سيف الدولة ابن حمدان من السريانية أيضاً، ونقل منها أيضاً ماسرجيس الطبيب وعيسى بن ماسرجيس كان يلحق بأبيه وكذلك شهدي الكرخي وابن شهدي وكانا متوسطين وفاق الابن أباه في آخره عمره ومن المعروفين بالترجمة ابن جلجل وأبو عبد الله الصقلي.

ونقل الحجاج بن مطر للمأمون كتباً منها كتاب إقليدس والمجسطي
ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني، ونقل للمأمون أيضاً عدة
كتب حبيب بن بهريز مطران الموصل. وممن نقل عن السريانية كثيراً أبو
الخير الحسن بن سوار المعروف وابن الخمار وأبو الفرج الملطبي ويحيى
بن عدي اليعقوبي. ونقل عن الفارسية عبد الله بن علي الفارسي وعبد بن
المقفع نقل عن البهلوية أي الفارسية واليونانية كثيراً من كتب الحكمة.
وممن أجاد النقل من السريانية وغيرها الحسن بن ثابت بن قرة الصابئي
ومن تلاميذه عيسى بن أسيد وكان يقدمه ويفضله. ونقل من اليونانية نظيف
القس الرومي. مكتبة سُر مَن قرأ

وكان عبد المسيح بن عبد الله الناعمي الحمصي المعروف بابن
ناعمة متوسط النقل وهو إلى الجودة أميل وفي درجته زروبان مانحوه
(ماجوه) الناعمي الحمصي. وكان هلال بن أبي هلال الحمصي صحيح
النقل ولفظه مبتذل وكذلك كان فثيون الترجمان يلحن ولا علم له بالعربية.
وكان أبو نصر بن ناري بن أيوب قليل النقل لا يُعتدّ بما نقل ويفوقه باسيل
المطران وكان إلى الجودة أميل. ومن المتوسطين في نقلهم أسطاث
وحIRON بن رابطة وإبراهيم بن الصلت وثابت الناقل ويوسف الناقل تلميذ
عيسى بن صهربخت وأيوب الرهاوي وأبو يوسف الكاتب ويحيى بن
البطريق وتادرس السنقل وأبو سعيد عثمان الدمشقي ومصور بن باناس
وعبد يشوع بن بهريز وإبراهيم بن بكس. هؤلاء التراجمة الذين عرفناهم
في الإسلام وأكثرهم كانوا يُرزقون من نقلهم ويعملون مدفوعين بتنشيط
الملوك والأمراء والحريصين على خدمة العلم إلا يعقوب بن اسحق
الكندي فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها فإنه كان ينقل لنفسه ولم

يرتزق بما كتب. وليس فضل من نشطوا التراجمة دون فضل من ذكرنا من المترجمين كما أن الأفراد الذين نشطوا النقل ورزقوا أناساً عليه يُذكرون بالرحمة كما يذكر عمر بن عبد العزيز وخالد الأموي والمنصور والرشد والمأمون والمتوكل.

فقد كان جعفر البرمكي وجماعة من أهل بيته يُعونون بأمر النقل والتعريب. وكان منكى الهندي في جملة اسحق بن سليمان بن علي الهاشمي وكان ينقل من اللغة الهندية إلى اللغة الفارسية وكان شيرشوع بن قطرب من أهل جندي سابور يبرُّ النقلة ويهاديهم ويتقرب إلى تحصيل الكتب منهم بما يمكنه من المال. ومنهم محمد بن موسى المنجم وهو أحد بني موسى بن شاكر الحساب المشهورين والرياضيين المذكورين. وكان محمد هذا أبرّ الناس بحنين بن اسحق نقل له هذا كثيراً من الكتب الطبية. قال أبو سليمان المنطقي السجستاني أن بني شاكر وهم محمد وأحمد والحسن كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرّة وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار. ومنهم علي بن يحيى المعروف بابن المنجم أحد كتاب المأمون وكان نديماً له وعنده فضل ومال إلى الطب فنقلوا له منه كتباً كثيرة. ومنهم تادرس الأسقف كان أسقفاً في الكرخ وكان حريصاً على طلب الكتب متقرباً إلى قلوب نقلتها فحصل منها شيئاً كثيراً وصنف له قوم من الأطباء كتباً لها قدر وجعلوها باسمه. ومنهم محمد بن موسى بن عبد الملك نُقلت له كتب طبية وكان من جملة العلماء الفضلاء يلخص الكتب ويعتبر جيّ الكلام فيها من رديئه. ومنهم عيسى بن يونس الكاتب الحاسب من جملة الفضلاء بالعراق وكان كثير العناية بتحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية.

ومنهم علي المعروف بالفيوم اشتهر باسم المدينة التي كان عاملها وكان النقلة يحصلون من جانبه ويمتازون من فضله. ومنهم أحمد بن محمد المعروف بابن المدبر الكاتب وكان يصل إلى النقلة من ماله وأفضاله شيء كثير. ومنهم إبراهيم بن محمد ابن موسى الكاتب وكان حريصاً على نقل كتب اليونان ومشتماً على أهل العلم والفضل وعلى النقلة خاصة. ومنهم عبد الله بن اسحق وكان أيضاً حريصاً على نقل الكتب وتحصيلها. ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار ونقل باسمه كتب عدة وكان أيضاً ممن نقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسم جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وبختيشوع بن جبرائيل وداود بن سرايون وسلمويه بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري وحبيش بن الحسن.

هذا ما وقفتُ عليه من حال المتوفرين على النقل والمرغبين فيه قديماً وقد فقدت ملكته من الأمة مدة تربو على خمسة قرون، حتى إذا كان أواسط القرن الثالث عشر للهجرة عادت إلى الترجمة بعض حياتها السالفة بفضل النابغين من مدارس الإفرنج في البلاد العربية أو بالمتخرجين على أساتذة بعض المدارس الوطنية ممن تشبعوا بآداب الأمم الراقية وقلدوهم في ممارسة الأعمال العلمية، فنقلوا وما برحوا ينقلون أثابهم الله بعض ما تمسّ إليه الحاجة من علوم الأمم الغربية على قلة نصيرهم وفقدان البواعث والدواعي مدفوعين إلى ذلك بعاملين ألا وهما إحياء لغة عذبة وخدمة العلم الصحيح. ولا أمة إذا فقدت لغتها ولا مدينة إذا لم يأخذ الخلف عن السلف والمتأخر عن المتقدم والجاهل عن العالم.

الشيخ إبراهيم اليازجي

فُجعت العربية في الشهر الماضي بكبير من أكابر أهلها المنشئين وأستاذ من جهابذة المعربين والمؤلفين الطيب الذكر والأثر الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء. توفاه الله في هذه العاصمة عن ستين عاماً قضاها بين المحابر والدفاتر وقد وقف حياته على الإفادة والاستفادة، فانتفع به خلق كثير في جميع البلاد التي تُقرأ فيها العربية ولا سيما في مصر والشام.

ولقد عزَّ نعيه على كل من عرف فضله وأخلاقه وما خصَّ به من دماثة الخلق ولين الجانب وعزة النفس وحسن العهد ولا عجب فقد فقدت المطبوعات بفقده عضواً عاملاً ورجلاً نافعاً. ورثاه جمهور كبير من العلماء والفضلاء وأبنته الصحف والمجلات على اختلاف الملل والنحل واللغات لأن المصيبة بفقده كانت عامة جازاه الله أفضل ما يجازي المحسنين على إحسانهم.

وهاك ما كتبناه في المؤيد الأغر يوم وفاة هذا الفقيه العزيز من تأبينه وترجمة حياته:

كان فقيه اليوم عالماً مدققاً ولغوياً ضليعاً ومرسلاً نحرياً ومفتناً فكهاً ونقاداً غيوراً وكاتباً فريداً وشاعراً مجيداً قضى حياة المتعلم والمعلم

والعالم على أكمل وجوها وبرز خاصة في علوم العربية على أقرانه فعَدَّ من آحاد زمانه.

نشأ من بيت كان ربه يتغنى ليله ونهاره بالشعر والأدب فشبَّ وشاب فيما نشأ عليه أنشئ له. وناهيك بمن يرضع اللغة من صغره ويعاني الأدب في جميع أدواره لا يصل إلى سمعه غيره ولا تقع عينه على ما سواه والجميع مستحسن له ومصفق ومؤمن على أقواله ومصدق.

فانصرف في مدينة بيروت كوالده الشيخ ناصيف إلى التعليم والتصنيف فتخرَّج به جهابذة أدباء وأكثرهم اليوم هم الحركة الدائمة في مصر والشام وألف على ذاك العهد كتباً وصحح أخرى منها شرح ديوان المتنبي. وصحَّح التوراة كما نقَّح كتب والده المدرسية في الصرف والنحو والبيان والعروض، ووقعت له محاورات مع صاحب الجوائب وغيره كطرفة الطرف وكتب مجلة الطبيب سنة كاملة بمساعدة صديقيه العالمين الدكتورين زلزل وسعادة.

هبط مصر في شتاء سنة 1897 لإنشاء مجلة علمية وطبع معجم عربي كان غني بتأليفه منذ سنين، ولكن خانتته الأقدار فرأى ما كان يسمعه عن نهضة مصر العلمية مبالغاً فيه وأن سوق العلم والأدب كاسدة لا إقبال عليها، فأصدر أولاً مجلة «البيان» سنة بمعاونة الدكتور زلزل ثم أصدر وحده مجلة الضياء فدامت مطَّردة الصدور إلى صيف هذه السنة وقد شحنتها من عرائس أفكاره وتحقيقاته اللغوية وأماله الأدبية ما لو كُتِبَ بغير هذا اللسان لأعجب به أهله وكبروا مثل مقالات «اللغة والعصر» و«لغة الجرائد» و«أغلاط العرب» و«أغلاط المولدين» وطبع في العهد الأخير كتاب نجعة الرائد في اللغة ولم يوفق إلى طبع معجمه لأسباب أهمها قلة النصور والظهير.

كان الفقيد شديد الغيرة على لسان العرب بحيث لا يدانيه في ذلك غير خاصة الخاصة. مبالغاً في التدقيق والتمحيص حتى أنه كان يألم ممن يرتكب غلطاً لغوياً إنشائياً ألمه ممن يسيء مباشرة إليه أو يصادره في أعز الأشياء عليه، ولذلك قلما كان يغفل كتاباً أو ديواناً من النقد اللغوي والأدبي وكثيراً ما تأخذه الحمية العربية فينحني على المنتقد عليه، وربما وصلت المسألة من العموميات إلى الخصوصيات كما جرى في نقده معجم أقرب الموارد وكتاب الدرة اليتيمة وغيرهما. ولا بد لمن يتمحض للانتقاد أن يلاقي ما لقي الشيخ اليازجي فيصاب ويصيب خصوصاً والناس في زماننا لم يألفوا الانتقاد وأكثر المنتقدين يعدّونه ثلماً لشرفهم وحطة لأقذارهم، والناقد كيفما كانت الحال لا تصفو له القلوب إلا على الندرة ولا سيما إذا عامل منتقديه بأنه هو المسيطر على كل ما بيد من خطاءٍ وخطل والكفيل بحل كل إشكال ومعضل، فكان انصراف قلوب بعض العالمين والمتأدبين عنه لعدم اضطراره بسياسة التعليم وهو داء العلماء من القديم حتى عقد ابن خلدون فصلاً في أن العلماء أبعد الناس في السياسة.

وعلى الجملة فقد كان فقيد اللغة والأدب اليوم آية في سعة اطلاعه على شوارد اللغة وأوابدها محيطاً بأقوال أئمة البيان العربي عارفاً بصحيح الكلام من فاسده بصيراً ببعض العلوم كالفلك والرياضيات وله إلمام تام بالفرنسية والإنكليزية (والعبرانية والسريانية) ويد طولى في الخط والرسم والنقش والحفر بحيث لو أتيح له أن يعمل بما يهوى وينصرف إلى ما يغلب على طبعه لاختار أن يكون رساماً من أهل الفنون الجميلة. ولولا أنه آثر خدمة العربية كما قال لي عن نفسه مخافة أن يغلق بيته على حين في وسعه فتحه ويتوانى عن خدمة لغة عرف أبوه وأخوته من قبله بالتوفر على

خدمتها والغرام بآدابها لجاء منه مصور ماهر ربما خلف وراءه مالا وكان
أهنأ عيشاً وأهدأ بالاً.

خدم الشيخ إبراهيم لغتنا بوضع بعض ألفاظ لمسميات إفرنجية وعرب
بعض المصطلحات وله شعر جيد وبعضه سائر على الألسن وإن لم ينسب
إليه تقية مثل قصيدته المشهورة في القطرين التي يقول في مطلعها:

دع مجلس الغيد الأوانس... وهوى لواحظها النواعس

إلى أن يقول سامحه الله:

فالشر كل الشر ما... بين العمام والقلائس

والخير كل الخير في... هدم الجوامع والكنائس

وإن صَحَّ ما قيل لي أمس من أن الشيخ اليازجي مات بسرطان في الكبد
فيكون ما كان قاله هو في نعي فقيد الشرق السيد جمال الدين الأفغاني
«قضى... بعلة السرطان وقد تشبث منه بين الفك والنحر ودب في مجرى
الفصاحة منه ولا عجب أن يدب السرطان في البحر» قد نعى به نفسه وهو
جدير أن يطلق عليه فإنه بلا مرأى رافع لواء الأدب وشيخ العاملين على
إحياء لغة العرب فلا عجب إذا اهتزَّ عالم الأدب اليوم أسفاً على فقدته.
عوضنا الله عنه خيراً وألهم المصابين بفقده جميل الصبر والسلوان.

المترجّـمات وحكم المترجم فيها

يتوقف النقل من لغة عربية شرقية على أمور منها إحاطة المترجم بالموضوع إحاطة تامة، ومنها تمكّنه من اللغتين أو من اللغة التي يترجم إليهم أكثر من اللغة التي ينقل عنها. وقد جرت عادة النقلة والمترجمين في هذا اللسان قديماً وحديثاً أن ينقلوا بالمعاني كما ينقلون بالألفاظ. والنقل بالمعنى أعذب وأسلس لأن المترجم ينشئ جملة على مناحيه ويؤلف كلامه بحسب تسلسل أفكاره، والترجمة باللفظ أي نقل كل كلمة بما يرادفها في اللغة المنقول إليها هي من أشق الأعمال وقلّما يجيد فيها إلا أفراد. ولذلك رأينا أكثر الناقلين يختارون طريقة النقل بالمعنى ولكن المرء يضطر في بعض الموضوعات إلى النقل بالحرف الواحد، خصوصاً إذا كان المنقول عنه عالماً كبيراً أو صاحب رأي ونحلة يحب الناقل أن يطلع من ينقل إليهم على فكر المنقول عنه على علاّته بدون زيادة أو نقصان منه، مخافة أن يصدق عليه المثل الطلياني القائل (المترجم خائن)، وأيّ خيانة أكبر من نقل أقوال صاحب نزعة أو مذهب محرفة مهزعة، وأن ينسب إليه ما لم يقله أو ينقص من أقواله ما له بذكره مأرب. وربما لا تتشدد مرامي كلامه إلا بتلك الجمل أو المعاني التي لا يحفل المترجم بنقلها ولا يتعنى تصويرها.

من أجل هذا ترى أهل الأمانة من المعانين لصناعة القلم قد يحتفظون

بما يكتب غيرهم وينقلونه لمجرد الإطلاع، ولو أدى بهم إلى الخروج عن سنن البلاغة وخالف ما في اعتقادهم فكل ما يأتي به المترجم والحالة هذه لا يورده وهو مسؤول عن مكانه من الصحة. ولو قصد الناقل ولا سيما في الصحف الدورية العلمية أو اليومية السياسية أن يعلق على كل فكر ينقله عن غيره أو يحذف كل جملة لا توافق ما وقع في نفسه لضاع الغرض المقصود والوقت الثمين. وإذا فعل فيكون كمن حاول أن يحيل كل فكر إلى فكره وأن يبعث بأكثر المقاصد ينسخها على طريقته ويقضي على القارئ إذ ذاك أن يسمع نغمة واحدة تملأ أذنه مهما كانت جيدة التوقع والتلحين. ومن ثمّ ترجمت إلى العربية في زمن الخلفاء الذين كان لهم ولوع بالعلوم مؤلفات كثيرة كان الغرض من نقلها مجرد معرفة آراء أربابها ككتب النحل والملل والسحر والطلاسم وما شاكلها ولا يلتفت إلى ما يراه كثير من الأغمار من أن كل ناقل مأخوذ بتبعية ما ينقل فإن هذا مما لا يقول به أحد من أهل العلم. ولقد رأينا كثيراً من فحول العلماء ألقوا في الملل والنحل وذكروا رأي كل فريق مشفوعاً بأدلته ولم يتصدوا لنقد ذلك مع مباينتهم له اعتماداً على أن لردّ تلك الشبه كتباً خاصة يرجع إليها من يعنى بذلك.

فضل العربية

كتب مستشار معارف مصر فصلاً سلخ فيه اللغة العربية من مزاياها ونشر في آخر تقرير عميد الاحتلال عن السنة الماضية قال فيه: إن تعليم العلوم بالإنكليزية في المدارس الأميرية بمصر لا مناص منه الآن لعدم وجود الكتب اللازمة والأساتذة الأكفاء، ولأن اللغة العربية فقيرة قي تركيب الجمل العلمية وبالنظر لجمودها والتباس تراكيبها لا تستطيع أن تكون لسان حال العلم والتدريس، وأنه ليس فيها شيء من روح الأدبيات الحديثة، وأن أحسن الترجمات لا تتوصل إلى نقل فكر المؤلف إلا مشوهاً إذا أرادت نظارة المعارف أن تعتمد على ما يترجم من أصناف العلوم إلى العربية. وقد وقع كلامه موقعاً سيئاً في نفوس العارفين بخصائص العربية، ولما كان أكثر ما كتبه مما دخل بسياسة هذا القطر رأينا أن ننقل للقراء زبدة ما ساجلناه به، ثم نردف ذلك بفصل في اللغة لأحد علماء المئة الخامسة.

فقد قلنا أن لغة في معاجمها المطبوعة ثمانون ألف مادة وكل مادة يشتق منها عشر ألفاظ هي بلا شك من اللغات الواسعة، وقد وسعت العلوم في العصر الذي لم تكن تعتبر فيه لغة علم أي في عهد المأمون العباسي وبعده، فنُقلت إليها علوم الفرس واليونان والرومان والهند في وقت كانت لغة بدوية، فكيف لا يتسع صدرها لهذه العلوم الآن وهي لغة علم منذ ألف سنة؟ هذا مع أن بعض العلوم من اختراع العرب كالجبر مثلاً، فإنهم

وضعوا قواعده ودوّنوا كتبه ونقله الأوروبيون عن العرب، فاللغة التي اخترع بها ودوّن بها ودُرّس بها لا تضيق عنه اليوم وهي هي وهو هو. ولا تزال العلوم الرياضية هي إياها منذ أول نشأتها وإن زادت بعض نظريات أو تمرينات فالكتب المؤلفة كافلة لتدريسها، أما العلوم الطبيعية فإن ما يدرّس في المدارس لا يتجاوز ما وضع له من الكتب بالعربية في القرن الماضي وتسهل زيادة ما زاد منها وتعريب ما يصدر منها الحين بعد الآخر في بلاد الغرب. واستشهدنا له بقول أحد رجال الفرنسيين الذي نصح للمصريين أن يحتفظوا بلغتهم ويتعلموا إحدى اللغات الأجنبية معها، كما فعل المجر والتشيك والبولونيون ولا غنية للإنسان الآن عن تعلم عدة لغات أجنبية، هذا فضلاً عن لغة واحدة كالإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية.

أما الفصل في فضل اللغة العربية فها هو بنصه: اللغة عبارة عما يتواضع القوم بينهم به من الكلام أو يكون توفيقاً. يقال في لغة العرب أن السيف القاطع حسام أي تواضعوا على أن سموه هذا الاسم وتجمع لغة على لغات ولُغين ولُغون، وقد قيل في اشتقاقها أنها مشتقة من قولهم لغيت بالشيء إذا أولعت به وأغريت به، وقيل بل هي مشتقة من اللغو وهو النطق، ومنه قولهم سمعت لواغي الناس أي أصواتهم ولغوت أي تكلمت وأصلها على هذا لغوة على مثال فُعلة (إلى أن يقول في فضيلة اللغة العربية ومزيتها): فأما ما نحن بصده من ذكر اللغة العربية فلا خفاء بميزتها على جميع اللغات وفضلها: أما السعة فالأمر فيها واضح. ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الأسماء للمسمى الواحد، على أن اللغة الرومية بالضد فإن الاسم الواحد وجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً، وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء الأسد في

لغة العرب فكانت أوراقاً عدة. وهي مع هذه السعة والكثرة أخصّ اللغات في إيصال المعاني في النقل إليها، يبين ذلك أنه ليس كلام ينقل إلى اللغة العرب الا ويجيء الثاني أخصر من الأول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها، وهذه بلا شك فضيلة مشهورة وميزة كبيرة لأن الغرض في الكلام ووضع اللغات بيان المعاني وكشفها، وإذا كانت لغة تفصح عن المقصود مع الاختصار والاقتصار فهي أولى بالاستعمال وأفضل مما يحتاج فيه إلى الإسهاب والأطالة. وقد خبرني أبو داود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبحت، وإذا نقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوة وحسناً. وهذا الذي ذكره صحيح يخبر به أهل كل لغة عن لغتهم مع العربية. وقد حكى أن بعض ملوك الروم وأظنه تيفور سأل عن شعر المتنبي فأنشد له:

كَأَنَّ الْعَيْسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِي مُنَاخَاتٍ فَلَمَّا ثَرْنَ سَالَا
وُفِّسَ لَهُ بِالرُّومِ فَلَمْ يَعْجِبْهُ، وَقَالَ كَلَاماً مَعْنَاهُ مَا أَكْذَبَ هَذَا الرَّجُلَ، كَيْفَ
يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جَمَلَ عَلَى عَيْنِ إِنْسَانٍ. وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ الْعِلَّةَ فِيمَا ذَكَرْتَهُ غَيْرَ
النَّقْلِ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمِنْهَا وَتَبَايَنَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ لَغْتَنَا فِيهَا مِنَ الاسْتِعَارَاتِ
وَالْأَلْفَافِ الْحَسَنَةِ الْمَوْضُوعَةِ مَا لَيْسَ مِثْلُهُ فِي غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، فَإِذَا نُقِلَتْ
لَمْ يَجِدِ النَّاqِلُ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى نَقْلِ تِلْكَ الْأَلْفَافِ الْمُسْتَعَارَةِ بَعِينِهَا وَهِيَ عَلَى
هَيْئَتِهَا لَتَعْذَرَ مِثْلَهَا فِي اللُّغَةِ الَّتِي يَنْقَلُ إِلَيْهَا، وَالْمَعَانِي لَا تَتَغَيَّرُ فَنَقْلُهَا مُمْكِنٌ
مِنْ تَبْدِيلِ كُلِّ مَا يَنْقَلُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ فَتَغْيِيرُ حَسَنِهِ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ وَمَا يَنْقَلُ إِلَيْهَا
يُمْكِنُ الزِّيَادَةُ عَلَى طِلَاوَتِهِ لِأَنَّنَا نَاقِلُهُ يَجِدُ مَا يَعْبَرُ بِهِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَفْضَلَ
مِمَّا يَرِيدُ وَأَبْلَغَ مِمَّا يَحَاوِلُ. وَهَذَا وَجْهٌ يُمْكِنُ ذِكْرُ مِثْلِهِ وَيَجِبُ أَنْ يُتَأَمَّلَ
وَيُنْظَرَ فِيهِ لِأَنِّي لَا أَعْرِفُ لُغَةً سِوَى الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ ظَنّاً وَحَدْساً. وَقَدْ

تُصَرَّف في هذه اللغة ما لم أظنه تُصَرَّف في غيرها من اللغات فلم توجد إلا طيعة عذبة في كل ما استعملت فيه نظماً ونثراً، وهي إلى الآن لا تقف على غاية في ذلك ولا تصل إلى نهاية كما قال أبو تمام في هذا المعنى * إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب * وقد بينت فضلها وما فيها من الاختصار في العبارة عن المعاني وذكرت وجه التفصيل بالاختصار مما لا شبهة فيه. فأما السعة فالأمر فيها أيضاً واضح لأن الناظم والناثر إذا حذر عليه موضع إيراد لفظة وكانت اللغة التي ينسج منها ذات ألفاظ كثيرة تقع موقع تلك اللفظة في المعنى أخذ ما يليق بالموضع من غير عنت ولا مشقة. وهذا غير ممكن لولا السعة في كثرة الأسماء للمسمى الواحد وتلك فائدة حاصلة بلا خلاف، على أنه ربما عرض في وضع الأسماء المشتركة فائدة في بعض المواضع مثل ان يحتاج الناطق إلى كلام يؤثر أن يكتفي فيه ولا يصرح فيقول لفظة ويوهم بها معنى وقد قصد غيره. هذا وإن قل الداعي إليه إلا في اليسير من المواضع فلم تجعل اللغة العربية خالية منه بل فيها أسماء مشتركة كقولهم عين وما أشبهها. وها هنا لها فضيلة أخرى وهي أن الواضع لها ان كانت مواضعه تجنب في الأكثر كل ما يثقل على الناطق تكلفة والتلفظ به كالجمع بين الحروف المتقاربة في المخارج وما أشبه ذلك واعتمد مثل هذا في الحركات أيضاً فلم يأت إلا بالسهل الممكن دون الوعر المتعب. ومتى تأملت الألفاظ المهملة لم تجد العلة في إهمالها إلا هذا المعنى وليس غيرها من اللغات كذلك كلغة الأرمن الزنج وغيرهم.

ومما يدل على فضل اللغة العربية وتقدمها على جميع اللغات أن أربابها وأصحابها وهم العرب الذين لا أمة من الأمم تنازعهم فضائلهم ولا تباريهم في مناقبهم ومحاسنهم، وإن كانوا تواضعوا على هذه اللغة

فلم تكن تتج أذهانهم الصقيلة وخواطرم العجيبة إلا شيئاً خليقاً بالشرف وأمرأ جديراً بالتقدم وإن كان توفيقاً من الله تعالى ومنة بها عليهم. وقال ابن حزم: لا ننكر اصطلاح الناس على إحداث لغات شتى بعد أن كانت لغة واحدة وقفوا عليها، بها علموا الأشياء وكيفيتها وحدودها ولا ندري أي لغة هي التي وقف آدم عليه السلام عليها أولاً، إلا أننا نقطع على أنها أتم اللغات كلها وأبينها عبارة وأقلها أشكالا وأشدّها اختصاراً وأكثرها وقوع أسماء مختلفة على المسميات كلها المختلفة من كل ما في العالم من جوهر أو عرض لقول الله عزّ وجلّ وعلم آدم الأسماء كلّها. فهذا التأكيد يرفع الأشكال ويقطع الشغب فيما قلناه وقد قال قوم هي السريانية وقال قوم هي العبرانية وقال قوم هي العربية والله أعلم، إلا أن الذي وفّقنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة وليست لغة حَمِير لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتهما، ونحن نجد مَنْ سمع لغة أهل فحوص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد أن يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة. وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة الأخرى يتبدل لغتها تبدلاً لا يخفى على من تأمّله، ونحن نجد العامة قد بدّلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق، فتجدهم يقولون في العنب العنب وفي السوط أسطوط وفي ثلاثة دنانير ثلثدا، وإذا تعرّب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة، وإذا تعرّب الجليقي أبدل من العين والحاء هاءً فيقول مهمد إذا أراد أن يقول محمد ومثل هذا كثير، فمن تدبر العربية

والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبدل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل، وإذ تيقنا ذلك فالسريانية أصل للعربية وللعبرانية معاً، والمستفيض أن أول من تكلم بهذه العربية اسماعيل عليه السلام فهي لغة ولده، والعبرانية لغة اسحق ولغة ولده، والسريانية بلا شك هي لغة ابراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم بنقل الاستفاضة الموجب لصحة العلم والسريانية أصل لهما، وقد قال قوم أن اليونانية أبسط اللغات ولعل هذا إنما هو الآن فإن اللغة يسقط أكثرها وتبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم. وإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم واستغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان سبباً لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم ضرورة ولدولة السريانيين مذ ذهبت وبادت آلاف من الأعوام في أقل منها ينسى جميع اللغة فكيف تفلّت أكثرها والله أعلم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قصيدة مجهولة للسموأل

نشرت بعض المجلات والجرائد العربية منذ بضعة أشهر قصيدة نسبها الناشر الأول وهو الأستاذ مرجليوث الإنكليزي إلى سموأل الشهير، ثم وجدت منها نسخة ثانية في الموصل أصح رواية من الأولى. ثم وجدت منها نسخة ثالثة أصح من السابقتين في بغداد. وذلك بينما أنا أبحث في كتبي على أحد شعراء بغداد في القرن المنصرم ورد ذكره في مخطوط نفيس عندي، فعثرت على قصيدة سموأل ولما أنعمت النظر فيها وجدتها قليلة الضرائر الشعرية والأغلاط النحوية وألفيتها تختلف الرواية عن النسختين المذكورتين، فجئت أتحف بها قراء المقتبس واصفاً لهم المخطوط مع بعض الانتقاد لهذه المنظومة.

وردت القصيدة في الصفحة 274 من مخطوطنا وقد ترجمت بهذا العنوان. «هذه القصيدة للسموأل من بني قريظة لا للسموأل من بني غسان» وإليك الآن نصها مع الضبط المشكول بكل تدقيق وأمانة:

أَلَا أَيُّهَا الضَّيْفُ الَّذِي عَابَ سَادَتِي	أَلَا اِسْمَعْ جَوَابِي لَسْتُ عَنْكَ بِغَافِلٍ
أَلَا اِسْمَعْ لِفَخْرٍ يَتْرُكُ الْقَلْبَ مَوْلَهَا	وَيُنْشِبُ نَاراً فِي الضُّلُوعِ الدَّوَاحِلِ
فَأَحْصِي مَزَايَا سَادَةِ بِشَوَاهِدِ	قَدْ اخْتَارَهُمْ رَحْمَانُهُمْ لِلدَّلَائِلِ
قَدْ اخْتَارَهُمْ عُقْمًا عَوَاقِرَ لِلوَرَى	وَمِنْ ثَمَّ وَلَا هُمْ سَنَامَ الْقَبَائِلِ
مَنْ النَّارِ وَالْقُرْبَانِ وَالْمَحْنِ الَّتِي	لَهَا اسْتَسَلَمُوا حُبَّ الْعُلَى الْمُتَكَامِلِ

فَهَذَا خَلِيلٌ صَيَّرَ النَّارَ حَوْلَهُ
وَهَذَا ذَبِيحٌ قَدْ قَدَّاهُ بِكَبْشِهِ
وَهَذَا رَئِيسٌ مُجْتَبَى ثُمَّ صَفَوَهُ
وَمَنْ نَسْلُهُ السَّامِيُّ أَبُو الْفَضْلِ يَوْسُفُ الْ
وَصَارَ بِمِصْرَ بَعْدَ فِرْعَوْنَ أَمْرُهُ
وَمَنْ بَعْدَ أَحْقَابَ نَسُوا مَا أَتَى لَهُمْ
أَلَسْنَا بَنِي مِصْرَ الْمُنْكَلَةِ الَّتِي
أَلَسْنَا بَنِي الْبَحْرِ الْمُغْرَقِ وَالَّذِي
وَأَخْرَجَهُ الْبَارِي إِلَى الشَّعْبِ كَيْ يَرَى
وَكَيْمَا يَفُوزُوا بِالْغَنِيمَةِ أَهْلُهَا
أَلَسْنَا بَنِي الْقُدْسِ الَّذِي نُصَبَّتْ لَهُمْ
مِنَ الشَّمْسِ وَالْأَمْطَارِ كَانَتْ صَيَانَةٌ
أَلَسْنَا بَنِي السَّلْوَى مَعَ الْمَنِّ وَالَّذِي
عَلَى عَدَدِ الْأَسْبَاطِ تَجْرِي عُيُونُهَا
وَقَدْ مَكَّثُوا فِي الْبَرِّ عُمَرَاءَ مُجَدِّدًا
فَلَمْ يَيْلَ ثَوْبٌ مِنْ لِبَاسٍ عَلَيْهِمْ
وَأَرْسَلَ نُورًا كَالْعَمُودِ أَمَامَهُمْ
أَلَسْنَا بَنِي الطُّورِ الْمُقَدَّسِ وَالَّذِي
وَمِنْ هَيْبَةِ الرَّحْمَانِ ذَلِكَ تَذَلُّلاً
وَنَاجَى عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَكَلِيمُهُ
وَفِي آخِرِ الْأَيَّامِ جَاءَ مَسِيحُنَا

رِيَّاحِينَ جَنَاتِ الْعُصُونِ الذَّوَابِلِ
بَرَاهُ بَدِيهًا لَا نِتَاجَ الشَّيَاطِلِ
وَسَمَّاهُ إِسْرَائِيلَ بَكَرَ الْأَوَائِلِ
لَمَذِي أَشْبَعَ الْأَسْبَاطَ قَمَحَ السَّنَابِلِ
بِتَبْعِيرِ أَحْلَامٍ لِحَلِّ الْمَشَاكِلِ
مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّصْرِ الْعَظِيمِ الْفَوَاضِلِ
لَنَا ضُرِبَتْ مِصْرٌ بِعَشْرِ مَنَاقِلِ
لَنَا غُرَّقَ الْفِرْعَوْنُ يَوْمَ التَّحَاوُلِ
أَعَاجِيْبُهُ مَعَ جُودِهِ الْمُتَوَاصِلِ
مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ فَوْقَ الْحَمَائِلِ
غَمَامٌ تَقِيهِمْ فِي جَمِيعِ الْمَرَاكِ
تَجِيرُ نَوَادِيهِمْ نُزُولَ الْغَوَائِلِ
لَهُمْ فَجَّرَ الصَّوَّانَ عَذَبَ الْمَنَاهِلِ
فَرَاتًا زُلَالًا طَعْمُهُ غَيْرُ حَائِلِ
يُغَذِّيهِمُ الْعَالِي بِخَيْرِ الْمَآكِلِ
وَلَمْ يُحَوِّجُوا لِلنَّعْلِ كُلِّ الْمَنَازِلِ
يُنِيرُ الدُّجَى كَالصُّبْحِ غَيْرَ مُزَايِلِ
تَدَخَّدَخَ لِلْجَبَّارِ يَوْمَ الزَّلَازِلِ
شَرَّفَهُ الْبَارِي عَلَى كُلِّ طَائِلِ
فَقَدَّسَنَا لِلرَّبِّ يَوْمَ التَّبَاهُلِ
فَأَهْدَى بَنِي الدُّنْيَا سَلَامَ التَّكَاوُلِ

فَمَنْ قَابَلَ بَيْنَ هَذِهِ الرَّاوِيَةِ الرَّاويَتَيْنِ الْأَوَّلِينَ اللَّتَيْنِ يَحْكُمُ أَنْ أَصْبَحَ مِنْ

تينك. وأن هذه نقلت عن أصل أصدق رواية من النسختين اللتين أخذت
عنهما الروايتان الإفرنجية والموصلية. يظهر ذلك من مقابلة بعض الألفاظ
مثلاً قد ورد في القصيدتين الأوليين هذا البيت:

فَهَذَا خَلِيلٌ صَيَّرَ النَّاسَ حَوْلَهُ رِيَّاحِينَ جَنَّاتِ الْغُصُونِ الذَّوَابِلِ
فهذا لا معنى له وهو محرف والأصح ما في نسختنا أي صَبَّرَ النار حوله
وورد أيضاً في النسختين: بتعبير تدبير لحل المشاكل والتدبير لا يعبر وإنما
تعبّر الرؤى والأحلام ومنه ما أنشده المبرد في الكامل لبعض الأعراب:
رَأَيْتُ رُؤْيَاءً عَبَّرْتُهَا وَكُنْتُ لِأَحْلَامٍ عَبَّارًا
وعليه فإن روايتنا أصح أيضاً في هذا البيت وقول النسختين:

ومن الشمس والأمطار كانت صيانة تجيز عسا كرههم لهوف الغوائل
فهذا مكسور البيت فضلاً عن اضطراب معناه في قوله «لهوف الغوائل»
والأصح ما جاء في روايتنا «تجيز (بالراء المهملة) نواديهم نزول الغوائل»
لأن الغوائل تنزل بالمرء وبهذا المبنى والمعنى ورد أغلب كلام العرب كما
هو مشهور وجاء في النسختين:

وأرسل نوراً كالعمود أمامهم ينير الرجا كالصبح غير مزائل
فهذا البيت لا يخلو من المعنى. لكن من لا يرى أن هذا البيت مصحّف
الرواية وأن الصحيح «ينير الدجى» بالدال المهملة لا بالراء كما يتضح
لأدنى تأمل.

وأما البيت الأول على رواية النسختين فلا يخلو من معنى بقوله: «ألا
أيها الصنف» لكن نوع التصحيف فيه باد لكل ذي عينين والأصح «ألا أيها
الضيف» أما ناظم هذه القصيدة فلا نظن قط أنها للسموأل بن عادياء فأين
هذا الشعر من قوله:

تَعَيَّرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ... الخ
 ففي هذا النظم من محكم المبنى ومثانة المعنى ما لا يرى له أثر في
 القصيدة، ولعل سبب وهم الناس في نسبتها إلى السموأل بن عاديء توافق
 في اسم ناظم آخر عرف باسم السموأل لأن هذا الاسم يوافق شموئيل
 وشموئيل أو شيمل ورد لألوف من اليهود ففي نسبتها إلى واحد من بني
 قريظة إمكان لأن هؤلاء محقوا بعد الإسلام بقليل إمّا لأنهم دانوا بالإسلام
 أو لأنهم هجروا وطنهم ولحقوا بإخوانهم خارج بلاد العرب فلم يصل
 إلينا من شعرهم إلا النزر القليل. وعلى كل فليس هذا من نظمهم أو نظم
 بعضهم لأن «تعبير النصرانية الحديث» ظاهر من خلال النظم يشف عن
 حداثة وضعه لأن ورود كي وكيفا في الشعر الجاهلي قليل نادر وهاتان
 اللفظتان قد وردتا تبعاً في هذين البيتين:

وأخرجه المبدي إلى الشعب كي يرى أعاجيبه مع جوده المتواصل
 وكيفا يفوزوا بالغنيمة أهلها من الذهب الإبريز فوق الحمائل
 ثم انظر إلى قوله:

ألا اسمع لفخر يترك القلب مولهاً وينشب ناراً في الضلوع الدواخل
 فهل من ضلوع تكون خوارج حتى تنشب النار في الدواخل منها؟ فلا
 غرو أن في هذا التعبير لغواً وتكلفاً ولا يأتيهما واحد من أهل الجاهلية. ولو
 أردنا أن نقبل الروايتين الأوليين فلا يمكننا إلا أن نضرب بهذا النظم عرض
 الحائط إذ فيهما من الأغلاط الفظيعة ما لا يرتكبه أضعف طلبة المدارس
 في يومنا هذا فكيف يُعزى إلى ناظم بليغ كالسموأل ابن عاديء الغساني.

ومما يشهد أن يداً غريبة تصرّفت بهذه الأبيات البيت الأخير الذي

ورد في القصيدة الموصلية ولم يرد في الرواية الإفرنجية ولا في الرواية البغدادية وهو هذا:

وفي آخر الأزمان جاء مسيحنا فأهدى بني الدنيا سلام التكامل
فما معنى «سلام التكامل»؟ ثم أننا إذا قررنا بنسبة هذه الأبيات إلى
السموأل المشهور وهو يهودي قح كما تشهد عليه جميع كتب العرب
فلا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام وكذلك إذا نسبناه إلى يهودي آخر.
فلا جرم أن ناظم هذا البيت الأخير مسيحي النحلة لإقراره بمجيء
المسيح ولأنه زاد هذا البيت بدون أن ينظر إلى تسلسل التشابه والرموز
فجاء به تهجماً بدون أدنى مراعاة لما ورد قبله، ولو قيل لنا أن سموأل
بن عادياء كان من غسان وغسان كلها نصارى قلنا أن سموأل كان
مسيحياً، فجميع مؤرخي العرب وكتبهم وأدباؤهم فضلاً عن أن غسان
لم تكن كلها على النصرانية مخالفون لها فقد كان فيهم من يعبد الأصنام
ومن أوثانهم مناة. قال ياقوت في معجمه: هذا الاسم اسم صنم في جهة
البحر مما يلي قديداً بالمشلل على سبعة أميال من المدينة. وكانت الأزد
وغسان يهللون له من جهة البحر ويحجّون إليه وكان أول من نصبه عمرو
بن لحي الخزاعي... ومنهم من كان على دين دهماء العرب كسطيح بن
ذئب الكاهن فلم يكن نصرانياً البتة. وقد جاء في تاريخ اليعقوبي 1: 297
- (كانت تلبية غسان عند قومهم وقوفها أمام صنمها لبيك ربّ غسان
راجلها والفرسان) وقال في ص 298 (وتهود قوم من غسان) وقال في
ص 299 (وتنصّر... غسان وهذا كلام يدل على النصرانية واليهودية كانتا
في غسان لا النصرانية وحدها) وقال الطبري في تاريخه 1: 176 (وكان
الحارث بن أبي شمر الغساني نذر سيفين كانا لبيت الصنم يقال لأحدهما

رسةب وللآخر مخزم) فهذا نص صريح على أنه كان وثناً مشركاً وكل من وقف على النسختين السابقتين وعلى نسختنا يعرف بنفسه ما في نسبة هذه القصيدة إلى السموأل من الشطط. أما اسم مخطوطنا فهو نيل السعود في ترجمة الوزير داود كتب في سنة 1232 وعدد صفحاته المكتوبة والبيضاء 314 وطول الصفحة 21 ستيماً في عرض 13 وهو مصحف بجلد أحمر ومؤطر بخطين أحمرين مزدوجين وفي الوسط خطان متآزران على بعد ستمتر والقرطاس المخطوط من النوع المسمى بالترمذي المشهور عند العامة بالترمة. وتبتدئ الصفحة الثالثة بقصيدة لناظمها في مديحه الملا جواد البصير يمدح بها والي بغداد والبصرة وشهر زور داود باشا ثم تليها عدة قصائد في مديحه أيضاً بخط حسن وهي لعدة شعراء عراقيين مجهولين اليوم لا نعرفهم إلا مما بقي مدوناً من قريضهم في هذه المجموعة وهذا وحده كافٍ لأن يعرفك منزلة هذا الديوان النفيس إذ بواسطته نعرف عدة شعراء عراقيين من بصريين وحليين وبغداديين وغيرهم.

وقد بلغت عدة القصائد في مديح الوزير ستاً وسبعين ثم يتلوها قصائد أخرى مختارة من نظم الأقدمين والمولدين ومعاصري الكاتب ثم يتلو ذلك منتخبات من كتب الحديث والأدب والأقوال المشهورة مختلفة الموضوعات والأغراض وكلها من أنيق النثر والنظم ومما يزري ضياء حسنه ببهاء النجم وأغلب ما جاء في هذا الديوان لم أعثر عليه في الكتب المطبوعة. جمعه مؤلفه من عدة كتب مخطوطة عزيزة المنال. ومما فيه أبواب في الأحاديث والثنائيات والثلاثيات ثم ديوان مرتب القوافي على حروف المعجم لعدة شعراء وكلها قصائد غراء آخر قصيدة منها دالية لأبن

حجّة. ومن غريب ما في هذا الديوان بيت شعر لبديع الزمان وهو يقرأ من أحد عشر وجهاً، وهو من أغرب ما جاء في هذا الصدد ونحن نورده هنا لما فيه من الغرابة. ودونك إيّاه بنصه

كفى) بنا بأنا في زمان مذمم	يذاد عن الحق المبين ويدفع
(حزناً) أنا نزور معاشراً	فنهمل فيما بينهم ونضيع
(أنّي) أقول مقالة	فيمنعني منها اللئيم ويقمع
(بـ) أراذل	قلوبهم غيظاً عليّ تقطع
(مـ) ذلّة	وليس بها حراً من الناس ينفع

(أرى) كل من فيها عن الحق يدفع

(الذل) فيها دائماً ليس يقطع

(من) ارجائها يتنوّع

(أ) كفافها يتسرّع

(ملاكها) يتفزع

(يتوقّع)

وفي الوجه الثاني من هذا الديوان صور لبعض الرسائل التي دارت بين خأن الحويرة ورستم آغا بشأن معركة البصرة سنة 1156 وهي من الآثار التاريخية التي يحرص عليها الباحث كل الحرص لأنها لا توجد في غير هذا الكتاب النفيس وتقع في أربع قوائم ونيّف مشتبكة السطور محبوكة الحروف. وفي الصفحة 313 قصيدة للسيد عبد الغفار الموصلي مكتوبة بقلمه على ورقة طيارة فأخذها جامع الديوان وقطّعها قطعاً محكماً

يناسب شكل الصفحة محافظة على خط الناظم وهو من مشاهير شعراء القرن الماضي. وهذه القصيدة هي الدرة الثمينة لأنها هي وحدها محفوظة بخطه فلا يُحفظ من خطه غيرها وبها يختم الكتاب وليس في صفحة من صفحاتها ذكر اسم جامعِه.

غلاة الكتب

لِلَّهِ أَخْوَانُ أَفَادُوا مَفْخَرًا فَبِوَصْلِهِمْ وَوَفَائِهِمْ أَتَكْثُرُ
هُم نَاطِقُونَ بَغَيْرِ أَلْسِنَةٍ تُرَى هُمْ فَاحِصُونَ عَنِ السَّرَائِرِ تُضْمَرُ
أَنْ أَبْغِ مَنْ عَرَبَ وَمَنْ عَجَمَ مَعًا عِلْمًا مَضَى فِيهِ الدَّفَاتِرُ تَخْبُرُ
حَتَّى كَأَنِّي شَاهِدَ لَزَمَانِهَا وَلَقَدْ مَضَتْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ أَعْصُرُ
خُطَبَاءُ أَنْ أَبْغِ الْخُطَابَةَ يَرْتَقُوا كَفِي فَكَفِي لِلدَّفَاتِرِ مَنْبَرُ
كَمْ قَدْ بَلَوتَ بِهِ الرِّجَالُ وَإِنَّمَا عَقْلُ الْفَتَى بِكِتَابٍ عِلْمٌ يُسَبِّرُ
كَمْ قَدْ هَزَمَتْ بِهِ جَلِيسًا مُبْرَمًا لَا يَسْتَطِيعُ لَهُ الْهَزِيمَةُ عَسْكَرُ

ليس في الدنيا منظر تنصرف إليه الوجوه ولا صورة تحديق فيها العيون
ولا نفحة ترتاح إليها الارواح وتخاطبها القلوب ولا صديق اخلص من
ذاك الكتاب، تودعه شرك فلا يخونك وتبوح إليه بذات نفسك فيحفظ
غيبتك ويطرب حضرتك. ليس في صنائع البشر مثل هذه الاوراق الثمينة
التي قد يجهد كاتبها في تسويدها نفسه ويصرف عليها أيامه واعوامه، رجاء
نفع يرتجى وعقل يرتقي وجهالة تضمحل وذكر يخلد ومحمدة تردد. نعم
ليس أفعل في القلوب من الكتاب يعيد مظلما مستنيرا وميتها حيا ويجعل
بعد عسر يسرا. فبالكتب تحيا الأمم وترتفع إلى ذرى المجد والسؤدد
بالصحف تأنس النفوس المستوحشة وتنشط الصدور المنقبضة.

وماذا عسانا نقول في وصف الكتاب بعد أن قرأ القارئ ما قرأ من قول

الجاحظ سيد العلماء ورأس الحكماء وإنما نقول هنا على الجملة أن قد كثر المولعون في جميع الكتب قديماً بكثرة أسباب الحضارة بحيث لو أراد المرء احصاء من ولعوا بذلك من العرب ووصف شيء من حالتهم لاقتضى ذلك كتاباً برأسه. فبلغ من عناية الملوك بالكتب وجمعها أن حمل المأمون إلى بغداد من الكتب المخطوطة ما يثقل مائة بعير، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة. قيل إن عدد مجلدات خزانة المأمون كان ستمائة ألف وأن فهرستها دخلت في أربعة وأربعين مجلداً وقيل ذلك في مكتبة الخلفاء بالأندلس. وانشي بيت الحكمة في بغداد على عهد الرشيد في غالب الاقوال وكان يجتمع فيه النساخ والمؤلفون والمترجمون والمطالعون. أمّا دار الحكمة أو دار العلم في القاهرة فكانت فيها خزانة انشأها الحاكم بأمر الله وحمل إليها الكتب من خزائن القصور. وكان في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير. وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة. وقد تكاثرت خزائن الكتب في المدارس الكبرى والصغرى فقومت كتب المدرسة النظامية ببغداد بألوف وكذلك كان شأن مدارس الشام ومصر.

قال القلقشندي في خزائن الكتب المشهورة: ويقال أن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن احداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر ببغداد فذهبت خزائن الكتب فيما ذهب. الثانية خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر وكانت من أعظم الخزائن وأكثرها جمعاً للكتب النفيسة من جميع العلوم ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم

فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الايدي فلم يبق منها الا القليل. الثالثة خزانة خلفاء بني امية بالأندلس وكانت من أجل خزائن الكتب أيضاً ولم تزل إلى انقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف عليها. قال وأما الآن (أي في القرن الثامن) فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب اكتفاء بخزائن كتب المدارس.

ولم تكن الحكومات ورؤسائها مولعة بجمع الكتب وجعلها وقفاً على المطالعة والمراجعة في قصورهم او مكاتب ينشئونها لهذا الغرض اوفي مدارسهم بل كان العلماء الوزراء وكثير من أهل الثراء مولعين باقتناء الكتب على تعذر الحصول عليها، فقد كان نور الدين الشهيد مولعاً بالكتب جمع منها الأمهات ووقف كثيراً منها على الاستفادة. وكذلك كان صلاح الدين فإنه نقل بعض الكتب المهمة من مصر إلى الشام لما صار عليهما سلطاناً.

وانشأ يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين خزانة كتب وبذل الأموال في الاستكثار من المؤلفات النافعة، وكان يجمع فيها من الكتاب الواحد عشرات من النسخ ولقد غالى من كتب عنها ومنهم المقرئزي وقالوا كان العزيز يتعدها بنفسه حيناً بعد آخر. وانشأ نوح بن منصور صاحب بخارى من ملوك بني سامان مكتبة منقطعة القرن فيها الكتب على اختلاف ضروب العلم. وقد وصفها ابن سينا وكان أذن له بدخولها وقراءة ما فيها من كتب الطب فقال: دخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض في بيت منها كتب العربية والشعر وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها

ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد.

ولما كتب نوح بن منصور إلى صاحب بن عباد وزير بني بويه المتوفي سنة 385 ورقة في السر يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدير مملكته كان من جملة أعذاره إليه أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل فما الظن بما يليق بها من التجميل. وكان سيف الدولة بن حمدان مولعاً بجمع الكتب ولوع نوح بن منصور فكانت في داره خزائن كبيرة جمع فيها الأمهات المفيدة.

وقيل إن وزير الواثق بالله كان ينفق ثلاثين ألف دينار كل شهر على ترجمة الكتب ونسخها. وكان للفتح بن خاقان وزير المتوكل خزانة كتب جمعها علي بن يحيى لم ير أعظم منها كثرة وحسناً وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة قال ابو هنان ثلاثة لم ار قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسحق القاضي وكان الفتح يحضر لمجالسة المتوكل فإذا أراد القيام لحاجة اخرج كتاباً من كمّه او جيبه وقرأ فيه إلى حين عودة المتوكل - قاله ابن الكتبي في الفوات.

وذكر المبرد مثل هذه الرواية فقال أنه ما رأى احرص على العلم من ثلاثة الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسحق القاضي. فأما الجاحظ فإنه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله إلى آخره أي كتاب كان وأما الفتح بن خاقان فإنه كان يحمل الكتاب في خفه فإذا قام بين يدي المتوكل للبول أو الصلاة أخرج الكتاب للنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الذي يريده ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه. واما اسماعيل بن

اسحق فإنني ما دخلت عليه قط إلا وفي يده كتاب ينظر فيه أو يقلّب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه. وبلغ من ولوع بعض الخاصة بالتوفر على خدمة العلم انهم كانوا يفتحون أبواب خزائنهم لكل مستفيد. فقد جعل حنين بن اسحق النسطوري في بغداد داره مكتبة عامة تفد إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه. وكان لأفرائيم بن الزفان الإسرائيلي من أطباء مصر همة عالية في تحصيل الكتب الطبية وغيرها، وكان أبداً عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفائتهم منه. وقال ابن أصبغة وحدثني أبي أن رجلاً من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه بها وأنه اجتمع مع افرائيم واتفق الحال فيما بينهما أن اباعه افرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد.

وكان ذلك في أيام ولاية الأفضل بن أمير الجيوش فلما سمع بذلك أراد أن تبقى تلك الكتب في الديار المصرية ولا تنتقل إلى موضع آخر. فبعث إلى افرائيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق تثمينه بين افرائيم والعراقي ونقلت لكتب إلى خزانة الأفضل وكُتبت عليها ألقابه وخلف افرائيم من الكتب ما يزيد على عشرين ألف مجلد. وكان للصاحب امين الدولة السامري همة عالية في جمع الكتب وتحصيلها. قال ابن أبي اصبغة: واقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم وكانت النساخ أبداً يكتبون له حتى أنه أراد مرة نسخة من تاريخ دمشق للحافظ بن عساكر وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلداً فقال: هذا الكتاب الزمن يقصر أن يكتبه ناسخ واحد ففرقه على عشرة نساخ، كلّ واحد منهم ثمان مجلدات فكتبوه في نحو ستين وقد اجتمع عنده أكثر من عشرين ألف مجلد وفي رواية أنها بلغت مائة ألف مجلد لا نظير لها في الجودة. ووقف موفق الدين أبي طاهر

بساوة دار كتب. قال ابو بكر بن شاذان: وكان ممن أخذ عن الصولي وكان يتباهى كثيراً بالكتب وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان كل صف من الكتب لون، فصفّ أحمر وصفّ أصفر وغير ذلك قال فكان الصوفي يقول هذه الكتب كلها سماع. وكان ابو منصور الخوافي كثير الرواية وأكثر رواياته كتب الأدب وكان قد جمع كتباً من كل جنس. وكانت لبني موسى بن شاكر همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل وأتعبوا انفسهم في شأنها وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم وأحضروا النقلة من الاصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السني فآظفروا عجائب الحكمة - قاله ابن خلكان وكانت لموفق الدين بن المطران المتوفي سنة 587 على ما في تاريخ الأطباء همّة عالية في تحصيل الكتب حتى أنه مات وفي خزائنه من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها. وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبداً ولهم منه الجامكية والجراية وكان من جملةهم جمال الدين المعروف بابن الجمالة وكان خطه منسوباً وكتب المطران أيضاً بخطه كتباً كثيرة وكان كثير المطالعة للكتب لا يفارق ذلك في أكثر اوقاته. وأكثر الكتب التي كانت عنده توجد وقد صححها واتقن تحريرها وعليها خطه بذلك. وبلغ من كثرة اعتناؤه بالكتب وغوايته فيها أنه كتب لكثير من الكتب الصغار والمقالات المتفرقة في الطب، وهي في الأكثر يوجد جماعة منها في مجلد واحد استنسخ كلاً منها بذاته في جزء صغير قطع نصف ثمن البغدادي بمسطرة واضحة وكتب بخطه أيضاً عدة منها، واجتمع عنده من تلك الأجزاء الصغار مجلدات كثيرة فكان أبداً لا يفارق في كمه مجلداً يطالعه على باب دار السلطان أو أين توجه.

وكان للقاضي الفاضل من رجال صلاح الدين يوسف ولع بتحصيل الكتب ولعه بالكتابة. قيل إن كتبه التي ملكها تكون مئة ألف مجلد وليس هذا ببعيد على من كان له من صلاح الدين المكانة المعروفة فقد كان دخله ومغله على ما في كتب التاريخ نحو خمسين ألف دينار سوى متاجر الهند والمغول وغيرهما. وكان جمال الدين بن القفطي الصعيدي وزير حلب المعروف بالقاضي الاكرم المتوفي سنة 646 جماعاً للكتب جمع منها ما لا يوصف وكانوا يحملونها إليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوي خمسين ألف دينار ولم يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة من غرامه بالكتب، ولم يخلف ولداً فاوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب.

وكان ناصر الدين العسقلاني المتوفي سنة 723 جماعاً للكتب خلف ثمان عشرة خزانة مملوءة كتباً نفيسة أدبية وكانت زوجته تعرف ثمن كل كتاب وبقيت تباع منها إلى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وكان إذا أراد أي مجلد قام إلى خزائنه وتناوله كأنه الآن وضعه بيده قال ابن الكتبي: وكان يباشر الإنشاء بمصر زماناً إلى أن اضر لأنه أصابه سهم في نوبة حمص الكبرى فعمي وبقي ملازماً بيته. وخلف ابو زكريا يحيى معين المعري البغدادي الحافظ المشهور من الكتب مائة قمطر وأربع حباب شراية مملوءة كتباً، وكان الأمير ابن فاتك من أفاضل أعيان مصر محباً لتحصيل العلوم، وكانت له خزائن كتب فكان في أكثر اوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها وليس له دأب الا المطالعة والكتابة ويرى أن ذلك أهم ما عنده وكانت له زوجة كبيرة القدر أيضاً من أرباب الدولة فلما توفي نهضت هي وجوار معها إلى خزائن كتبه وفي قلبها من الكتب، وإنه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه وفي اثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط

الدار هي وجواريتها ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد خرب أكثرها قال ابن أبي أصيبعة: فهذا سبب أن كُتِبَ المبشر ابن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال.

وجمع الوزير الفاضل ابو نصر المنازي كتباً كثيرة وفقها على جامع ميفارقين وجامع آمد قال ابن خلكان وهي إلى الآن موجودة بخزائن الجامعين ومعروفة بكتب المنازي.

وكان الأستاذ أبو الفتوح برجوان من خدام العزيز صاحب مصر ومديري دولته مولعاً بالكتب ولعه بالطرائف والأثاث والرياش والآلات وخلف منها مالا يحصى كثرة. واقتنى تاج الدين البغدادي أوجد عصره في فنون الآداب وعلو السماع من كتب خزائن مصر كل نفيس. وكان ابو موسى سليمان بن محمد الحامض النحوي المتوفي سنة 305 صاحب الكتب الحسان في الأدب أوصى بكتبه لأبي فاتك المقتدري بخلأبها إلى أن تصير إلى أحد من أهل العلم.

وذكر صاحب نفح الطيب أن جده كان غنياً جداً حتى أن المقرئ هذا لم يدرك من ثروة جده إلا أثر نعمة اتخذ فصوله عيشاً وأصوله حرمة ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب.

ومن جملة ذخائر قصر العاضد آخر ملوك العبيدين بمصر التي استولى عليها صلاح الدين يوسف خزانة كتب من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد. وكان أبو سعد السمانى صاحب كتاب الانساب يحصل الكتب. وكان ولد القاضي الفاضل الأشرف بهاء الدين مثابراً على تحصيل الكتب مثل والده. وكان في دار أبي

المظفر بن معروف من أفاضل مصر وأطبائها مجلس كبير مشحون بالكتب على رفوف فيه ولم يزل في معظم أوقاته في ذلك المجلس منشغلاً في الكتب والقراءة والنسخ قال في طبقات الأطباء: ومن اعجب شيء منهم انه قد ملك ألوفاً كثيرة من الكتب في كل فن، وأن جميع كتبه لا يوجد شيء منها إلا وقد كتّب على ظهره ملحاً ونوادير مما يتعلق بالعلم الذي قد صنفت ذلك الكتاب فيه وقد رأيت كتباً كثيرة من كتب الطب وغيرها من الكتب الحكمية كانت لأبي المظفر وعليها اسمه وما منها شيء إلا وعليه تعاليق مستحسنة وفوائد متفرقة مما يجانس ذلك الكتاب.

قال الذهبي وسنة اثنتين ومائة مات الضحاك بن مزاحم الخراساني صاحب التفسير وكان علامة وكان مؤدّباً عنده ثلاثة آلاف صبي ومكتبة كالجامع كان يدور عليهم قلت: ومن العجيب وجود كتب في القرن الأول تكون من الكثرة بحيث صح أن تدعى مكتبة وكان اسحق بن إبراهيم النديم الموسيقي المتوفي سنة 235 كثير الكتب حتى قال أبو العباس ثعلب رأيت لاسحق الموصلي ألف جزء من لغات العرب وكلها سماعه، وما رأيت اللغة في منزل احد قط أكثر منها في منزل اسحق ثم منزل ابن الاعرابي. وكانت صاحب القاموس الفيروز ابادي لا يسافر إلا ومعه أحمال من الكتب. وكتب ابن قيم الجوزية بخطه ما لا يوصف وكان محباً للعلم ومطالعه وكتابته واقتناء كتبه واقتنى من الكتب ما لا يحصل لغيره. وكان عند محمد ابن سيد الناس كتب كبار وأمّهات جيدة وهو من الحفاظ والمحدثين. ورأى ابن النديم صاحب الفهرست مكتبة ابن أبي بكرة من أهل مدينة الحديث في الموصل وقال: إنه لم ير لأحد مثلها. ومدح ياقوت الحموي مدينة مرو فقال: ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد

وإخربها لما فارقتها إلى الممات لما في أهلها من الرقة ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بها، فإنني فارقتها وفيها عشرة خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة منها خزانتان في الجامع إحداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق بن أبي بكر وكان فقاعياً للسلطان سنجر وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو ثم صار شرايباً له، وكان ذا مكانة منه وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها والأخرى يقال لها الكمالية لا أدري إلى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد منصور في مدرسته ومات المستوفي هذا في سنة 494 وكان حنفي الذهب وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزانة الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مثناً مجلد وأكثره بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وإنساني حبها كل بلد والهاني عن الأهل والولد وأكثر فوائد هذا الكتاب (معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن.

وفي خطط مصر ومزاراتها للسخاوي أن المدرسة المحمودية بخط الموازينيين أنشأها محمود الاستادار في سنة، 797 ورتب بها درساً للسادة الحنفية وللحديث النبوي وعمل بها خزانة كتب لم تحو خزانة مثل ما فيها من الكتب وهي كلها كتب قاضي القضاة إبراهيم بن جماعة. وكان الأمام زين الدين أبو حفص عمر بن مسلم القرشي من علماء دمشق المتوفي سنة 792 مولعاً بالكتب وملك من نفائسها شيئاً كثيراً حتى أنه لما اعتقل هو

وابنه بقلعة دمشق في دولة الظاهر برقوق رهن كثيراً من كتبه على المبلغ الذي طلب منهما. وأولع الأمام المقري الواعظ المفسر الخطيب الصوفي شيخ العراق عز الدين أبو العباس أحمد الفاروقي الواسطي بالكتب كثيراً قال ابن كثير: إنه خلف الفي مجلد ومائتي مجلد وتوفي سنة 694 وأحب بدر الدين بن غانم أحد كتّاب الإنشاء بدمشق الكتب وعني بجمعها وخلف الفي مجلدة. ووقف فخر الدين المارديني الفيلسوف سنة 594 جميع كتبه في مدينة ماردين في المشهد الذي وقفه حسام الدين بن ارتق الفيلسوف والكتب التي وقفها فخر الدين هي من أجود الكتب وهي نسخته التي كان قد قرأ أكثرها على مشايخه وحرّرها وقد بالغ في تصحيحها وإتقانها. وحصل عمران الإسرائيلي الطيب المتوفي سنة 637 من الكتب الطبية وغيرها ما لا يكاد يوجد عند غيره. وأحصيت الكتب التي وجدت في خزانة نور الدين علي بن جابر فكانت نحو ستة آلاف مجلد. وبامثال هؤلاء راجت صناعة الوراقة والنسخ في البلاد الإسلامية رواج المطابع اليوم أو أكثر، حتى كان الوجيه بن صورة المتوفي سنة 607 سمساراً في الكتب بمصر (وله في ذلك حظ كبير وكان يجلس في دهليز داره لذلك ويجتمع عنده في يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده إلى انقضاء وقت السوق فلما مات السلفي سار إلى الأسكندرية لبيع كتبه)

وبعد فقد أولع أهل الأندلس بالتطريس على أثار المملكة الإسلامية الشرقية في علومهم وصناعاتهم وزراعتهم، حتى كان لبعض العظماء منهم في كل عاصمة من عواصم العلم في الشرق نسخ متوفرون على نقل الكتب التي يؤلفها المشاركة، ولا يصحّ أن تخلو منها مكاتب المغاربة

فكان الأندلسيين كسائر الغربيين الاوروبيين من الإفرنج يولعون من الفطرة بالأخذ عن الشرق كليات الحضارة وجزئياتها. وترى اليوم مثلاً من ذلك يشبه حال الأندلسيين مع سكان المشرق قديماً فإن أهل الغرب ما برحوا يتتبعون آثار السلف في الشرق على ارتقاء العلوم عندهم واغغالهم في مرامي المدنية.

ذكروا إنه كان في الأندلس وحدها سبعون مكتبة عامة فيها مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة. قال ابن الخطيب كانت في سبتة خزانة كتب العلوم وكذلك في مكناسة الزيتون خزائن الكتب. وكان الحكم بن الناصر المتوفي سنة 366 جماعاً للكتب يبذل الأموال في استجلابها من الاقطار قال الذهبي: ولعل كتبه كانت تساوي أربعمئة ألف دينار وقال لسان الدين بن الخطيب إنه كان محباً في العلم والعلماء مثيراً للرجال من كل بلد جمَعَ العلماء من كل قطر ولم يكن في بني امية أعظم همّة ولا أجل منزلة في العلوم وغوامض الفنون منه قال ابن حزم: اخبرني تليد الخصي وكان على خزانة العلوم والكتب بدار مروان أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين لا غير.

وقال ابن خلدون أن الحكم كان يبعث في شراء الكتب إلى الاقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه. قال جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد فأوعى من ذلك كلّ واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها

في حصار البربر وأمر باخراجها وبيعها الحاجب واضح ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة.

ونقل المقرئ أن الحكم جمع الكتب ما لا يحدد ولا يوصف كثرة ونفاة حتى قيل انها كانت أربعمئة الف مجلد وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها قال: وكان ذا غرام بها قد أثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمعت استفادته وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن. وكان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك المصامدة شديد الولع بالعلم والأدب. طمح به شرف نفسه وعلو همة إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أجزاءها وبدأ من ذلك بعلم الطب ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي قال صاحب المعجب: أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني أحد المتحققين بعلمي الطب وأحكام النجوم قال: كنت في أيام شببتي أستعير كتب هذه الصناعة يعني صنعة الأحكام من رجل كان عندنا بمدينة إشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحجاج يعرف بالمراني كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في الفتنة بالأندلس فكان يعيرني إياه في غرائر أحمل غرارة وأجبي غرارة من كثرتها عنده. فأخبرني في بعض الأيام أنه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فأسر إلي أن أخبرها أنني إلى أمير المؤمنين فأرسل إلى داري وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك. وكان الذي أرسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره أن

لا يروّع أحداً من أهل الدار وأن لا يأخذ سوى الكتب وتوَعَّده والذين معه أشدَّ الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها فأخبرت بذلك وأنا في الديوان فظننته يريد استصفاء أموالِي فركبت وما معي عقلي حتى اتيت منزلي فإذا الخصي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تُخرج إليه فلما رآني وتبين ذعري قال لي لا بأس عليك، وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم عليّ وأنه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال لي: سل أهل بيتك هل راعهم أحد أو نقَصَهم شيئاً.

جاء أبو المسك حتى أستاذن علينا ثلاث مرات فأخلى لنا له الطريق ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها، فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع وولّوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث لها نفسه. ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب. ولما تغلّب السلطان يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب الأقصى على ملك قشتالة في أواخر المئة السابعة سأله أن يبعث إليه بكتب العلم التي بأيدي النصاري منذ استيلائهم على مدن الإسلام، فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملاً فأمر السلطان بحملها إلى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم. وكان أحمد بن الرومية أحد أعلام المحدثين المتوفي سنة 637 وهو النباتي الذي وقف على ما لم يقف عليه غيره ممن تقدّم في الملة الإسلامية حتى صار فرداً لا يجاربه أحد بإجماع من أهل هذا الشأن - كثير الكتب جماعاً لها كما قال في الأحاطة وذلك في كل فن من فنون العلم وربما وهب منها لملتمة الأصل النفيس الذي يعزّ وجوده احتساباً وإعانة

على التعليم قال: وانتشرت عنه تصانيف أبي محمد بن حزم واستحسنها واطهرها واعتنى بها وأنفق عليها أموالاً جمّة حتى استوعبها جملة فلم يشذ له منها إلا ما لا يخطر له مقتدرأ على ذلك بجذته ويساره. قال: ولما وصل إلى المشرق لقي مثنين من شيوخها فقفل برواية واسعة وجلب كتباً غريبة.

وذكر صاحب الأحاطة أن ذا الوزارتين أبي عبد الله اللخمي المتوفي سنة 708 أكرم العلم والعلماء ولم تشغله السياسة عن النظر ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع وأفرط في اقتناء الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها وأثرت أنديته من ذخائرها. قال ابن خاتمة: كان للشيخ أبي بكر الحكيم الرندي عناية بالرواية وولوع بالأدب وصبابة باقتناء الكتب جمع من أمهاتها العتيقة وأصولها الرائقة الانيقة ما لم يجمعه في تلك الأعصر سواه ولا ظفرت به يداه. وكان اقتناء الكتب عند الأندلسيين من شارات الوجاهة وأمارات الظرف وقد يجمع الغني ما شاء من كتب وقماطر وهو لا يعلم الفائدة المترتبة عليها وكان أهل قرطبة أرغب في مقتنياتها من أكثر البلاد الأندلسية. جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بن الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع آلاته حُمِلت إلى قرطبة وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته وكتبه حُمِلت إلى إشبيلية حتى تباع فيها. قال أبو الفضل التيفاشي: وقرطبة أكثر بلاد الله كُتُباً. وروى المقري أن ذلك صار عندهم من آلات التعين ورئاسة حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به.

قلت: وهذا الغلو يشبه لعهدنا غلو جماع الطوابع والعادات والصور وممن كان جماعاً للكتب والدواوين العلمية بالأندلس احمد بن عباس الانصاري فكان معتنياً بها مغالياً بها نفاعاً بها من خصّه لا يستخرج منها شيئاً لفرط بخله بها الا لسبيلها حتى لقد أثرى كثير من الورّاقين والتجار معه فيها وجمع منها ما لم يكن عند ملك - قاله لسان الدين. وقال في ترجمة احمد بن الصغير الخزرجي من علماء الأندلس المتوفي سنة 559 إنه كان مولعاً بالأسفار كتب من دواوين العلم ودفاتره ما لا يخفى كثرة بشدة ضبط وحسن خط وعدّ في جملته محنته أن ضاعت له في ذلك وفي غيره كتب كثيرة بخطه مما تجل عن القيمة. وقال وكان احمد ابن إبراهيم من أهل الأندلس امتحن بأن نشأ بينه وبين المتغلب بمالقة من الرؤساء وحشة فكبس منزله واستولت الايدي على ذخائر كتبه وفوائد تقييده عن شيوخه ما طالت له الحسرة وجلت له الرزية ولما سرّيت عنه النكبة كانت له الطائلة على عدوه والطائلة الحسنی بعد التياث أمره والظفر بكثير من متتهب كتبه وتوفي سنه 708.

وكان ابو جعفر احمد بن الجواز من أهل القيروان عالماً وجد له خمسة وعشرون قنطاراً من كتب طبية وغيرها. وكان القاسم بن محمد الاشبيلي الإمام الحافظ المحدث المؤرخ باذلاً لكتبه وأجزائه ووقفها. وكان ابن نغزله اليهودي كاتب باديس الصنهاجي أحد رؤساء الأندلس جماعاً للكتب وكان ضليعاً في العلم كتب عنه وعن صاحبه بالعربي فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى والصلاة على رسوله والتزكية لدين الإسلام.

وكان محمد بن حزم جماعاً للكتب. وكان أبو بكر محمد بن يحيى والد أبي زكريا الراوية من حفاظ النحو واللغة والشعر مولعاً بالكتب جمع منها شيئاً عظيماً.

وكان عبد الله محمد بن عبد الله السلمي المرسي أحد أئمة العلم كتب في البلاد التي ينتقل إليها بحيث لا يستصحب كتباً في سفره اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه. وكان الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصقلی ملك المرية من بلاد الأندلس جماعاً للدفاتر حتى بلغت أربعمائة ألف مجلد وأما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها. وكان المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس كثير الأدب جمّ المعرفة محباً لأهل العلم جمّاعة للكتب ذا خزانة عظيمة لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة - قاله ابن حيان. وقال ابن بسام: كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشتهر أيضاً اسمه بالكتاب المظفري في خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم من مغازي وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب.

هذا ما ظفرنا فيه من أسماء غلاة الكتب في عصور الارتقاء في هذه الملة فليته يعود للشرق بعض هذه الهمة في اقتناء المفيد.

مصائب المكاتب

ليس أعز على عالم من كتب وأوراق كتبها هو أو غيره ولذلك نجد المصنفين في كل عصر ومصر يختارون أجود الورق وأثبت المداد وأجمل الخطوط تخليدا لجدهم وحرصا على بنات أفكارهم أو أفكار من عاصرهم أو تقدمهم ولما كان لكل شيء في العالم عمر طبيعي يقضيه حيوانا كان أو نباتا أو جمادا لم تخرج الكتب عن حد كونها عرضة للفناء وإن طالت أعمارها أكثر من غيرها في عالم الكون والفساد بيد أن المصيبة بها جليلة لأنها ثمرة عقول البشر وزبدة أقوالهم وأفعالهم، وأفضل ما في المرء عقله ولا يتم له حفظ ثمراته في الغالب إلا بكتاب.

حدثت الكتب في الإسلام في أواخر القرن الأول ولم يمض قرن أو قرنان حتى عُدَّت بالألوف وصار لها شأن عند القوم بعد أن كانوا أمة أمية لا يقرأون ولا يكتبون. قيل أن الكتب التي كتبها أبو عمرو بن العلاء المتوفي بعد الخمسين ومائة عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب السقف ثم أنه تقرأ أي تنسك فأخرجها كلها وفي رواية أحرقها فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ومعلوم أن أصحاب السلطان في الإسلام عنوا بإقامة الخزائن وتسليبها على المطالعة والمراجعة والنسخ يتتابها خاصة الناس وعامتهم لندرة الكتب وعزة الظفر بها إذ ذاك وقد أصاب تلك الخزائن ما أصاب غيرها من مخربات العمران وأقلها التحريق

والتمزيق والضياع والتفريق ولذلك طالت لها الحسرة وهلاك فرد لا يوازي هلاك أفراد وإن عُدذ الفرد أحياناً بأمّة، وكذلك الحال في الكتب فإن ذهاب مكتبة أو مكاتب برمتها لا يشبه ذهاب كتاب أو بضعة كتب وأهم المآثم التي أقيمت على الكتب الإسلامية ثلاثة.

الأول يوم دخل هولاء سنة 656 إلى بغداد وقتل الخليفة العباسي وأزال الخلافة جملة وخرب دار السلام فألقت الكتب في دجلة حتى قيل أن لون مائه على غزارته بقي أياماً أسوداً مكمداً بما تحلل فيه من مداد الأسفار التي ابتلعها. وبالغ المؤرخون فيما ذهب في تلك النكبة ويكفي بأن بعض تلك الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة على زمن هؤلاء التتر قد أنشأ بها نصير الدين الطوسي أحد فلاسفة الإسلام خزانة عظيمة اتخذها بمراغة في القبة والرصد الذي أنشأه هناك فيجتمع فيها زيادة على أربعمئة ألف مجلد. والمآثم الثاني يوم دخل الإفرنج مدينة طرابلس الشام في الحروب الصليبية فأحرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل وكان قد دخل غرفة فيها نسج كثيرة من القرآن فقضى بإحراق المكتبة كلها وفيها على ما قيل ثلاثة ملايين مجلد. وأصاب البلاد غير هذين الرزيتين ما أصابها من الخراب بأيدي التتر وأهل الصليب. والمآثم الثالث نكبة الأندلس وداهيتها الدهياء فقد وقعت كتب المسلمين في أيدي أعدائهم وقد أعماهم الجهل والتعصب فجعلوها طعماً للنار.

قال قوندي في تاريخه أن مسيحيي إسبانيا لما استولوا على قرطبة حرقوا كل ما طالت إليه أيديهم من مصنفات المسلمين وعددها مليون وخمسون ألف مجلد جعلوها زينة وشعلة في يوم واحد ثم رجعوا على سبعين مكتبة في الأندلس وأنشئوا يتلفون كل ما عثروا عليه في كل إقليم من مؤلفات العرب.

وقال أحد مؤرخيهم ربلس أن ما أحرقه الأسبانيول من كتب الأندلسين بلغ ألف ألف وخمسة آلاف مجلد. وذكر بعض المؤرخين أن أحد جثالقتهم أمر بإحراق ثمانين ألف مجلد في ساحات غرناطة عقيب استيلائهم عليها وأنهم قبضوا على ثلاث سفن قاصدة مراکش تقل ما عَزَّ على المسلمين أن يخلفوه ورائهم من أسفارهم فألقوها في قصر الأسكوريال ثم لعبت فيها النيران وبقيت منها بقية رتَّبَ فهرستها أحد مسيحي سوربة وجعلوها إلى اليوم مكتبة يتتابها علماء الأرض وكان بقي منها على عهد من رتَّبها 1851 سفرا.

وقد ادعى قوم أن المسلمين حرقوا كتب الأمم قبلهم في الفتح فعاملهم الدهر بعملهم بعد. فقالوا أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق كتب الأوائل وأنه أمر عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الأسكندرية وفيها قسم كبير من حكمة اليونان وغيرهم من الأمم الخالية، وإنهم حرقوا مكاتب فارس في خلال الفتح وأن عبد الله بن طاهر قائد المأمون حرق في خراسان سنة 213 ما كان باقياً من مؤلفات المجوس إلى غير ذلك مما يتذرعون به من الحجج، وهو مردود عند أهل التمهيص ونقطة الأخبار.

ولو كان لما ادعوه ظل من الحقيقة لذكر قدماء المؤرخين من المسلمين ذلك ولو بإشارة طفيفة. ولماذا يا ترى لا نرى لهذه الدعوى ذكراً فيما بين أيدينا من كتب التاريخ كابن جرير والمسعودي والبلاذري وغيرهم؟ كما إنا لا نجد لذلك أثراً في كتب سيرة العمرين وكان على مؤلفيها لو كانت رويت هذه الأخبار لهم من طريق صحيح وتواترت في زمانهم أن يعدّوها في باب مناقب الخليفة الثاني ويوردها بسلامة صدر على عادتهم في بعض أخبارهم. بل كان على أصحاب الكتب الستة مثلاً أن يفرّدوا لإحراق الكتب

باباً لو كان صدر من بعض الخلفاء الرأشدين مثل هذا العمل. كل هذا لم يرد شيء منه في تضاعيف كتب الثقات وإنما هم الوضاعون وضعوا هذا الخبر كما وضعوا مئات مثله وألصقوه بالأمام فتلقفه من لا عهد له بوضع الأخبار على محك النقد من مؤرخي القرون الوسطى قضية مسلمة وراح بعضهم يتذرعون به إلى النيل من الأئمة بإحراقهم الكتب ليحولوا دون العقول والأخذ من علوم الأوائل وكل ما نسب للمؤرخين المتأخرين منقول عن القفطي من أهل القرن السادس ولا يبعد أن يكون تلقفه من كتب الواعظين وتابعه عليه من بعده. يؤيد ذلك ما مُني به المسلمون من التفرق إلى شيع يضاد بعضها بعضاً وما ثبت في التاريخ من أن الحريق طراً على هذه المكتبة مرات قبل الإسلام ولما فتحت الأسكندرية في الصدر الأول لم يكن في مكتبتها من الكتب ما يدعو إلى مديد الفاتح إليها بشيء من الأذى والحرق ولذا لم يذكر هذا الخبر أحد من معاصري الفتح من المؤرخين سواء كانوا من الروم أو غيرهم.

هذا ما وقع للمكتب العربية من النكبات العامة في القرون الوسطى وقد وقع لها ما بعده نكبات أعظم وأدهى نريد بها جهل القوم وزهدهم فيها ومفاداتهم بها وبيعها بثمن بخس لكل طالب. وما زال الشيوخ من أهل هذا الجيل يحدثوننا بما وقع لكتبنا في مصر والشام وأقله السرقة والحرق الاختياري وبيعها من الدالين لينقلوها إلى الأجانب.

حدثني ثقة أن دلال كتب في دمشق كان يغشى منازل أهل العمائم ممن يعرفون بين القوم بالعلماء ويختلف إلى متولي خزائن الكتب في المدارس فيبتاع منها ما طاب له من كتب القوم المخطوطة بأثمان زهيدة إذ لم يكونوا يحرصون إلا على كتب الفقه وكانوا أبيع من إخوة يوسف

لكتب التاريخ لأنها كذب بزعمهم، والكذب لا ينبغي أن يوضع في قماطرهم وخزائنهم وهناك فنون كثيرة تلحق فن التاريخ بالطبع وهي كتب الحكمة والأدب. قال وقد ابتاع معظم هذه الكتب قنصل ألمانيا إذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها أبيض وبقي سنين يتلقطها من أطراف سورية حتى اجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها والغالب أن معظم ما في مكتبته برلين العربية هو من بقايا الكتب التي كان يعدها أولئك المتعاملون أضاليل وأباطيل والتخلص منها بدراهم معدودة خير وأبقى.

ومثل هذا وقع في كثير من بلاد الشرق العربي ولاسيما القاهرة فإن ما تدورك أمره وجمع في خزانة الكتب الخديوية هو غيظ من فيض. وكذلك ما جمع في خزانة الكتب العمومية في دمشق وما بقي في بعض مدارس حلب وغيرها. وما أظن إلا أن حظ سائر البلاد الإسلامية كان كحظ هذين القطرين في كتبه لأن الداء واحد وهو عموم الجهل.

أما مكاتب الأستانة وهي نحو أربعين مكتبة الآن ويبلغ ما فيها نحو مائة ألف مجلد ففيها النفيس الذي لا خطر له ولكنها مغلقة تأكلها الأرضة ولا يُتفَع بها وكثيراً ما سطا عليها شياطين الأنس من الغربيين وابتاعوا بعضها من القُوم عليها لقاء ريات يرضخون بها ولا يزال معظمها في حكم العدم وتوشك إذا دامت كذلك أن تفتنى مع ما فني وترحل مع ما رحل.

إلا فلتعمر مكاتب موينخ وبرلين وستراسبورغ ولايبيغ وليدن وفيينا وبودابست واكسفورد ولندن وباريز والأسكوريال وبطرسبرج ونيويورك وشيكاغو وغيرها من المكاتب العامة والخاصة، فإنها هي التي عرفت

قَدَر ما احتقرناه وبواسطة رجالها يحيا كل كتاب انتقل إليهم ويُنتفع به ولو
بعد حين. وآمالنا في انتشار مدنيّة الإسلام على يد أولئك الغربيين أكثر من
آمالنا في انتشارها على يدنا وإن كنا نود مشاركة أولئك الغيورين في إحياء
مدنيتنا وصاحب الحاجة أولى بها.

الشعر الاجتماعي

ليس جميع ما خلد في بطون الأوراق من شعر شعرائنا الغابرين هو في المديح والهجاء والثناء والغزل والنسيب والخمريات والزهديات والخلاعات، بل كان منهم ذوو أخلاق طاهرة يتأثرون بمحيطهم ويشعرون بشعور أمتهم يشاركونها في آلامها وأسقامها ويسعون إلى صلاحها وإصلاحها. وإن ما انتهى إلينا من شعر الجاهليين والمخضرمين والمولدين ان صح إصدار الحكم عليه لقلته ليدعو إلى القطع بان معظم الشعراء أميل إلى الخصوصيات منهم إلى العموميات، وأبو العلاء المعري رأسهم في تشريف الشعر والتفادي من ابتذاله وجل لزومياته من الشعر الاجتماعي الصادر عن نفس أبية مشرفة على ما يعبث بجسم المجتمع من الشرور والغرور والقصور، ولذلك لم يبرح يضرب على نغمة التنديد وكثيراً يخرج النقد إلى الغلو وأي شعر خلا من الغلو؟

ولو خلت نفس أبي الطيب المتنبّي من المطاعم والتغالي في حب الجاه والغني لساغ أن يكون من مجموع حكمياته ديوان شعر اجتماعي ينفع الأمة في تكبير نفوسها وتحسين ملكاتها، ولا سيما لو كانت الحكمة مختلطة بأجزاء نفسه اختلاطها بأجزاء روح المعري وكانت اقواله على قدر أفعاله. فقد رأينا يملا الدنيا مديحاً بسيف الدولة ثم يهجره ويمدح كافوراً الاخشيدي لما كان يرجو أن يوليه ولاية ثم يهجو أقبح هجو لمّا يئس منه، فكيف يثق العقلاء باقواله وتفعل أشعاره في النفوس فعلا محمودا.

وإذا تقدمنا إلى ما وراء ذينك العصرين وبحثنا في شعراء أوائل العباسية كأبي العتاهية وأبي نواس لا نعتم أن نقول فيهما ما قلناه في أبي الطيب وإن كانت الزهديات غالبية على شعر الأول والخمريات متحكمة من شعر الثاني. أما من كانوا بعد ذلك العهد من الشعراء كأبي فراس الحمداني فإنك تجد شعرهم بحسب محيطهم فتقرأ في شعر هذا علو النفس والشمم وشيئاً من روح الاجتماع. وبحق ما قيل بُدِيء الشعر بملك وهو أمرؤ القيس وختم بملك وهو أبو فراس وبحق ما قالوا كلام الملوك ملوك الكلام. وإنك لا تجد في نفسك النشأة التي تجدها بتلاوة شعر الشريف الرضي وابن الرومي ماتجده بكلام صريع الغواني وناصح الدين الارجاني. أما ما إذا جئت تقرأ الشعر في القرون الخمسة الأخيرة وهي عصور انحطاط اللغة وانحطاط الأفكار فتكاد لا تجد الجيد واحداً من مائة. وأكثر من اجادوا في الاجتماعيات من كانوا على شيء من معرفة زمانهم من الشعراء وتأثروا بتأثر أمتهم مثل تلك الزمرة من الشعراء التي سقطت الأندلس في أيامها فبكوها ورثوها، أو كانوا قبيل سقوطها فحذروا ملوكهم عاقبة التفاضل وبيتوا لهم مواضع الضعف. وأي شعر أوقع في النفس وأفعل في إثارة الشجون من قصيدة ابن الأبار لما أوفده صاحب بلنسية عندما حاصرها ملك برشلونة البرتغالي إلى ابن أبي حفص صاحب أفريقية التي يقول في مطلعها:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا	إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ	فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
وَحَاشَ مِمَّا تُعَانِيهِ حُشَاشَتُهَا	فَطَالَمَا ذَاقَتْ الْبَلْوَى صَبَاحَ مَسَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزَرًا	لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعْسَا
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ إِلِمَامٌ بَائِقَةٌ	يَعُودُ مَاتَمُّهَا عِنْدَ الْعِدَى عُرْسَا

وَكُلَّ غَارِبَةٍ إِجْحَافُ نَائِبَةٍ تَنْبِي الْأَمَانَ حِذَارًا وَالسُّرُورَ أَسَى
تَقَاسَمَ الرُّومُ لَا نَالَتْ مَقَاسِمَهُمْ إِلَّا عَقَائِلَهَا الْمَحْجُوبَةَ الْأُنْسَا
وَفِي بَلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقُرْطَبَةٍ مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
وَأَيَّ شَعْرٍ أَصْدَقَ مِنْ رُقْعَةٍ وَجَدْتَ فِي جَيْبِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْفَازَازِي يَوْمَ
مَوْتِهِ يَقُولُ فِيهَا:

الرُّومُ تَضْرِبُ فِي الْبِلَادِ وَتَغْنَمُ وَالْجُورُ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ وَالْمَغْرَمُ
وَالْمَالُ يَوْرَدُ كُلُّهُ قَشْتَالَةً وَالْجُنْدُ تَسْقُطُ وَالرَّعِيَّةُ تَسْلَمُ
وَدَوُّوا التَّعِينَ لَيْسَ فِيهِمْ مُسْلَمٌ إِلَّا مُعِينٌ فِي الْفَسَادِ مُسْلَمٌ
أَسْفِي عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا اللَّهُ يَلْطَفُ بِالْجَمِيعِ وَيَرْحَمُ

قال المقرئ أن هذه الأبيات رُفعت إلى سلطان بلده فلما وقف عليها
قال بعد ما بكى صدق رحمه الله تعالى ولو كان حياً ضربت عنقه. ولم يزل
أهل الأندلس بعد ظهور الإفرنج على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك
والسوقة لأخذ الثأر بالنظم والثرار، فمن القصائد الموجهة في ذلك قول
بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب صاحب أفريقية أبا حفص ويقول فيها.

يَا حَسْرَتِي لِعَقَائِلٍ مَعْقُولَةٍ سَمَّ الْهَدَى نَحْوَ الضَّلَالِ هِدَاءُهَا
إِيهِ بَلَنْسِيَةِ وَفِي ذِكْرَاكَ مَا يَمْرِي الشُّؤُونُ دِمَاءُهَا لَا مَاءُهَا
كَيْفَ السَّبِيلَ إِلَى احْتِلَالِ مَعَاهِدِ شَبَّ الْأَعَاجِمُ دُونَهَا هَيْجَاءُهَا
وَالِى رِبَا وَأَبَاطِحَ لَمْ تَعْتَرِضْ حُلَّ الرِّبْعِ مَصِيفُهَا وَشَتَاءُهَا
طَابَ الْمَعْرَسَ وَالْمَقِيلَ خِلَالِهَا وَتَطَلَّعْتَ غَرَرَ الْمَنَى أَثْنَاءُهَا

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة:

لُثْكَكَ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ سُرُورًا بَعْدَ مَا سُبِّتَ ثُغُورُ
أَمَّا وَأَبَى مَصَابٌ هُدًى مِنْهُ ثَبِيرُ الدِّينِ فَاتَصَلَ الثُّبُورُ

إلى أن يقول:

فإن قلنا العقوبة أدركتهم
فإننا مثلهم وأشد منهم
أنأمن أن يحل بنا انتقام
وأكل للحرام ولا اضطرار
وجاءهم من الله النكير
نجور وكيف يسلم من يجور
وفينا الفسق أجمع والفجور
إليه فيسهل الأمر العسير

ومما قبل في ذلك قصيدة أبي البقاء الرندي وهي مما اشتهر:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
يُمَزَّقُ الدَّهْرُ حَتْمًا كُلَّ سَابِغَةٍ
فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَأْنُ
إِذَا نَبَتَ مَشْرِفَيَاتٍ وَخَرَصَانُ

ومن هذا الباب قصيدة العقيلي يتوسل بسلطان فاس التي يقول فيها:

كنا ملوكاً لنا في أرضنا دُولُ
فايقظتنا سهام للردى صِيَّبُ
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا
يبكي عليه الذي قد كان يعرفه
نمنا بها تحت أفنان من النعم
يُرمى بافجع حتف مَنْ بهن رمي
وأي مُلْكٍ بظل الملك لم ينم
بأدمع مُزِجَتِ أمواها بدم

وهكذا كانت تلك الطبقة من الشعراء على ذلك العهد في الأندلس على نحو ما كان بعض شعراء ألمانيا في القرن الماضي، وقد قاموا يحمسون الأمة والحكومة في معارضة الدين ومناهضة الحكم المطل مثل سترأوس والاخوان بوير وارنولدروج وكارل ماركس وفيورباخ، وكجمهور من الشعراء السياسيين مثل هوفمان فون فالرسلين ونجلستيد وفرايليجرات وميسنير وكارل بيك وعوتفريد وكاين كيل ممن أخذوا على أنفسهم الدفاع عن حقوق الأمة والحرية وأخذوا ينشرون في أوروبا دعوات حماسية.

ولكن شتان بين من يسعون إلى تأسيس مُلك ضخم وسلطان عظيم العلم رائده والعقل قائده يقولون فتسمع اقوالهم وتؤثر الأثر المطلوب، وبين من يقولون كبقايا أولئك الأندلسيين وهم خائفون فلا تؤثر اقوالهم ويمسسون ينشدون ويصبحون يندبون بلاداً سقطت وأطفالاً يُتّمَت ونساء أُيّمَت وعمراناً اضمحل وساكنوا ابدعَر. وليس معنى هذا أن الشعر كله يجب أن يكون اجتماعياً بل أن أكثره أصبح كذلك ينفع ويرقي. والشعر أدعى إلى التأثير وأسرع أن يعلق في الذهن من النثر. والشعراء إذا أحسنوا القصيد وصرّفوه فيما يفيد تقطف البلاد بثمره اقوالهم ما تقطفه من ثمرات أقوال الخطباء والكتّاب إن لم نقل أكثر. الشاعر الاجتماعي هو الذي يدلّ أمّته على عوارها وعارها ويبين لها طريق نجاتها وعثرتها وينوّع الأساليب في تعليمها وتهذيبها. وما انس لا انس غوركي شاعر الروس وقد كان منذ سنين يؤلف القصيدة الثورية الاجتماعية يلقّنها الفلاحين حتى إذا استظهروها يرحل عنهم وقد ظلّ اعواماً على هذه الدعوة ورجال الشرطة يطاردونه وهو بجربذته يفلت من بين ايديهم حتى كانت اقواله من جملة ما ولّد الثورة الروسية الأخيرة. وقد اذكرني غوركي بعمارة اليميني الشاعر الذي دعا في مصر للدولة الفاطمية بعد أن حلّ عراها صلاح الدين يوسف وما قال في ذلك من قصائد ومقاطيع كانت سبب صلبه، ومن جملة شعره القصيدة التي توضح عذر السلطان صلاح الدين في قتله وقتل من شاركه في ذلك قال في مطلعها:

رمىت يا دهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور فإن قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا ينفك ما بين أمر الشين والخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبةً
إلى أن يقول:

يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة
بالله زر ساحة القصرين وابك معي
وقل لأهليهما والله ما التحمت
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
وقد حصلت على واسم جدكم
مررت بالقصر والاركان خالية
فملت عنها بوجهي خوف متقد
اسبلت من اسف دمعي غداة خلت
ابكي على ما تراأى من مكارمكم
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
وفطرة الصوم إن اصغت مكارمكم
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
وموسم كان في كسر الخليج لكم
وختمها بقوله:

سقيت مهلاً أما تمشي على مهل
على فجيعتها في أكرم الدول

لك الملامة إن قصرت في عذلي
عليهما لأعلى صفين والجمال
فيكم قروحي ولا جرحي بمندمل
في نسل آل أمير المؤمنين علي
ملكتم بين حكم السبي والنفل
محمد وأبيكم غير منتقل
من الوفود وكانت قبة القبل
من الاعادي ووجه الود لم يمل
رحابكم وغدت مهجورة السبل
حال الزمان عليها ولم تحل
واليوم اوحش من رسم ومن طلل
تشكو من الدهر ضيماً غير محتمل
ورث منها جديد عنهم ويلي
يأتي تجملكم فيه على الجميل

حتى عممتم به الأقصى من الملل
ضيف المقيم وللطاري من الرسل
لمن تصدّر في علم وفي عمل
منكم وأضحت بكم محلولة العقل

وما خصصتم ببرّ أهل ملّتكم
كانت رواتبكم للذمتين ولل
وللجوامع من احباسكم نعم
و ربما عادت الدنيا لمعقلها

ولسائل أن يقول أما في شعراء العربية اليوم من تقع لهم يا ترى مثل هذه القصائد الحماسية الاجتماعية يحسنون بقريضهم الملكات ويضمّون الشتات قبل الفوات؟. فالجواب أن هذه الروح ضئيلة جدا في شعرائنا فإن غلبت على شعر حافظ أفندي إبراهيم حتى جاز أن يدعى الشاعر الاجتماعي بلا مدافع وقرئت في قصائد جميل صدقي أفندي الزهاوي ومعروف أفندي الرصافي من شعراء بغداد، فإنها تقلّ في شعر الشيخ عبد المحسن الكاظمي واحمد بك شوقي والأمير شكيب ارسلان ومصطفى صادق أفندي الرافعي والسيد توفيق البكري والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي وخليل أفندي مطران والأمير نسيب ارسلان ونقولا أفندي رزق الله وعبد الله أفندي البستاني وإبراهيم أفندي الحوراني وفارس أفندي الخوري وعيسى أفندي أسكندر معلوف ورزق أفندي حداد واحمد أفندي محرم وامين أفندي حداد واسماعيل باشا صبري وحفني بك ناصف والياس أفندي فياض ومحمد أمام أفندي العبد وطانيوس أفندي عبده وقسطاكي بك الحمصي واحمد أفندي الكاشف وأضرابهم المجيدين في شعرائنا ممن لم تحضرني أسمائهم، فإنك لا تقرّ لأحدهم المقطوعة أو القصيدة الفدّة حتى تقرّ له عشرات غيرها في أغراض أخرى. فيا حبذا لو توخّى قيادة القريض بما ينظمون النفع العام ونحوا في أشعارهم منحى السداد لتفعل في عقول منشديها وراويها فتسدّ خطأهم وتصحح أفكارهم وتقوي قلوبهم وتصلح عيوبهم. فعصرنا هذا عصر الحقائق لا عصر الخيالات والعاقل يتنفع بأقواله بحسب نيته. وهيهات أن نقول أن للشعر العربي دولة إلا إذا حسنت أثار اقوال زعمائه في أبنائه وقديما قالوا اعذب الشعر أكذبه، أما نحن اليوم فنقول أعذب الشعر أصدقّه وعهدنا هذا يفتح بما فيه من دواعي القول قرائح من لم يحلم بأنه يقول الشعر.

اللغات الافرنجية

لهجت بعض الألسن في منافع اللغات الأوروبية ومضارها في مجتمعنا عقيب أن قام صاحب المؤيد في الجمعية العمومية وناقش ناظر معارف مصر في وجوب تعليم العلوم في المدارس الأميرية باللغة العربية. فكان من أثر ذاك الحوار أن بطلت دروس الأشياء وجُعل تدريس علم تقويم البلدان باللغة العربية في المدارس الابتدائية كما شُرع بتعليم الرياضيات في السنين الأولى من المدارس الثانوية باللغة العربية أيضاً.

فقام بعض الناس متخذين من هذا الإصلاح حجة على قلة غناء اللغات الإفرنجية زاعمين أن في العربية ما يكفيها من العلوم. على حين كان مادعا إليه الداعون من التدريس بالعربية لمقصد آخر أريد به إحياء لغة البلاد إذا درست العلوم بها وإشراب نفوس المتعلمين حبّ أمّتهم ليعمّ النفع مما يتعلمون لا التنفير من تعلّم اللغات الإفرنجية التي لا يمتري عاقلان في وجوب تعلّمها على فريق كبير من الناس ولا سيما من تصدّوا للنفع والتأليف والكتابة على نحو ما يفعل علماء اليابان فيتعلّمون الإنكليزية كما يتعلّمون لغتهم الأصلية.

نقول تعلّم اللغات الأجنبية وما أحرانا أن نقول إتقانها لأن المبادئ البسيطة منها قد لا تفيد المتعلم إلا توهمه أنه أصبح من العارفين. فإن تعودّ علماؤنا قديماً من نصف فقيه ونصف صوفي ونصف كاتب ونصف شاعر فما أحرانا أن نتعود من ناشئ يتعلم طرفاً من لغة لا يستفيد منها ولا يفيد.

وليس معنى هذا أنه يتحتّم وجوباً على كل متعلم للغة أجنبية أن يكون فيها مؤلفاً خطيباً كاتباً مترجماً فهذا مناف لسنّة الكون ولكن المطلوب أن يعرف الناس في تعلم إحدى اللغات الأوروبية القدر الذي يؤهلهم للانتفاع منها في التجارة وأعمال الإدارة والقضاء والعلم.

ولا مشاحة في أن أكثر من تعلّموا اللغات الأجنبية من أبنائنا لم يتقونها وإن حذقوها فلا يكون لهم من المعرفة بلغتهم ما يستطيعون معه أن يعبروا به عن أفكارهم وينقلوا إليها ما يعوزها من علوم الغرب وحضارته. بيد أن اللغة وإن أتقنها صاحبها لا تنفعه ويتنفع بها النفع المطلوب إلا إذا أضاف إليها علماً أو فناً أخصى فيه واللغة آلة لا غاية وإن كان من يتقن لغة أوروبية لا يتسنّى له ذلك إلا بعد أن ينظر نظرة إجمالية في الفنون المتعارفة.

أما ما يقوله بعض من لا يساعدهم الوقت على تعلّم لغة أجنبية من أنه ليس في النقل من اللغات الغربية كبير أمر، وأن العالم يستفيد من الوجود أكثر من استفادته مما دونه كبار أرباب العقول من أمم الحضارة فهذا من الآراء التي يُقصد بها الاعتذار عن التقصير ومن جهل شيئاً عاداه. إذ من الثابت المقرر أننا مهما تأملنا في صحيفة الكون لا نستطيع أن ندرس فيه نظام الاجتماع ولا تقنين القوانين ولا الطب والهندسة ولا الفلك والطبيعة والكيمياء وفنون الأدب والتاريخ ورسم الأرض وغيرها من الفروع الكثيرة التي لا أسماء لها في العربية إذ لم يكن للعرب عهد بها ولا تتم سعادة مجتمع اليوم إلا بتعلّمها وإتقانها.

ومن قال بأن أسلافنا من العرب قد أجالوا في هذه العلوم قداح أنظارهم ووضعوا فيها ما وضعوا من رسائلهم وأسفارهم فهو على صواب وخطأ. وذلك أن أجدادنا قاموا بالواجب من خدمة هذه العلوم في عصر تماسكهم

وانبساط ظل دولتهم إلا أنه انقطعت سلسلتها بعد القرن السادس إلى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة وهي القرون التي كانت فيها الأمة العربية في غفلة والأمم الغربية في انتباه، فأخذ الغرب عن الشرق ما عنده من حضارة وزاد عليها أضعافاً ولا يزال يُركّض طرف عقله في مضمار البحث والاستقراء ويعاني من ضروب العلم ما نحن فيه معه أجهل من تلميذ مبتدئ بالتهجئة بالنسبة إلى عالم يكتب الكتاب ويقصد القصيد.

فالأمة العربية إذا أرادت النهوض العقلي والعملي يجب عليها أن تأخذ من كل علم بالسهم الأوفر ولا يتم لها ذلك إلا بالنقل عن الأمم الغربية، وهذا لا يتأتى إلا بعد أن تخرج مدارسنا الألوف من الطلبة المتعلمين على الأساليب الحديثة لينشأ لنا منهم عشرات يكونون لنا عوناً على ما ينقصنا من أسباب نهضتنا وما تشدد حاجتنا إليه. ويكاد ذلك إلى الآن يعدّ مفقوداً بيننا، اللهم إلا طائفة من أسفار نقلها بعض المولعين بالعربية وما تيسر للمجلات تعريبه من حين إلى آخر من علوم الغرب. وكله دون حدّ الكفاية بكثير. قال ابن رشد في فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال:

(إذا تقرّر أنه يجب بالشرع النظر في القياس الفقهي فبين أنه أن كان لم يتقدم أحد من قبلنا بفحص عن القياس العقلي وأنواعه أنه يجب علينا أن نبتدئ بالفحص عنه وأن يستعين في ذلك المتقدم بالتأخر، حتى تكمل المعرفة فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقاء نفسه وابتداء على جميع ما يحتاج إليه من معرفة أنواع القياس الفقهي بل معرفة القياس العقلي أخرى بذلك. وإن كان غيرنا قد فحص عن ذلك فبين أنه يجب علينا أن نستعين عل ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك،

وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة فإن آراءه التي تصح بها التذكية ليس يعتبر في صحة التذكية بها كونه آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة. وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام).

(وإذا كان الأمر هكذا وكان كل ما يحتاج إليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك فإن كان كله صواباً قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه. فإذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التي بها يقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالة الصنعة فيها فإن من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب أن نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية، ونبين أيضاً أن هذا الغرض إنما يتم لنا في الموجودات بتدأول الفحص عنها واحداً بعد واحد وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ما عرض في علوم التعاليم. فإنه لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير الأجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك مثل أن يعرف قدر الشمس من الأرض وغير ذلك من مقادير الكواكب ولو كان أذكى الناس طبعاً إلا بوحى أو شيء يشبه الوحي بل لو قيل أن الشمس أعظم من الأرض بنحو 150 ضعفاً أو ستين يعد هذا القول جنوناً من قائله.

وهذا شيء قد قام عليه البرهان في علم الهيئة قياماً لا يشك فيه من هو من أصحاب هذا العلم (قال وهذا أمر بين بنفسه ليس في الصنائع العلمية

فقط وفي العملية فإنه ليس منها صناعة يقدر أن ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة. وإذا كان هكذا فقد يجب علينا أن ألقينا لمن تقدّمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذّرنا منه وعذرناهم).

هذا ما قاله الفيلسوف الإسلامي في عصر كان العرب أساتذة العلم في العالم وقوله كما رأيت غاية غايات الحكمة. وما الغربيون الآن بالنسبة إلينا إلا قدماء متقدمون وبهديهم يجب علينا أن نهتدي في العلوم. وهذا لا يقدر فيما خلفه لنا أسلافنا من آثارهم أيام استبحار عمرانهم واتساع سلطانهم. أما اللغات الحديثة التي تشتد حاجتنا إلى الأخذ منها فهي الإنكليزية والإفريقية والألمانية. وفي كل لغة من هذه اللغات من أنواع المعارف ما لا يكاد يحلم به من لا يعرف لغاتهم.

وليت شعري إذا كان بعض أهل الغرب والعلوم قد بلغت عندهم ما علمت من الإرتقاء الغريب يتعلمون لغات الشرق لينقلوا منها إلى لغاتهم بعض الكتب التاريخية والأدبية والأخلاقية والشرعية ويستعينوا بها على قراءة آثاره وما زبر على أحجاره، أفلسنا نحن أحرى بأن نتعلم لغاتهم على فقرنا الثابت ونقتبس منهم ما يعوزنا من علوم البشر؟

إلا أن ما نفاخر به من علم أسلافنا وحضارتهم العظيمة إنما قام بإحيائهم مدنية من قبلهم من الأمم كالروم والفرس وغيرهم ولم يتأت لهم ذلك إلا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها، فكانوا بذلك أحسن صلة وعائد بين أمم الحضارة السالفة والأمم الأوروبية الخالفة. فحضارة

الإسلام إن أنصفنا قامت بفضل التراجمة والنقلة من اليعاقبة والإسرائيليين والمسلمين لا بأيدي علماء الكلام مثلاً وقد كان على يد هؤلاء التشتيت وعلى يد أولئك الجمع وشتان بين المفروق والمجمّع.

وليس معنى هذا أنكار فضل من تمخّصوا لخدمة الشريعة واللغة في القرون الأولى للإسلام، وما في الناظرين من يقول بأن الخليل والجاحظ والغزالي والماوردي هم في حسن بلائهم في خدمة هذه الأمة دون أبي الريحان البيروني ونصير الدين الطوسي وحنين بن اسحق وثابت بن قرة. وما كان قطّ أهل الفريق الأول يحتقرون علم الفريق الثاني ولا العكس لما وقرّ في النفوس من أنّ المجتمع لا يقوم على أمتن الدعائم إلا إذا أتقن كلّ ذي علم عمله. قال الجاحظ: (الإنسان وإن أضيف إلى الكمال وعرف بالبلاغة وفاتش العلماء فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة أيام الدنيا ولو استمدّ بكل نظار عظيم واستعان بكل بحاث وإع وكل نقّاب في البلاد ودارسة للكتب، وما أشك أن عند الوزراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء، وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء، وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء، وما عند الله عزّ وجلّ أكثر والخلق في بلوغه أعجز وإنما علّم الله كل طبقة من خلقه بقدر احتمال فطرهم ومقدار مصلحتهم).

وقال الراغب الأصفهاني في الذريعة: العلم طريق إلى الله تعالى ذو منازل قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو فمن منازل معرفة اللغة التي عليها بُنيَ الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الأخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائط ومعرفة أصول البراهين

والأدلة ولهذا قال (هم درجات عند الله) وقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وكل واحد من هؤلاء الحفظة إذا عرف مقدار نفسه ومنزلته في حق ما هو بصده فهو في جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثواباً على قدر علمه. لكن قلما ينفك كل منزل منها من شرير في ذاته وشره في مكسبه وطالب لرياسته وجاهل معجب بنفسه بصير لأجل تنفيق سلعته صارفاً عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم وعائلاً له فلهذا ترى كثيراً ممن حصّل في منزلة من منازل العلم دون الغاية عائلاً لما فوقه وصارفاً عمن رame فإن قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل أو ينفّر الناس عنه فعل.

وإن ما في عبارة هذين الحبرين ليذكر بما يجب للمجتمع من مراعاة مبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي وقد قال أحد كبار شيوخ العلم من المعاصرين إن مما يؤخر الشرق في العلم عدم مراعاة أبنائه لمبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي ففيه من يحسن التفصيل كما فيه من يحسن الخياطة وليس بينهما من يضم أعمال الفئة الأولى للثانية لينتفع بها المجتمع حق الانتفاع. ومثل لذلك بمن نقلوا لنا العلوم على عهد الحضارة الإسلامية الأولى فقال إنه كان يندر أن يجمع المترجم بين معرفة العلم الذي يترجمه واللغتين اللتين ينقل منهما فمن كان يجيد السريانية لا يحسن العربية إلا أنه كان يترجم ما يفهم بعبارة ركيكة أو عامية فيجئ المصححون يصلحون العبارة على الأسلوب العربي فتجئ معرباتهم من أصح ما يكون لفظاً ومعنى. وعلى هذا درج ديوان الترجمة في الدولة العلوية الخديوية في القرن الثالث عشر في مصر فكان المترجم غير المصحح ولذلك جاء فيما نقلوه روح العربية أكثر من المصنفات التي نقلت إلى العربية حتى في هذا

القرن قال وهكذا عرفت دولة العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس
والأسرة العلوية في القاهرة أن تجمع بين من يحسن التفصيل ويحسن
الخيطة فكان من هذا الجمع ما كان كما حسن النفع من كل ما تصرف
تحت اسم علم.

إكرام الشعراء

ما ندرى متى نشأت في العرب الإجازة على الشعر في المديح. والغالب أن هذه القاعدة قديمة في أمرائهم ورؤسائهم قبل الإسلام، ولما جاء كعب بن زهير إلى الرسول عليه السلام وأنشد بين يديه قصيدته المشهورة خلج عليه خلعة سنّية. حتى إذا كان عهد الحضارة أخذ بعض الكبراء يغالون في عطاء الشعراء لما وقر في نفوسهم من تأثير أقوالهم في الناس. والشعراء يقولون كلما زدتمونا عطاءً زدناكم مديحاً وثناءً. حتى أصبح الشعراء على عهد بعض الخلفاء والملوك والأمراء أشبه بجماعة من ولاة الأمر وقوام الدولة تطلق لهم الجرايات والمشاھرات ويأخذون الجوائز والأعطيات ويرجع إليهم في المهمات ويثيرون النفوس في الملمات. وكم من ملك لولا أماديح شعرائه لكان خامل الذكر لا نسمع به إلا في الندر وكم من شاعر شرف ممدوحه بما صاغ له من عقود الثناء.

إلا أن الشعراء في هذه الأمة قد ابتدلوا في العصور المتأخرة شعرهم حتى أصبحت تستنكف من سماعه. والأمة إذا ضعفت سياستها يضعف فيها كل شيء على نسبته، فكيف يتأتى للشعراء أن يضعوا أماديحهم في محلها ومحيطهم كما رأيت من الانحطاط؟ نعم ضعفت ملكة الشعر وقلّت قيمته بقلّة أقدار الأمراء وشعرائهم حتى أصبح الشعراء والحال لم يزل لها بقية في بعض البلاد أشبه بشحاذين يستوكفون الأكف بما

ينظمون ويضعون من المعاني والألفاظ ما يعدّ غلوّاً لو أُطلق على أعظم رجل في الأرض، فما الحال بممدوحهم ولو أنصفوهم لهجوهم بدل أن يمدحوهم. نعم هزلت حالة الشعر واشمأزت نفوس المتأدبين الحقيقيين من الأماديح فأصبحوا لا يجوزون المديح حتّى على من يستحقونه وعدّوه من سخف القول وهجره.

ولقد رأينا الشعراء في القرن الرابع والخامس والسادس مثلاً يصنون الشعر عن الابتذال فكانت له قيمة عند الناس ولاسيما عند من يرجون نوالهم، فكنت ترى أبا الطيب المتنبّي لا يجوز أن يُمدح غير أرباب الدولة والزعامة وقلّ أن قال شيئاً يذكر فيمن دونهم مع أنه طالما أُريد على ذلك. وأن رجلاً استنكف بداءة بدءاً أن يمدح الصاحب بن عباد وهو في الفضل ما هو لجدير بأن يوقّر شعره والقول يشرف بشرف قائله والمقول فيه. ولو ابتذل المتنبّي شعره في عصره ومدح به كل من يعطيه لما كان له هذا الرونق والطلاوة ولما أجزل الأمراء له العطاء على ما رأينا في سيرته. فقد رأينا أبا شجاع فاتكاً يبعث إليه بألف دينار عندما هبط مصر بعد أن فارق سيف الدولة بن حمدان فلم يسعه إلا مدحه. واتصل بكافور ملك مصر فأعطاه ومدحه ثم لما أراد على أن يوليه ولاية صيدا وكان كافور وعده بولاية بعض أعماله، فلما رأى تعاليه في شعره وسموه بنفسه خافه وعوتب فيه فقال: يا قوم من ادّعى النبوة بعد محمد ﷺ أما يدّعي المملكة مع كافور فحسبكم هجاء أقبح هجو لما لم يُرضه ورحل عن مصر فبعث على أثره من يقبض عليه ولكنه كان خلص إلى بلاد أخرى. وهكذا لو استقرت أحوال الشعراء في تلك العصور لوجدت شعرهم يعلو على حسب أقدار من يمدحونهم من معاصريهم من الملوك. وكلما اقترب الشاعر من كبير كبر كما قيل جاور السعيد تسعد.

ومن أعظم الشعراء الذين اشتهروا وصار لشعرهم موقع لقربهم من الكبراء وأخذهم الجوائز على قصائدهم عمارة اليميني من أهل القرن السادس وهذا الرجل كان كالمتنبى غريباً في أطواره. كان كما قال عن نفسه من قحطان، ثم الحكم بن سعد العشيرة المذحجي من مدينة في تهامة في اليمن يقال لها مرطان من وادي وساع وبعدها من مكة في مهب الجنوب أحد عشر يوماً وكان أهلها بقية العرب في تهامة لأنهم لا يساكنهم حضري ولا يناكحونه ولا يجيزون شهادته ولا يرضون بقتله قوداً بأحد منهم، ولذلك سلكت لغتهم من الفساد وإذ كان من أهل بيت مجد وعلم انتدبه صاحب الحرمين إلى السفارة عنه والرسالة منه إلى المصرية فقدمها في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسائة والخليفة بها يومئذ الإمام الفائز بن الظاهر الفاطمي والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك فلما أحضر للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخليفة أنشدهما قصيدة أولها:

الحمْدُ للعِيسَ بَعْدَ العَزْمِ وَالْهَمَمِ	حَمْدًا يَقُومُ بِمَا أَوْلَتْ مِنَ النِّعَمِ
لَا أَجْحِدُ الْحَقَّ، عِنْدِي لِلرَّكَابِ يَدُ	تَمَنَّتِ اللَّجْمَ فِيهَا رَتْبَةَ الْخَطَمِ
قَرَّبْنَ بَعْدَ مَزَارِ الْعَزِّ مِنْ نَظَرِي	حَتَّى رَأَيْتُ إِمَامَ الْعَصْرِ مِنْ أُمِّ
وَرُحْنَ مِنْ كَعْبَةِ الْبَطْحَاءِ وَالْحَرَمِ	وَفَدًّا إِلَى كَعْبَةِ الْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ
فَهَلْ دَرَى الْبَيْتَ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ	مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمِ
حَيْثُ الْخِلَافَةُ مُضْرُوبٌ سُرَادُفُهَا	بَيْنَ التَّقِيضَيْنِ مِنْ عَفْوٍ وَمِنْ نَقَمِ
وَلِلْإِمَامَةِ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ	تَجْلُو الْبَغِيضِينَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمِ
وَلِلنَّبُوءَةِ آيَاتٌ تُنَصِّ لَنَا	عَلَى الْخَفِيِّينَ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حِكَمِ
وَلِلْمَكَارِمِ أَعْلَامٌ تَعْلَمُنَا	مَدَحَ الْجَزِيلِينَ مِنْ بَأْسٍ وَمِنْ كَرَمِ
وَلِلْعُلَا أَلْسُنٌ تُثْنِي مُحَامِدَهَا	عَلَى الْحَمِيدِينَ مِنْ فِعْلٍ وَمِنْ شِيمِ

إلى آخر ما مدح به الخليفة ووزيره فأفيضت عليه الخلع المذهبة وأعطي خمسمائة دينار من مال الخليفة وأخرج له مثلها من عند السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ وأطلقت له من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد من قبله وتهاداه أمراء الدولة على منازلهم للولائم واثالث عليه صلوات الخليفة فمن بعده من الوزراء وكبار عمّاله وقضى في مصر تسع عشرة سنة والدولة الفاطمية في أواخر أيامها تضعف وتقوى وتسفل وتعلو، وكلما مدح كبيراً نال جزيلاً وجميع شعره وفيه المعاني الجيدة المصورة أحسن تصوير يدور على غرض مديح الكبراء وأغراض من السياسة تقتضيها حال من يدخل في غمارها.

جاء عمارة سفيراً إلى ملك مصر فطاب له المقام فيها وأوسع أرباب السلطان برّاً لا على أنه شاعر يطلب الجوائز، بل على أنه سياسي له ضلع في أحوال اليمن والحجاز وقد كان الفاطميون على عهده يملكون الحجاز وتطمح نفوسهم إلى امتلاك اليمن. فحريّ بمن كان مثل عمارة أن يؤمل منه أن يسهّل لهم أسباب فتحها ولذلك انهالت عليه الصلوات أيّ انهيار وعاش عيشة أمير لا عيشة شاعر. ذكر ذلك في كتاب النكت العصرية وكثيراً ما يذكر مقدار ما تجود به عليه أيدي الأمراء من الأرزاق والأموال حتى صار إذا تأخروا عنه حفّزهم بنابل من شعره فيعودون إلى ما عودوه عليه. قال عمارة في مدح شاور وزير الفاطميين:

حمي الوطيس فخاضه بعزائم	علّم حسن الصبر من لم يصبر
ضجر الحديد من الحديد وشاور	في نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله	حنث يمينك يا زمان فكفر
يا فاتحاً شرق البلاد وغربها	يُهنئك أنك وارث الاسكندر

قال وكانت هذه الأبيات من أحد السباب التي قوّت عزمي على الاستغناء عن عمل الشعر لأن الناس فيما تقدم كانوا يغنون الشعراء بما ليس فوقها في الجودة إلى أن يقول: ورأيت (شاور) يوماً وقد انشرح صدره فقلت له أن لي مدة تنازعني النفس في الحديث معك في حاجة وقد عزمت أن أقولها لك فإن قضيتها وإلا كنت قد أبليت عن نفسي عذراً قال: وما هي؟ قلت: تعفيني من عمل الشعر وتنقل الجاري على الخدمة راتباً على حكم الضيافة فإنني أرى التكسب بالشعر والتظاهر به نقيصة في حقي قال: ما منعك أن تستعفي في أيام الصالح وابنه قلت: كانت لي أسوه وسلوة بالشيخ الجليس ابن الحباب وبابني الزبير الرشيد والمهذب وقد انقرض الجيل والنظراء. قال: تعفى ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائي وأخذ عليه خط الخليفة وخطه بذلك.

وبهذا عرفت أن أخلاق عمارة كانت لأول أمرها تأبى الدخول في زمرة الشعراء والارتزاق من طريق الشعر ولكن عاد يتناول الجوائز من الخليفة فمن دونه من أرباب الدولة إلا أنه لم يكن في أخلاقه كالشعراء في العادة، بل كان كثيراً ما ينصح للعظماء من الفواطم ولا يخاف بأسهم وسطوتهم قال: ولما عاد (شاور) من حصار الإسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق وكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ثم تُسحب القتلى إلى خارج الدار فسألني الجماعة أن أعمل قصيدة في هذا المعنى فقلت:

ألا إن حدّ السيف لم يُبق خاطراً من الناس إلا حائراً يتردّد
ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلحٌ على نفسه أضعاف ما خاف مفسدٌ
فأغمد شفار المشرفي وعُد بنا إلى عادة الإحسان وهي التغمّد

تجاوزَ وإلا فالمقطم صخرة يذوب وماء النيل لا شك يجمدُ
وإن صليل السيف أفحش نغمة تظل تُغني في الطلى وتغرّدُ
تجاوزَ وإلا فالمقطم خيفةً يذوب وماء النيل لا شك يجمدُ

ومع ما كان يقرّع به رجال الفاطميين ويخوفهم من ارتكاب الظلم كانوا يرتاحون إليه هذا وهو سنّي قح وهم شيعة محض حتى أراد به بعض أمرائهم وهو الصالح بن زريق أن يعود متشيعاً ويأخذ منه ثلاثة آلاف دينار فأبى.

ولطالما كانوا يطلقون له الرواتب ويخلعون عليه الخلع ويرسلون إليه ياردبات من الحنطة والشعير وأباليج من السكر ودكاكيج كبار من الزيت الطيب وخرفان رضع سمان وله قصائد ومقطوعات يصحّ أن تُدرج في باب الشعر الاجتماعي لما فيها من المعاني الغريبة ففما قاله في مدح شمس الدولة:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم وشفرة السيف تستغني عن القلم
وخير خليك إن غامرت في شرف عزم يفرق بين الساق والقدم
إن المعالي عروس غير واصلّة إن لم تخلق ردائها بنضح دم
ترى مسامع فخر الدين تسمع ما أملاه خاطر أفكار على قلبي
فإن أصبت فلي حظ المصيب وإن أخطأت قصدك فاعذرني ولا تلم
ومنها:

لا يدرك المجد إلا كل مقتحم في موج ملتطم أو فوج مضطرم
لا ينقض الخطرة الأولى بثانية ولا يفكر في العقبي من الندم
كأنما السيف أفتاه وقال له في فتح مكة حلّ القتل في الحرّم
فما تروم سوى فتح صوارمه يضحكن في كل يوم عابس البهم
حتى كأن لسان السيف في يده يروي الشريعة عن عاد وعن إرم

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
وقد ترقى إلى أن صار طالعه
وكان أول هذا الدين من رجل
والغيث وهو كما قد قيل أوله
والبدر يبدو هلالاً ثم يكشف بال
تنمو قوى الشيء بالتدرج إن رزقت
حاسب ضميرك عن رأي أذاك وقل
وقال في قصيدة:

هل القلب إلا بضعة يتقلبُ
أم النفسُ إلا وهدة مطمئنة
فلا تُلزمنَّ الناس غير طباعهم
فإنك إن كشفتهم ربما انجلى
فتاركهم ما تاركوك فإنهم
ولا تغترر منهم بحسن بشاشة
واصغ إلى ما قلته تنتفع به
فما تنكر الأيام معرفتي بها
وإنني لأقوام جُذيلٌ محكك
عليم بما يرضي المروءة والتقى
حلبت أفويق الزمان براحة
وصاحبت هذا الدهر حتى لقد غدتُ
ودوخت أقطار البلاد كأنني
وعاشرت أقواماً يزيدون كثرةً

فيما يقول الورى لهماً على وضم
من الكواكب بالأنفاس والكظم
سعى إلى أن يدعو سيد الأمم
قَطْرٌ ومنه خراب السد بالعرم
أنوار ما سترته شملة الظلم
لطفاً ويقوى شرار الزند بالضرم
نصيحة ورَدَت من غير متهم

له خاطر يرضى مراراً ويغضبُ
تفيض شعاب الهَم منها وتنضبُ
فتتعبُ من طول العتاب ويتعبوا
رمادهم عن جمرة تتلهَّبُ
إلى الشرِّ مذ كانوا من الخير أقربُ
فأكثر إيماض البوارض خلَّبُ
ولا تطرح نصحي فإنني مجرَّبُ
ولا إنني أدرى بهنَّ وأدربُ
وإنني لأقوام عذيق مُرَجَّبُ
خبيرٌ بما آتي وما أتجنبُ
تدرَّب بها أخلافه حين تُحلبُ
عجائبه من خبرتي تتعجبُ
إلى الريح أُعزى أو إلى الخضر أنسبُ
على الألف أو عدَّ الحِصا حين يُحسبُ

فما راقني في ارضهم قَطَّ مرتعُ
تراني وإياهم فريقين كلنا
فعندهم دنيا وعندي فضيلةُ
على أن ما عندي يدوم بقاءه
أناسُ مضى صدرٌ من العمر عندهم
رجوت بهم نيل الغنى فوجدتهُ
وكسل عزم المدح بعد نشاطه
كأن القوافي حين تدعى لشكرهم
أفوه بحق كلما رمت ذمهم
وأصدق الا أن أريد مديحهم
ولو علموا صدق المدائح فيهم

وله في الوصف أشعار منها قصيدة يذكر فيها حريق منظره بدر بن
رزيك على الخليج ويذكر داره الأخرى وما فيها من الستور وتساويرها
ومقاطعها قال فيها:

لم تحترق دار الخليج وإنما
طلبت يفاع الأرض دون وهادها
أو هل تزور النار ساحة جنة
أنشأت فيها للعيون بدائعاً
فمن الرخام مسيراً ومسهماً
والعاج بين الأبنوس كأنه
قد كان منظرها بهياً رائعاً
وكذاك جيد الظبي يحسن عاطلاً

شبت لمن يسري بها نار القرى
فتوقدت في رأس شامخة الذرى
أجريتَ فيها من نداء الكوثر
زقت فأذهل حسنها من أبصر
ومنمنماً ومدرهماً ومدنراً
أرضٌ من الكافور تُنبتُ عنبراً
فجعلتها بالوشى أبهى منظراً
ويروكك البيت الحرام مستراً

أَلْبَسَتْهَا بِيضَ السُّتُورِ وَحُمَرَهَا
فَمَجَالَسَ كُسَيْتٍ رَقِيمًا أَيْضًا
لَمْ يَبْقَ نَوْعٌ صَامِتٌ أَوْ نَاطِقٌ
فِيهَا حَدَائِقُ لَمْ تَجِدْهَا دِيمَةً
وَالطَّيْرَ مَذْ وَقَعَتْ عَلَى أَغْصَانِهَا
لَا تَعْدُمُ الْأَبْصَارُ بَيْنَ مَرُوجِهَا
أَنْسَتْ نَوَافِرَ وَحْشِهَا بِسَبَاعِهَا
وَبِهَازِ رَافِئَاتِ كَأَنَّ رِقَابَهَا
نَوْبِيَّةُ الْمَنْشِيِّ تَرِيكَ مِنَ الْمَهَا
جَبَلَتْ عَلَى الْإِقْعَاءِ مِنْ أَعْجَابِهَا

دَارَتْ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا وَكُتِبَ لِصَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ أَنْ يَقْلِبَ الدَّوْلَةَ
الْفَاطِمِيَّةَ وَيُدِيلَ مِنْهَا الْأَمْرَ لِلْعَبَّاسِيَّةِ فَأَصْبَحَ شَاعِرُنَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَطَايَا
الْفَاطِمِيِّينَ تَغْدُقُ عَلَيْهِ إِغْدَاقًا مَقْتَرًّا عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ يَسْأَلُ فَلَا يُجَابُ وَيَهْزُ
الْأَكْفَفُ فَلَا تَنْدَى وَيَعْرِضُ حَالَهُ وَيَعْرِضُ بَنَوَالَهُ فَلَا يُؤْبَهُ لَهُ وَبَقِيَ أَشْهُرًا عَلَى
هَذِهِ الْحَالِ وَقَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهُ النِّعَمُ السَّالِفَةُ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ أَهْلَ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ
فِي مِصْرَ مِنْ يَعْوِضُهُ عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ يَتَنَاوَلُهُ فَصَارَ إِلَى الْحُورِ بَعْدَ الْكُورِ
وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ زَوَالِ النِّعَمِ. فَكُتِبَ إِلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ
قَصِيدَةً لَمْ يَنْشُدْهَا وَقَدْ تَرَجَمَهَا بِشَكَايَةِ الْمُتَظَلِّمِ وَنَكَايَةِ الْمُتَأَلِّمِ وَهِيَ تَعْرِبُ
عَمَّا لَقِيَ مِنَ الْأَلَاقِي وَالشَّدَائِدِ قَالَ:

أَيَا أَذْنَ الْأَيَّامِ إِنْ قُلْتَ فَاسْمِعِي
وَعِي كُلِّ صَوْتٍ تَسْمَعِينَ نِدَاءَهُ
تَقَاصِرُ بِي خُطْبِ الزَّمَانِ وَبَاعُهُ
لِنَفْسَةٍ مُصْدُورٍ وَأَنَّةٍ مُوجِعِ
فَلَا خَيْرَ فِي أَذُنٍ تَنَادِي فَلَا تَعِي
فَقَصْرَ عَنْ ذُرْعِي وَقَصْرَ أَذْرُعِي

وأخرجني من موضع كنت أهله
بسيف ابن مهدي وأبناء فاتك
فيتمت مصرأأطلب الجاه والغنى
وزرت ملوك النيل إذ واد نيلهم
وفزت بألف من عطية فائز
وكم طرقتني من يد عاضدية
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى
وأوحى إلى سمعي ودائع شعره
وليست أيادي شاور بذيمة
ملوك رعوا لي حرمة صار نبتها
وردت بهم شمس العطايا لوفدهم
مذاهبهم في الجود مذهب سنة
فقل لصالح الدين والعدل شأنه
سكت فقالت ناطقات ضرورتي
فادللت إدلال المحب وقلت ما
وعندي من الآداب ما لو شرحته
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر
أعلل غلماني وخيلي ونسوتي
ونوابكم للوفد في كل بلدة
وكم من ضيوف الباب ممن لسانه
مشارع من نعمائكم زرتها وقد
وضايقتني أهل الديون فلم يكن

وأزلني بالجود في غير موضعي
أقض من الأوطان جنبي ومضجعي
فثلتهما في ظل عيش ممنع
فأحمد مرتادي وأخصب مرتعي
مواهبه للصنع لا للتصنع
سرت بين يقظي من عيون وهجع
بما زاد عن مرمي رجائي ومطمعي
لخبرته مني بأكرم مودع
ولا عهدا عندي بعهد مضيع
هشيماً رعته النائبات وما رعي
كما قال قوم في على وتوسع
وإن خالفوني في اعتقاد التشيع
من الحكم المصغي إلي فادعي
إذا حلقات الباب علقن فاقرعي
أبالي بعفو الطبع لا بالتطبع
تيقنت أني قدوة ابن المقفع
أقول لصدري كلما ضاق وسع
بما صغت من عذر ضعيف مرقع
تفرق شمل النائل المتوزع
إذا قطعوه لا يقوم بإصبع
تكرر بالاسكندرية شرعي
سوى بابكم منه ملاذي ومفزع

فريقي ضياع من عرايا وجوِّع
 جوابك فالباري يُجيب إذا دُعي
 رجعنا بها نحو الجنب المرجع
 إلى أن عدمنا بلغة المتقنع
 أتيناك نشكو غصّة المتوجّع
 فمنه طرازي بل لثامي وبرقي
 أجلّ شفيع عند أعلى مشفع
 بضرب صقيلات ولا طعن شرّع
 بمصر ولا ريح الشّام بزعرع
 أصارع عن ديني وإن حان مصرعي
 رضاك عن الدنيا بما فعلت معي
 وحالي بمرأى من علاك ومسمع
 إلّي التفات المنعم المتبرّع
 فتحت لهم باب العطاء الموسع
 عصفن على ديني ولم أترزع
 بعيني ولم أحفل ولم أتطلع
 هو النظم إلا أنه نظم مبدع
 وإن سمتني نثراً ظفرت بمصقع
 غنيّ عن أفانين الكلام المصنّع
 وألزمته كارهأ غير طيّع
 تقرّر من أزمان كسرى وتُبّع
 لتعلّم نبعي إن عجمت وخروعي

فيا راعي الإسلام كيف تركته
 دعوناك من قرب ومن وبعد فهب لنا
 إلى الله أشكو من ليالي ضرورة
 قنعنا ولم نسألك صبراً وعفة
 ولما أغصّ الريق مجرى حلوقنا
 فإن كنت ترى الناس للفقّه وحده
 ألم ترعني للشافعي وأنتم
 ونصري له في حيث لا أنت ناصر
 ليالي لا فقّه العراق بسجسج
 كأني بها من أهل فرعون مؤمن
 أمن حسنات الدهر أم سيئاته
 ملكت عنان النصر ثم خذلتني
 فحالك لم توسع عليّ وتلتفت
 فإما لأنّي لست دون معاشر
 وإما لما أوضحته من زعازع
 وردي ألوف المال لم ألتفت لها
 وإما لفنّ واحد من معارفي
 فإن سمتني نظماً ظفرت بمغلق
 طباع وفي المطبوع من خطراته
 سألتك في دين لياليك سُقنه
 وهاجرت أرجو منك إطلاق راتب
 وليتك فيمن أطلق الشرق مطلعني

وما أنا إلا قائم السيف لم يعن
وياقوتة في سلك عقد مداره
وكم مات نضناض اللسان من الظما
فيا واصل الأرزاق كيف تركتني
أعندك أني كلما عطس امرؤ
ظلامه مصدوع الفؤاد فهل له
وأقسم لو قالت لياليك للدجى
غدا الأمر في إيصال رزقي وقطعه
كذلك أقدار الرجال وإن غدت
فيا زارع الإسلام في كل تربة
فعندي إذ ما العرف ضاع غريبه
وقد صدرت في طيّ ذا النظم رقعة
أريد بها إطلاق ديني وراتبي
وبيني وبين الجاه والعز والغنى
وما هي إلا مدة نستمدّها
إلى هاهنا أنهي حديثي وأنتهي
فإنك أهل الجود والبر والتقى

بكفٍ ودرّ لم يجد من مرصع
على خرزات من عقيق مجزّع
وكم شرقت بالماء أشداق الكع
أمدّ إلى نيل المنى كفّ أقطع
بذي شمم أقتى عطست بأجدع
سبيلٌ إلى جبر الفؤاد المصدّع
أعد غارب الجوزاء قال لها اطلعي
بحكمك فابذل كيف ما شئت وامنع
بحكمك فاحفظ كيف شئت وضيع
ظفرت بأرض تنبت الشكر فازرع
ثناء كعرف المسكة المتضوّع
غدا طمعي فيها إلى خير مطعمي
فأطلقهما والأمر منك ووقع
وقائع أخشائها إذا لم توقع
وقد فجت الأرزاق من كل منبع
وما شئت في حقي من الخير فاصنع
ووضع الأيادي البيض في كل موضع

هذا ما قاله عمارة لما ضاقت عليه الدنيا والغالب أنه في تلك الحال
نظم قصيدته المشهورة يرثي بها الفاطميين ويعرّض بصلاح الدين التي
يقول في مطلعها:

رمى الدهر كف المجد بالشللٍ وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
وفي ذاك الحين أخذ يدبر مكيدة على صلاح الدين يريد وجماعة من

رجال الفاطميين الوثوب به واتفق رأيهم كما قال ابن الأثير على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد فإذا قصدوا البلاد فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الإفرنج، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ثاروا به وأخذوه أخذاً باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة: وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وارسلوا إلى الفرنج وصقلية والساحل في ذلك وتقررت القاعدة بينهم، ولم يبق إلا رحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بابن بحية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة. إلا أن بني رزيك قالوا يكون الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا، فلم علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الأمر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون يفعلونه وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه. ثم وصل رسول ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر إليه والباطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول من يثق به من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة ومنهم عمارة.

وذكر صاحب الكامل أنه كان بين عمارة والقاضي الفاضل عداوة

من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضي الفاضل
وخاطب صلاح الدين في إطلاقه وظن عمارة أنه يحرضه على هلاكه فقال
لصلاح الدين: يا مولانا لا تسمع منه في حقي فغضب الفاضل وخرج وقال
صلاح الدين لعمارة: إنه كان يشفع فيك فندم ثم أخرج عمارة ليصلب
فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم
يجتمع به فقال عمارة:

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص هو العجب

الحماسة البصرية

تقدّم أبو تمام الطائي فيما نحسب غيره من زعماء القريض وحملة رايات الأدب فجمع ما وقع اختياره عليه من شعر العرب العرباء وسماه (الحماسة) وحذا حذوه غيره في ضمّ شتيت شعر العرب ولكلّ اختياره ومنهم الشيخ أبو الحسن صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ألف حماسته برسم الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز بن الملك الظاهر سنة 647 هجرية وسمّاها الحماسة البصرية.

قال في مقدمته: توخيتُ في تحرير مجموع محتوٍ على قلائد أشعارهم (العرب) وغُرر أخبارهم مجتنباً للإطالة والإطناب بما تضمنته أبواب الكتاب كأمالِي العلماء وحماسات الأدباء ودواوين الشعراء من فحول المحدثين وجواهر الكلام. غير أنّهم قد نسبوا فيها أشياء إلى غير قائلها ولم يقيّدوا الكتاب بترجمة أبواب فغدت فرائده متبددة الانتظام مستصعبة على الحفظ والإفهام، فجاء مشتتلاً على غرائب البديع وملح التصريف والترصيع. ثم أن الشعر على اختلاف معانيه وأصوله ومبانيه ينقسم إلى نعوت وأوصاف، فما وُصف به الإنسان من الشجاعة والشدة في الحرب والصبر في مواطنها يسمّى حماسة وبسالة، وما وُصف به من حسَب وكرم وطيب محتد سَمِي مدحاً وتقريضاً وفخراً، وما أُنِي عليه بشيء من ذلك ميتاً يسمّى رثاءً وتأبيناً، وما وُصف به أخلاقه المحمودة من حياء وعفة

وإغضاءً عن الفحشاء ومسامحة الأخلاء سَمِيَ أدباً، وما وصف به النساء من حسن وجمال وغرام بهن سَمِيَ غزلاً ونسيباً، وما وصف به من إيقاد النيران ونباح الكلاب سَمِيَ قرى وضيافة، وما وصف به من بخل وجبن وسوء خلق ونميمة سَمِيَ هجاءً، وما وصفت به الأشياء على اختلاف أجناسها وأنواعها سَمِيَ نعتاً ووصفاً وملحاً، وما ذكر به الإنابة إلى الله تعالى ورفض الدنيا سَمِيَ زهداً وعِظَةً. وهاك نموذجات منه قال رجل من لحم يحترض الأسود اللخمي وذلك أنه كانت حرب بين ملوك غسان وملوك العراق وهم لحم فظفر الغسانيون باللخمين وقتلوا جماعة منهم ثم في آخر السنة التقوا في ذلك الموضع وكان قد جمع اللخميون جمعاً عظيماً فظفروا بالغسانيين وأسروا منهم جماعة وأراد ملكهم ابن المنذر الأسود البقاء عليهم فقام رجل من قومه وكان قد قتل له أخ يحرضه على قتلهم فقال:

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا	ولا يسوغه المقدار ما وهبا
وأحزمُ الناس من أن نال فرصتهُ	لم يجعل السبب الموصول مقتضبا
وأنصف الناس في كل المواطن من	سقا المعادين بالكأس الذي شربا

ومنها:

لا تقطعنّ ذنب الأفعى وترسلها	إن كنت شهماً فالحق رأسها الذنبا
------------------------------	---------------------------------

ومنها:

هم أهلة غسان ومجدهمُ	عال فإن حاولوا مُلكاً فلا عجا
وعرضوا بفداء واصفين لنا	خيلاً وإبلاً تروق العجم والعربا
أيحلبون دماً منا ونحلبهم	رسلاً لقد شرفونا في الورى حلبا

تهذيب الكلام

قال زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المشهور بابن أبي الإصبع المتوفى سنة 654 في كتابه تحرير التحرير الذي فرغ من تعليقه بمصر في مستهل سنة أربعين وستمائة وهو من أجمل كتب البديع ومن أهم مخطوطات دار الكتب المصرية في باب التهذيب والتأديب: التهذيب عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله لينقح ويتنبه منه لما مرَّ على الناثر أو الشاعر حين يكون مستغرق الفكر في العمل فيغيّر منه ما يجب تغييره ويحذف ما ينبغي حذفه ويصلح ما يتعين إصلاحه ويكشف عما يُشكل عليه من غريبه وإعراجه ويحرّر ما لم يتحرر من معانيه وألفاظه حتى تتكامل صحته وتروق بهجته.

فإن رُزقَ من أرباب البلاغة وأصحاب الفصاحة جودة ذهن وغوص فكر وكمال عقل واعتدال مزاج وحسن اختيار ووقف على أقوال النقاد في حقيقة لا بلاغة وكنه الفصاحة وما عُددَ من محاسن الكلام وعيوبه ووُقي شحّ نفسه بحيث يطرح ما لا يقدر على تغييره من كلامه كان كلامه موصوفاً بالمهذب منعوتاً بالمنقح وإن قلَّ ابتكاره للمعاني. وقد كان زهيراً معروفاً بالتنقيح فإنه يروى أنه كان يعمل القصيدة في شهر وينقحها في أحد عشر شهراً حتى سمّي شعره الحوليّ المحلّي ولا جرم أنه قلّما سقط منه شيء ولهذا أشار أبو تمام بقوله:

خذها ابنه الفكر المهذب في الدجى والليل أسود رقعة الجلباب
فإنه إنما خصّ بتهذيب الفكر في الدجى لون الليل لأنه تهدأ فيه
الأصوات وتسكن الحركات فيكون الفكر فيه مجتمعاً والخاطر خالياً
ولا سيما في وسط الليل عندما تأخذ النفس حظها من راحة وتنال قسطها
من النوم ويخف عليها ثقل الغذاء، فحينئذ يكون الذهن صحيحاً والصدر
منشراحاً والقلب منبسطاً. واختياره وسط الليل دون السحر مع ما فيه من
رقّة الهواء وخفة الغذاء وأخذ النفس سهماً من الراحة لما يكون في السحر
من انتباه أكثر الحيوان الناطق والبهيم وارتفاع معظم الأصوات وجرس
الحركات وتقشع الظلماء بطلائع الضوء وبيعض ذلك يتقسم الفكر
ويتذبذب الخاطر ويشغل القلب ويتفرق مجتمع الهمّ ووسط الليل خال
عما ذكرناه ولهذا خصّ أبو تمام تهذب الفكر بالدجى عادلاً عن الطرفين
لما فيهما من الشواغل.

قال وكنت قد اطلعت على وصية وصّى بها أبو تمام أبا عبادة البحتري
في عمل الشعر. كان أبو تمام ارتجلها فجاءت محتاجة إلى تحرير بعض
معانيها وإيضاح ما أشكل منها وزيادات يفتقر إليها فحررت منها ما
يجب تحريره وأضفت إليها ما يتعين إضافته وذكرتها في كتابي المنعوت
بالميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومه. وعلمت أن هذا الباب
من هذا الكتاب أحوج إليها من ذلك فأثبتها هنا بعد أن رأيت تقديم
مقدمة يُحتاج إليها ويجب الاعتماد عليها، وهي أن الذي يجب على كل
من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يعتبر أولاً نفسه ويمتحنها
بالنظر في المعاني وتدقيق الفكر في استنباط المخترعات إذا وجد لها
فطرة سليمة وجبة موزونة وذكاء وقادراً سمحاً وفكراً ثاقباً وفهماً سريعاً

وبصيرة مبصرة وألمعية مهذبة وقوة حافظة وقدرة حاكية وهمة عالية ولهجة فصيحة وفطنة صحيحة.

ولو كانت بعض هذه الأوصاف غير لازمة لربّ الإنشاء ولا يضطر إليها أكثر الشعراء، لكنها إذا أكملت الشاعر والكاتب كان موصوفاً في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفسية التي إذا أضيفت لها الصفات الدراسية تكمل وتكمل من حفظ اللغات العربية وتوابعها من العلوم الأدبية كالنحو والتصريف والعروض والقوافي وما سُمح به الشعراء من الضرورات التي يُلجئ إليها ضيق الوزن والتزام التقفية ليعلم بما يجوز له استعماله وما يجب عليه إهماله، ولينعم النظر في كتب البلاغة ليعرف محاسن اللفظ مفرداً وتركيباً ومعانيه ويحيط بما يتفرع من أصول النقد في البديع الذي هو رقوم الكلام ونتائج مقدمات الإفهام.

وليجعل عمدته على كتاب الله العزيز وليميز إعجازه أدق تمييز فإنه البحر الذي لا تنفى عجائبه ولا يظمأ فيه راكمه. منه استخرجت درر المحاسن واستنبطت عيون المعاني وعُرف كنه البلاغة وتَحَقَّق سر الفصاحة وكذلك سنة الرسول عليه السلام. وليحفظ أشعار العرب وأمثالها وأنسابها وأيامها وسائر أخبارها ومحاسن آثارها ومقاتل فرسانها الأنجاد ونوادر سمحائها الأجواد ولا غنى به عن معرفة النجوم والأنواء وعلم هيئة السماء وتعقل الآثار العلوية والحوادث الرضية والمشاركة في الطب والطبائع والحساب وما يحتاج إليه الكتاب من الفقه والحديث ونقل التاريخ الصحيح. ويكون ذلك المكتسب من وراء أشياء لا تكتسب ولا تحصل بالطلب بل هي مما يجبل عليه الإنسان من مواهب الرحمن من عقل راجح وذهن صافٍ ورأي سديد ينتج ذلك مزاج معتدل فيحسن اختياره ويجود انتخابه، فيتخير

الألفاظ الرقيقة والمعاني الرشيقة ويتقن تأليف الكلام وتركيب الألفاظ وما بإيراد أبيات قلتهن في هذا المعنى من بأس وهي:

انتخب للقريض لفظاً رقيقاً كنسيم الرياض في الأسحار
فإذا اللفظ رقّ شَفَّ عن الـ معنى فأبداه مثل ضوء النهار
مثل ما شفت الزجاجة جسيماً فاختلفى لونها بلون العقار
هذا إن أراد أن يُنعت فاضلاً أو يسمى أديباً كاملاً فتعلو بين العلماء
درجته وتطير بين الفضلاء سمعته ويقلّ فتوره في لفظ الكلام ومعناه.
وليحذر من أن يقف خاطره بسبب معاندة الزمان وتواتر ضروب الحدثان
وتعذر المكسب وعزّ المطلب وتقدّم الجهال واختصاص الأراذل
بالأموال فيكون ذلك داعياً له إلى ترك الاشتغال وسبباً في فتور عزمه عن
تحصيل العلوم وذريعة لقعوده عن رياضة نفسه واستعمال خاطره فيلحق
بالأخسرين أعمالاً والمخطئين أفعالاً وأقوالاً. بل يكون اجتهاده في ذلك
اجتهاد راغب في الأعمال شديد الأنفة من مساواة الجهال عاشق في تركية
نفسه مايل للتقدم بنفس العلم على أبناء جنسه وما أحسن قول القائل:

تعلّم فليس المرء يولدُ عالماً وليس أخو عِلْمٍ كَمَن هو جاهلُ
وإنّ كبير العلم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافلُ
ولا بد للمجتهد من يوم يحمد فيه عاقبة اجتهاده ويحصل فيه على مراده
وإن كان قصير المهمة مهين النفس قد أوتي طبعاً في العمل سليماً وذهنًا
مستقيماً فظن أنه يستغني بذلك عن الاشتغال ويبعد عن مماثلة الجهال
إدلالاً بطبعه واتكالا على حذقه كأكثر شعراء زماننا وكتّابه المنتظمين في
سلك آدابه، حاشا من احتفل بالأدب احتفالاً أو جب لذوي الآداب الانتفاع
بهذا الكتاب فلا يأنف من عرض ما يسمح به خاطره على من يحسن الظن

بمعرفة ويتحقق أن مرتبته في العلم فوق مرتبته ولا يهمل ذلك فإن خطره عظيم وفوق كل ذي علم عليم. وإن كنت في ذلك كمن يصف الدواء ولا يستعمله ويأمر بالمعروف ولا يمتثله غير أنني أنهج الطريق وأحض على التوفيق لتحصل لي مثوبة الدلالة وأكسب أجر الهداية فإن الدال على الخير كفاعله والمحرّض على العمل كعامله. مكتبة سر من قرأ

ويعتمد الراغب في نظم الشعر وإنشاء النثر في وقت العمل على وصية الإمام أبي تمام الذي وعدت سلفاً بنشرها وهذا أوان ذكرها وهي ما أخبر به الثقة عن أبي عبادة البحري الشاعر أنه قال: كنت في حديثي أروم الشعر وكنت أرجع فيه على طبع سليم ولم أكن وقفت على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت أبا تمام وانقطعت إليه واتكلت في تعريفه عليه فكان أول ما قال لي يا أبا عبادة تعخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حصتها من الراحة وقسطها من النوم وخفّ عنها ثقل الغذاء وصفاً من أكثر الأبخرة والأدخنة جسم الهواء وسلبت الغماغم ورقّت النسائم وتغنّت الحمائم وتغنّ بالشعر فإن الغناء مضماره الذي يحسن فيه.

اجتهد في الإيضاح فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رقيقاً وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجّع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق والتعلل باستنشاق النسائم وغناء الحمائم والبروق اللامعة والنجوم الطالعة والتبرم بالعدّال والعواذل والوقوف على الطلل الماحل. وإذا أخذت في مدح سيّد ذي أياد فاشهر مناقبه واطهر مناسبه وأبن معالمه وشرف مقاومه وارهِف من عزائمه ورغب في مكارمه وتقاض المعاني واحذر المجهول

منها. وإياك أن تشوب شعرك بالعبارة الزرية والألفاظ الوحشية وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام، وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الأجسام. وإذا عارضك الضجر فأرح خاطرك ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه فإن الشهوة نعم المعين. وجملة الحال أن تعتبر لشعرك بما سلف من أشعار الماضين فما استحسنة العلماء فاقصده وما استقبحوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى.

وكنت قد جمعت فصولاً يحتاج إليها العاقل في البلاغتين والراضع في الصناعتين من عدة كتب من كتب البلاغة وصرفت منها ما لا يحتاج إليه ونقحتها وحررتها وها هي:

ينبغي لك أيها الراغب في العمل السائر فيه من أوضح السبل بأن تحصل المعنى عند الشروع في تحبير الشعر وتحرير النثر قبل اللفظ والقوافي قبل الأبيات، ولا تكره خاطر على وزن مخصوص وروي مقصود وتوخ الكلام الجزل دون الرذل والسهل دون الصعب والعذب دون المستكره والمستحسن دون المستهجن. ولا تعمل نظماً ولا نثراً عند الملل ولا تؤلف كلاماً وقت الضجر، فإن الكثير معه قليل والنفيس معه خسيس. والخواطر ينابيع إذا رفق بها جمت وإذا عُنِفَ عليها نزحت. واكتب كل معنى يسنح وقيد كل فائدة تعرض فإن نتائج الأفكار تعرض كلمعة البرق ولمعة الطرف إن لم تقيد شردت وندت وإن لم تستعطف بال تكرار عليها صددت والترنم بالشعر مما يعين عليه قال الشاعر:

تغن بالشعر أما كنت قائله إن الغناء لقول الشعر مضمار
وقد يكل الشاعر حيناً ويستعصي عليه الشعر زماناً كما روي عن

الفردق أنه قال: لقد يمر عليّ الزمن وإن قُلّع ضررس من أضراسي لأهون علي من أن أقول بيتاً واحداً فإن كان كذلك فاتركه حتى يجيئك عفواً وينقاد إليك طوعاً. وإياك وتعقيد المعاني وتعكير الألفاظ واعمل في أحب الأغراض إليك وفيما وافق طبعك والنفوس تعطي على الرغبة ما لا تعطي على الرهبة. واعمل الآيات متفرقة بحسب ما وجود بها الخاطر ثم انظمها في الآخر واحترس عند جمعها من عدم الترتيب. وتوخّ حسن النسق عند التهذيب ليكون كلامك آخذاً بعضه بأعناق بعض فهو أكمل لجنسه وأمتن لرصفه. واجعل المبدأ والمخلص والمقطع فإن ذلك أصعب ما في القصيد. واجتهد في تجويد هذه المواضع وتجنب معاريض أرباب الخواطر فيها وتعاودهم عليها وميّز في فكري محطّ الرسالة ومصبّ القصيدة قبل العمل فإن ذلك سهل عليك واستعدها أولاً ونقحها ثانياً وكرّر التنقيح وعاد و التهذيب ولا تخرجها عنك إلا بعد تدقيق النقد وإنعام النظر.

فقد كان الحطيئة يعمل القصيدة في شهرين وينقحها في شهرين اقتداء بزهير فإنه كان راويته. وقد كان زهير يعمل القصيدة في شهر واحد وينقحها في حوّل كامل حتى قيل لشعره المنقح الحوليّ أو الحوليّ المحلّى. واحذر إذا كتبت من الإسراف في الشكر فإنه إبرام يوجب للكلام ثقلًا ولا تُطل الدعاء فإنه يورث مللاً. ولا تجعل كلامك مبنياً على السجع كله فتظهر عليه الكلفة ويبين فيه أثر المشقة وتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل، بل اصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعاني واجتهد في تقويم المباني فإن جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان وإن عسر ذلك فاتركه وإن اختلفت أسجاعه وتباينت في التقفية مقاطعه، فقد كان المتقدمون لا

يحفلون بالسجع جملة ولا يقصدونه بته إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام وأنفق من غير قصد ولا اكتساب، وإن كانت كلماتهم متوازنة وألفاظهم متناسبة ومعانيهم ناصعة وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة وجمل كلامهم متماثلة. وتلك طريقة الإمام علي عليه السلام ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عثمان الجاحظ وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء.

ولا تجعل كل الكلام عالياً شريفاً ولا وضعياً نازلاً بل فصله تفصيل العقود فإن العقد إذا كان كله نفيساً لا يظهر حسن فرائده ولا يبين كمال واسطته. وانظر إلى نظم القرآن العزيز كيف جمع صفات البلاغة الثلاث ليظهر فضل كل طبقة في بابها ويبيّن مُحكم أسبابها ويعلم أن أدناها بالنسبة إليها تعلو على أعلى الطبقات من كلام البلغاء ويربي عليها فإن الكلام إذا كان منوعاً افتتنت الأسماع فيه ولم يلحق النفوس ملل من ألفاظه ومعانيه. واعلم أن الألفاظ أجساد والمعاني أرواح. فإذا قويت الألفاظ فقوّ المعاني وإذا أضعفتها فأضعفها لتوازن قوى الكلام وتتناسب في الإفهام. واقصد القوافي السهلة المستحسنة دون المستصعبة المستهجنة والأوزان المستعملة الحلوة دون المهجورة الكزة فإن الشعر كالجواد والقوافي حوافره والألفاظ صورته والمعاني سرعته والأوزان جملته.

واجعل كلامك كله كالتوقيعات وعليك بالمقطّعات فإنها في القلوب أحلى وأكمل وفي المحاسن أرشق وأجول وبالأسماع أعلّق وبالأفواه أعبق. وإذا نثرت منظوماً فغيّر قوافي شعره إلى قوافي سجعه وإذا أخذت معنى بيت من بيت فتجنّب الألفاظ جملتها ما استطعت أو معظمها وغيّر القافية والوزن وزد في معناه وانقص من لفظه واحترس مما طعن عليه به

لتكون أملك له من قائله وإذا تقربت الديار تقاربت الأفكار. ولهذا قيل
الشعر محبّة يقع فيها الخاطر على الخاطر.

واعلم أن من الناس في شعره في البديهة أبدع منه في الروية ومن هو
مجيد في رويته وليست له بديهة وقلماً يتساويان. ومنهم من إذا خاطب
أبدع وإذا كاتب قصر. ومنهم من بضد ذلك. ومن قويّ نظمه ضعف نثره
ومن قوي نثره ضعف نظمه وقلماً يتساويان. وقد يبرز الشاعر في معنى من
معاني مقاصد الشعر دون غيره ولهذا قيل أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب
وزهير إذا رغب والنابعة إذا رهب وعنترة إذا كلب والأعشى إذا طرب.

وإياك وتعقيد المعاني بسوء التركيب واستعمال اللفظ الوحشي فإن خير
الكلام ما سبق معناه القلب قبل وصول جلته إلى السمع. وليكن كلامك
سليماً من التكلف بريئاً من التعسف. وليحظ لفظك بمعناك وتشتمل عبارتك
على مغزاك. واحذر الإطالة إلا فيما تحمد فيه فإن البلاغة لمحة دالة. وقيل
سرعة جواب في صواب. وقيل أن تقول فلا تبطئ وأن تصيب فلا تخطئ.
والصحيح من حدّها أنها إيضاح المعنى بأقرب الطرق وأسهلها. والعَيّ
إكثار من مهذار وأخطاء بعد إبطاء كما جاء في في المثل سكت ألفاً ونطق
خلفاً وقدّر اللفظ على قدر المعنى لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه كما قيل في
مدح بعض البلغاء: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه. وقيل في آخر: كان إن أخذ
شبراً كفاه وإن أخذ طوماراً أملاه. واستعمل التطويل في مكانه والتقصير في
مكانه فقد قيل: إذا كان الإيجاز كافياً كان التطويل عيًّا وإذا كان التطويل واجباً
كان التقصير عجزاً. وإياك أن تفرط فإن فرطت قصرت أو تفرط فإن أفرطت
كثرت وإلا فانظر إلى قصص الكتاب العزيز كيف أتت وجيزة ومرة بسيطة
كما قلت في وصفه في القصيدة التي مدحت رسول الله ﷺ:

به قصص تأتيك طوراً بسيطة ليفهمها من بسطها المتبلد
وطوراً بإيجاز تبث لذي حجي له زند فهم ثاقب ليس يصلد
وفي الجملة مهما كان الإيجاز كافياً والمعنى به واضحاً فالإحاطة إن
لم تكن عياً كانت عباً ولم يزل إجلاء المتقدمين يحمدون ذلك ويزمّون
ما سواه ويدلّ على اختيار هذا المذهب ما يحكى عن أحمد بن يوسف
الكتاب فإنه قال: دخلت يوماً على المأمون وفي يده كتاب وهو يعاود
قراءته تارة بعد أخرى. ويصعد فيه نظره ويصوّبه وقال: فلما مرت على
ذلك مدّة التفت إليّ وقال: يا أحمد أراك مفكراً فيما تراه مني فقلت: نعم
وقى الله أمير المؤمنين المكاره وأعاذه من المخاوف فقال: إنه لا مكروه
في الكتاب ولكن قرأت فيه كلاماً وجدته نظير ما سمعت الرشيد رحمه الله
يقوله في البلاغة فإني سمعته يقول: البلاغة التباعد من الإطالة والقرب من
البُغية والدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى. وما كنت أتوهم أن أحداً
يقدر على هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب ورمى به إليّ وقال: هذا
كتاب عمرو بن مسعدة إلينا قال: فقرأته فإذا فيه: كتابي إلى أمير المؤمنين
ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون
عليه طاعة جند خُزنت أرزاقهم وانقياد كافة تراخت أعطياتهم فاختلفت
لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم. قال: فلما قرأه قال لي: يا أحمد إن
استحسن هذا الكلام بعثني على أن أمرت للجند قبله بعطياتهم لسبعة
أشهر وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه محله في صناعته.

وروي أيضاً عن المأمون أنه أمر عمرو بن مسعدة الكاتب هذا أن يكتب
لرجل يُعنى به إلى بعض العمال بالوصية عليه وأن يختصر كتابه ما أمكنه
حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد فكتب عمرو بن مسعدة: كتابي إليك

كتاب واثق بمن كتب إليه معني بما كتب به ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله إن شاء الله تعالى.

وقد كان جعفر بن يحيى مع تقدمه في هذه الصناعة يقول لكتابه: إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيعات فافعلوا. وأما قول قيس بن خارجة لما قيل له ما عندك من حمالات داحس فقال عندي قرى كل نازل ورضى كل ساخط وخطبة من له من طلوع الشمس إلى أن تغرب أمر فيها بالتواصل وأنهى عن التقاطع. فإن ذلك لم يخرج مخرج المدح للإطالة المذمومة لأن الإطالة المذمومة هي إطالة العبارة عن المعنى الواحد بالألفاظ الكثيرة. وإنما أراد قيس الإكثار من المعاني فإذا كثرت المعاني احتاج المتكلم إلى كثرة الألفاظ للعبارة عنها ولإيضاحها وليوفي بمقصوده فيها. ومتى أطال الكلام لذلك كانت إطالته بلاغة لا عياً فإن حقيقة البلاغة إيجاز من غير إخلال وإطناب من غير إملال لاسيما خطب الإملاكات والسجلات التي تقرأ على رؤوس الجماعات.

الكتاب

إذا بلغت الحضارة أوجها في أمة يتفنن أهل العلم في التأليف المفيد فيضعون المصنفات في الموضوعات التي لا تخطر على بال أحد في مجتمع غير راق. ومن كان يظن أن أبا عمرو بن عمر الجاحظ البصري يؤلف كتاباً في مدح الكتب والحث على جمعها عدا ما وقع له من ذكرها مرات في كتبه قبل زهاء ألف سنة، ولكن ما كتبه الجاحظ في تلك الأزمان يكتبه مؤلف هذه الأيام ببيان أشفى ومادة أوسع لارتقاء هذه العصور باختراع الطباعة التي عمّت بها المطبوعات وسهل بها التأليف والنشر ولا سيما على من كان مثل مؤلف «الكتاب» الذي صدر هذا الشهر في خمس مجلدات للمسيو البرسيم قيم مكتبة نظارة البريد والبرق في باريز.

قسم كتابه إلى أقسام فتكلم على حبّ الكتب والمطالعة والكتب في الأزمان السالفة والقرون الوسطى منذ اختراع الطباعة إلى عصرنا هذا وتمييز بعض المؤلفين على بعض وما يجب أن يطالع من الكتب وكيف يجب أن يطالع أو يُتصفح وتؤخذ مفكرات بالخط على بعض الكتب وهل ينبغي الاستكثار من الكتب أو الإقلال منها وكيف نختر الكتب وهل يجب الإكثار من المطالعة أو الإكثار من إعادة المطالعة. وتكلم على الكتب المزيّنة والكتب البسيطة والقديمة والحديثة والاستشفاء بالكتب وتاريخ الكتب وذكر الروايات والصحف وتكلم على المجانين بالكتب

والهائمين بالكتب وممزقي الكتب وأعداء الكتب وعدّ النساء من أعداء الكتب وأطال في إغارة الكتب وفي ورقها وقطعها وطبعها وتصويرها وتجليدها وابتاعها وترتيبها في قماطرها والعناية بفهرستها وتنسيقها وكيفية استعمالها وحفظها وطبعها واختصارها.

هذه أهم ما تدور عليه أبحاث هذه المجلدات الخمسة الممتعة ويرى مؤلفها أن لا يقتصر في الكتاب على إلباسه لباس الظرف وحفظه في الزجاج والنظر إليه بإعجاب وانعطاف بل أنه خُلِق ليُقرأ أو يُتدبّر ما فيه ويتلذّبه قال: فإنما أتخذة بمثابة أداة للدرس والتسلية والتعزية وقرّة العين بل هو واسطة للكمال العقلي والأدبي فأنا من ثم لا أفصل بين محبة الكتب ومحبة الآداب بحال وإن شئت فقل بين محبة الجمال والخير والعدل والحق فبين هذه الأمور تشابه.

وقد اعتذر المؤلف عن أن معظم كتابه ليس من قلمه بل هو عبارة عن استشهاد بأقوال أئمة العلم والأدب في كل عصر ومصر، وذلك لأن الاستشهاد بكلام الرجل بعينه يصوّره كما هو وله وقع في النفس أكثر من إحالة المطالع على الرجوع إلى ما كتبه المؤلف كما قال سانت بوف العالم. وقال شاتوبريان الفرنسي الكاتب: لا يجب الاعتقاد بأن معرفة إيراد الشواهد هو مما يسع كل أحد من أرباب العقول الضعيفة أن يفعلها ممن فرغ وطابهم من كل علم فيستقون من موارد غيرهم ما راقهم وما الاستشهاد حيث يجب إلا دليل العلم. فالذاكرة التي تدّخر الشواهد لحين الحاجة هي في الحقيقة قرينة الذكاء بل هي أمّ الذكاء وجودة الذهن. وقد غدّى كبار كتّاب عصر لويس الرابع عشر عقولهم بالشواهد وكان شيشرون الخطيب الروماني الذي لم تكن له إلا لهجة

واحدة يلهج بها ويتوفر عليها أكثر من الاستشهاد وأنا أيضاً (شاتوبريان) لا أقصر في هذا السبيل.

ولذا سار مؤلفنا في مصنفه الجليل على هذه الطريقة شأن معظم الكتاب الذين لا يكتبون إلا بتصحيح وإيراد الشواهد والشوارد فيقرأ القارئ فيه من أسماء الكتب المؤلفة بالفرنسية في هذا المبحث ما يدل على أن الغربيين اليوم سابقون في كل محمودة ويسجل بما بذله بنفسه من الدرس والبحث حتى جاء كتابه آخذاً من كل شجرة ثمرة ومن كل حديقة زهرة.

قال في تاريخ الكتب أنه لم يعرف في الحقيقة إلا منذ ثلاثة آلاف سنة وإن قال أحد علماء الألمان بوجود الكتب قبل الطوفان ووضع لذلك مصنفًا. فتاريخ الكتب يرد إلى عهد ملك مصر أوسيماندياس الذي يرى علماء الآثار المصرية اليوم أنه هو رعمسيس الثاني أو سزسترويس، وكان له خزانة كتب جعلها في قصره في ثيبة كما قال المؤرخ ديودور الصقلي وقد حكم هذا بوجودها من أثر كان مزبوراً على الحجر في أعلى باب هذه المكتبة وهو قوله: هنا أدوية النفس. فوصف بذلك الكتب أجمل وصف وأجزه عرف ولا يتأتى أن يقال أحسن منه. ومضت على هذا الوصف الأزمان حتى جاء الفيلسوف مونتسكيو في القرن الثامن عشر فقال: ما قطّ حزنت إلا وتبدد حزني بساعة من المطالعة أروح بها عن نفسي. ثم جاء بعده القصصي الإنكليزي بولور ليتون في القرن التاسع عشر ووصف مطالعة بعض المصنفات لشفاء بعض الأمراض فرأى المداواة بالكتب كأنها بعض العقاقير والعناصر. وكل من قال كلمة في هذا الباب لم يخرج في وصفه للأسفار عن حد الحكمة التي علّقها ملك مصر على مكتبته أو شرحها أو المبالغة فيها. وأسس الظالم بيزايسترات (561 - 527 ق. م)

مكتبة عامة في آثينة وهي أول مكتبة من نوعها جمع فيها أشعار هوميروس ولم تكن تعيها من قبل إلا ذاكرة القصاصيين والمتشاعرين ويؤخذ من بيت للشاعر أريستوفان (قبل المسيح بخمسة قرون) أن الكتب كانت منتشرة جداً في زمنه بمدينة آثينة. وقال كسينوفون في تذكرة سقراط شيئاً عن الكتب والمجاميع وتجارتهما.

واستعمل السبيادس على نحو ذلك الزمن (450 - 404 ق. م) طريقة لا تخلو من قلة ذوق ليحبّ أبناء وطنه في الكتب فدخل مدرسة خاصة بدراسة النحو وسأل المعلم أن يأتيه ببعض كتب لهوميروس فأجابه أن ليس عنده ولا واحد منها فصفعه وخرج. وكان الإسكندر الكبير (356 - 325 ق. م) مولعاً من وراء الغاية بدرس أشعار هوميروس وبعد أن هزم دارا ملك الفرس وقع إليه سفظ كان بين أسلاب المغلوبين فسأل خاصته ماذا ينبغي أن يجعل فيه من مال أو متاع فاختلفت آراؤهم أما هو فقال لهم: إنه يضع فيه إلياذة هوميروس لتحفظ فيه حفظاً جديراً بها. وكان الإسكندر أثناء رحلته إلى آسيا أمر بأن تجلب له توارخ فيليست وفاجعات أوربيدس وسوفلس وأشيل وغيرهم ويحبّ أستاذه أرسطو كما يحب أباه لأن هذا سبب حياته وذاك سبب سعادته. وأنشأ بطليموس سوتر أحد خلفاء الإسكندر الذي استأثر بملك مصر عندما قُسمت المملكة اليونانية مكتبة الإسكندرية وهي أشهر وأغنى مكتبة في الأزمان السالفة وكان ذلك بإشارة ديمتريوس دي فالير (345 - 283 ق. م) النحوي المؤرخ البياني حاكم آثينة الذي غدا أول قيّم على هذه المكتبة وجرى خلفاؤه من البطالسة على العناية بهذه المكتبة ولاسيما بطليموس الثاني فيلادلفيس (285 - 247 ق. م) وبطليموس الثالث أفرجيتس. وكانوا ينشّطون زراعة

ورق البردي ليتوفر الورق لديهم ويستخدمون كثيراً من النساخ وربما لم يكونوا يستنكفون من السرقة لزيادة ما عندهم من الكتب كما فعل أحدهم فاستعار من مكتبة آثينة كتباً لشعرائهم وفلاسفتهم فاستنسخها ولم يُرجع الأصل بل أرجع نسخاً ثانية منها وبطليموس الثاني فيلادلفس - لعله لقب بذلك استهزاء به لأنه قتل أخوته أو لأنه تزوج أخته - هو الذي أمر بترجمة كتب العبرانيين المقدسة إلى الرومية بمعرفة سبعين من علماء بني إسرائيل وكانت ترجمتهم السبعينية من أهم حوادث التاريخ لأنها سهّلت السبيل إلى انتشار اليهودية ومهدت للنصرانية.

ولم تُحرق مكتبة الإسكندرية التي قال بعضهم أنه كان فيها نحو سبعمئة ألف مجلد على يد الإمام عمر ولا بأمره كما جاء في بعض التقاليد فإن هذه الدعوى من الأغلاط التاريخية العظيمة إذ لم يكن أثر لهذه المكتبة عندما فتحت العرب مدينة الإسكندرية سنة 640، وعلى عهد البطالسة أصبح أمر المكتبة إلى ضعف فقسمت شطرين جعل كل منهما في مكان مستقل فحرق القسم الأول قضاءً وقدرًا عندما استولى يوليوس قيصر على الإسكندرية سنة 47 قبل المسيح، وذهب القسم الثاني وكان جعل في معبد سيرابيس على يد الأسقف تيوفيل بعد ذاك التاريخ بأربعمئة سنة عقيب الأمر الصادر عن تيودوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها.

ومن المكاتب الشهيرة في القديم مكتبة فرغامس برغامة في آسيا الصغرى أسسها أومينوس الثاني ابن آتال الأول قبل المسيح بمائتي سنة ويقول بلوتارك أنه كان فيها مائتا ألف مجلد بسيطة أهداها أنطونيوس أحد حكام اليونان إلى كلوبطرة ملكة مصر من نسل البطالسة. وقد نقل كثير من

الكتب من مكاتب آثينة والشرق إلى إيطاليا وكانت المكاتب عند الرومان تبنى بالقرب من معابدهم وأول مكتبة أنشئت في رومية على يد أزينوس بولنيوس. ولطالما تنافس ملوكهم في الإكثار منها وفيهن من جعلوا خزائن الكتب العامة في قصورهم. تساوى في الغلو بحب الكتب عالمهم وجاهلهم وعادلهم وظالمهم.

وتكلم عن الكتب على عهد البرابرة والهونس والقوط والقوط الغربيين والفنداليين وعلى غلاتهم من الإفرنج في القرون المتأخرة وأجاد ما شاء وشاء بيانه في اختيار المصنفات وانتقاء الأجود منها فأتى على ذلك بشيء مما قاله أهل العلم والحكمة منذ الزمن القديم إلى عهدنا هذا. فقال أن توسديد حضر مجلساً لهيرودتس المؤرخ اليوناني يتلو فيه بعض أهل آثينة شيئاً من تاريخه فاهتز وطرب ولم يتمالك أن بكى وكان عمره خمس عشرة سنة وكان ديموستين يغالي في الولوغ بتاريخ توسديد نسخه بخطه الجميل ثماني مرات ليرسخ إنشاؤه في ذهنه ويطبع عليه. وكان الإسكندر الكبير مهووساً باليأذة هوميروس يصبحها معه حيث ذهب ويضعها تحت المخذة مع سلاحه عندما ينام وكان شيشرون يرى ديموستين أخطب خطيب في كل ضرب من ضروب الخطابة ويعنى بما كتبه أرسطو وأفلاطون وتيوفراست كل العناية.

وكان شارلمان (742 - 814) ملك فرنسا مولعاً بتلاوة كتاب مدينة الله للقديس أوغسطينس كما أن الفريد الكبير ملك إنكلترا (849 - 900) يؤثر مطالعة قصص أيسوب وترجمتها شعراً إلى اللغة السكسونية وكان يرى تيودور كازا النحوي اليوناني المشهور (1398 - 1478) أن كتب القدماء لو ألقى كلها في النار لاختار أن يخلص منها كتب بلوتارك. وجعل شارلمان

(1500 - 1558) كتب توسيديد رفيقته في أعماله وكان يقرأ تذكرات كومين المؤرخ بولع شديد.

وكان كاتم السر فرنسيس باكون (1561 - 1626) يقول ليست الكتب إلا تكراراً فابحث في كتب اليونان والرومان والعرب وجميع مؤلفي القرون الحديثة فلا ترى فيها كلها شيئاً يتعدى ما قاله الفلاسفة أرسطو وأفلاطون وإقليدس وبطليموس. وكان ملتون الشاعر الإنكليزي (1608 - 1674) الأعمى يقرأ في الصباح شيئاً من التوراة بالعبرية ثم يدرس شعر هوميروس ويقال أنه استظهره كله وعلم بناته الثلاث ثماني لغات يقرأن فيها عليه بدون أن يفهمنها وكان يقول أن البنت تكفيها لغة واحدة ولكنه لم ير بدءاً من تعليمهن ليقرا أن له ما يحب.

وكان كورنيل الشاعر الفرنسي (1616 - 1684) يؤثر مطالعة تاسيت وتيت ليف المؤرخين اللاتينيين ويعنى عناية خاصة بلوكين الشاعر اللاتيني وسينيك الفيلسوف وسمع لافونتين الشاعر الفرنسي (1621 - 1692) وهو في الثانية والعشرين نشيداً للشاعر مالريب فأخذ العجب بأقوال هذا الشاعر ثم انصرف إلى مطالعة هوراس وفرجيل وتيرانس وكتيلين واختار من مؤلفي الفرنسيين رابليه ومارو ودورفي وفواتور وقرأ من الإيطاليين أريوست وبوكاس وماكيا فيل وتاس. وشغفت العقيلة دي سيفنيه الكاتبة الفرنسية (1626 - 1696) بمطالعة أدب نيكول ثم كورنيل وبردالو. وكان الأخلاقي لابرويير (1669 - 1696) يرى أن موسى وهوميروس وأفلاطون وفرجيل وهوراس لا يفوقون غيرهم من الكتاب والشعراء إلا بجودة تعابيرهم وتصوراتهم.

وكان الشاعر راسين (1639 - 1699) استظهر وهو في السادسة عشرة

أو السابعة عشرة أشعار سوفوكلس ويوربيدس وقرأ أفلاطون وبلوتارك على الأصل اليوناني وكان وهو في المدرسة يقرأ رواية تيوجين وشاريكله لهيلودور اليوناني ففاجأه معلمه فتناول الكتاب من يده وألقاه في النار ثم اجتهد راسين أن يحصل على نسخة ثانية من هذه الرواية فعامله أستاذه بمثل ذلك ثم استحصل نسخة ثالثة وأخذ يحفظها سرّاً ولما أتى عليها حمل النسخة إلى معلمه وقال له: لك أن تحرق هذه كما حرقت أختيها لأنني لا حاجة بي إليها.

وقال الكاتب الفرنسي سان أفرموند (1613 - 1703) أن رواية دون كيشوت لسرفانتس هي من المصنفات التي أستطيع تلاوتها طول عمري دون أن أملّ ساعة وكنت أود أن أكون مؤلف دون كيشوت من بين جميع الكتب التي طالعتها ومن رأيي أنه ليس من كتاب يساعد كثيراً على تحسين ذوقنا في كل الأمور مثله. ويظهر أن كوفيدو من حذاق المؤلفين وأناي لأعتبره زيادة لأنه أراد أن يحرق جميع كتبه عندما قرأ دون كيشوت وكان يؤثر لو لم يؤلفها. قال ثم إنني رأيت مما يلذني طول حياتي كتب مونتين وأشعار مالريب وفاجعات كورنيل ومصنفات فواتور.

سئل الشاعر بوسويه (1627 - 1704) عن المصنفات التي يتمنى لو قدر له أن يؤلف مثلها فقال كتاب «رسائل الولايات» لباسكال وكان يؤثر شعر هوراس وكان بوالو (1636 - 1711) يجعل لشعر هوراس المقام الأول ثم لتيرانس ويفضل مشاهير القدماء على مشاهير المحدثين ما خلا باسكال فإنه عدّه في مصاف العظماء وكانت مكتبة لايبزر الفيلسوف الألماني (1646 - 1716) عبارة عن مصنفات أفلاطون وأرسطو وبلوتارك وسكتوس أمبيريكوس وإقليدس وأرخميدس وبلين وشيشرو وسينيك

وقد درس منذ نعومة أظفاره اللغات القديمة وأثر التوفر على الأخذ من الشعارين تيت ليف وفرجيل حتى أنه كان في شيخوخته يُسمعك ما قاله فرجيل بالحرف الواحد.

وكان مونتسكيو (1689 - 1755) جعل قراءة كتابات تاسيت هجيراً وقال من نفسه: إني لأعترف أن ذوقي في القدماء وأن الزمن القديم يبهجني وأنا أقول أبداً ما قاله بلين أنكم يا هؤلاء تذهبون إلى آثينة فاحترموا الأرباب. وكان يحتفل من وراء الغاية بكتاب تليماك كما يأنس بكتب آسيل وأربيد وسوفوكلس وبلوتارك وأرسطو وأفلاطون وشيشرون وسويتون وفرجيل ويختار من المحدثين كريليون ومونتين ولاروشفوكولد ويعتقد أن أعظم الشعراء أفلاطون ومالبرنش وشافترز بوري ومونتين.

وكنت ترى على منضدة فولتير (1694 - 178) رواية أتالي لراسين وكتاب الصوم الصغير لماسيليون وقال الفيلسوف ديدرو الفرنسي (1713 - 1784) في كلامه على القصصي الإنكليزي ريشارسون أن مطالعة كتبك هي سلوتي في جميع أوقاتي فلو قضت علي الضرورة أن أبيع كتبتي لأعلم بثمانها أولادي لاستثنيك منها وأبقيتك لي أنت وأسفار موسى وهوميروس وأربيدس وسوفوكلس وأتناوب قراءتك مرات. وكان العالم بوفون (1707 - 1788) يوصي بقراءة أعظم أرباب القرائح والعقول وقد حصرهم في خمسة وهم نيوتن وباكون ولاييز ومونتسكيو وهو في جملتهم.

وكان كانط الفيلسوف (1724 - 1804) يرى أن الأرق إذا استولى على امرئ فليس لصاحبه إلا أن يحصر فكره في موضوع واحد أما هو فكان يجلب النعاس إلى عينيه بأن يتصور شيشرون وحياته وكتاباته وكان كيتي

(1749 - 1834) يرى أن خير ما يقرأ ما خطته أنامل مولير وفولتير وقال عن هذا أنه صفوة أمته كما أن لويس الرابع عشر صفوتها في السياسة وذلك لأن الأسرة إذا طال عليها العهد يتسلسل منها فرد يجمع جميع صفات أجداده وكمالاتهم وهكذا كان فولتير أعظم كاتب كانت بينه وبين أمته مناسبة وهو أعظم أديب على اختلاف العصور وأعجب مؤلف في الطبيعة.

و قال في تأثيرات المطالعة في المرء ولاسيما ما يطالعه في صغره نقلاً عن كتاب عشاق الكتب لألفرد دي ماترون العارف بالتأليف والتصانيف: إن المرء في صباه لا يهتم بشكل الكتاب جميلاً كان أو بشعاً حسن التجليد أو سيئه بل يضحك ممن يقول له أن طبعة هذا الكتاب أصبحت نادرة وأن هذه الفقرة غريبة وأن هذه الأسفار نال مؤلفوها الجوائز عليها ولا يحتفل إلا بالفكر ولاسيما بما فيه شعور وعواطف ولا يعبأ إلا بما يرضي فؤاده ويشير عواطفه ويحركها. فأف من الفكر والجمال والتذهيب الجميل. ولذلك لا ترى مولعاً في الكتب وهو في سن العشرين لأن المرء في صباه لا يستطيع أن يعاود قراءة كتاب قرأه فلا يكاد يحسن القراءة حتى يأتي على آخر ما يقرأ ولا سبيل إلى الحكم جيداً على كتاب إلا بمطالعة ثانية وفي أدوار مختلفة من الحياة ومن ثم كان من الكتب ميزان حرارة للعقل أو للقلب.

قال ألفرد دي ماترون: إن المرء في العشرين من عمره لا يكون من غلاة الكتب وأحبابها وما قاله يصح أن يكون قاعدة في هذا الباب لأن العواطف في سن العشرين تحكم على العقل بل تحكم على كل شيء فيسرع المرء في تلك السن إلى الوقوف على كل شيء ويعرف كل شيء ويقرأ كل شيء ون شئت فقل يقلب صفحات كل كتاب. ويندر في تلك السن السعيدة من

يستطيعون أن يعاودوا قراءة كتاب ثانية بدون أن يكرههم مكره فيأتون ذلك إما مدفوعين برغبة منهم أو لقلّة ما لديهم من الكتب الجديدة أو كتب لم يقرأوها بعد ولم يتصفحوها.

وقال آخر: لا يشرع المرء بمعرفة القراءة إلا بعد خروجه من المدرسة. وفتيان المطالعين لا يحبّون من الكتب إلا ما حدث وضعه وقلما يرجعون إلى الكتب المؤلفة قديماً. وأورد المؤلف أسماء كثيرين أولعوا بالمطالعة منذ عرفوا القراءة بل منذ فطموا عن أئداء أمهاتهم مثل أسقف دافرانس هويه (1630 - 1721) والفيلسوف جان جاك روسو (1712 - 1778) والشاعر يوحنا أنطون بوشه (1745 - 1794) وبنيامين فرنكلين (1706 - 1790) وهنري بيل القصصي النقاد الفرنسي (1783 - 1842) ولامارتين الكاتب الفرنسي (1790 - 1869) وسيلفيو بلليكو الأديب الإيطالي (1789 - 1854) وجورج ساند القصصية الفرنسية (1804 - 1876) وشارل ديلون وكلهم ما كادوا يفتحون عيونهم إلا والكتاب بأيديهم بفضل تربية آبائهم وأمهاتهم الذين كان بعضهم يقرأ لهم ليسمعهم سير العظماء وأقوال الحكماء فانغrustت البذور الصالحة في عقول أبنائهم وجاء منهم فلاسفة وكتّاب متفردون وتبين مما استشهد به لهم من تذكراتهم أن معظمهم كانوا يعيشون الخلاء بين الرياض والغياض يطربهم صوت العندليب ويؤرقهم صوت القمري ويستفزههم خريير الماء وعليل الهواء.

وقال في فصل المطالعة والتصفح: جعل سلس الطبيب الروماني في القرن الأول قبل المسيح القراءة بصوت عال من جملة الرياضيات النافعة للصحة وأن المطالعة على هذه الصورة ضرورية للفهم والذوق وذلك لأن جرس الصوت يساعد كل المساعدة على تعليق الجمل في

الذهن. وقد قال العالم أرنست لوكوفه أنه لا شيء ينير عقلنا مثل القراءة بصوت جهوري ويقفنا على ضعف الإنشاء إن كان ضعيفاً وقوته إن كان قوياً وفساد الشعور المصوّر فيه. ففي الكلام تنشيط وفيه للأفكار إيضاح بل تحقيق وكل من يتعاطون عملاً شاقاً كالحطابين والخبّازين يتحمسون بما يليق به بعضهم على بعض من الأصوات ولا يرى دودان أن يقرأ قارئ للإنسان بل أن يقرأ بنفسه ويرى أن الطريقة الأولى أجدر بالمرضى والعميان لأن لكل قارئ نعمة يكون بها التأثير في عقله وله طريقة في الفهم والتمعن لا يقوم بها سواه.

ومن العادة في بعض المدارس والأديار أن يقرأ قارئ شيئاً من الأدب والقصص والتلاميذ جلوس على المائدة وكان ذلك شأن شارلمان يتلى على مسامعه وهو على الخوان كتاب القديس أوغسطينس. وكان الفيلسوف فولتير يؤثر أن يقرأ له وقال: إنني أحب هذه الطريقة لأنها كانت مألوفة للقدماء وأنا منهم. وكان الكردينال موري (1746 - 1718) يقول أن المرء إذا خلا بنفسه يجب أن يطالع كتباً تفيده حقيقة وإذا كان مع أخوانه فالأجدر أن يتلى عليه ما يحمّسه ويهيجه لأن الناس في انفرادهم غيرهم في اجتماعهم.

قال مؤلفنا: أما كتب الحكم والآراء فالأحرى بل الأفيد بأن تتلى قطعة قطعة لا دفعة واحدة وأن ترسخ بكميات قليلة فكما أن المرء لا يبيع أقراص المعاجين إلا واحداً واحداً هكذا يجب عليه أن يسير في الأخذ من كتب الحكماء. وقال الأميرلين (1735 - 1814) أن الطريقة الوحيدة في مطالعة كتاب من الحكم بدون أن يمل هو أن يفتح كلما سنحت الفرصة وبعد أن يسقط فيه على ما يهمه منه يطبقه بعد تصفح صفحة أو صفحتين ويأخذ

يفكر فإذا تصفحها كلها يكون أشبه بمن قلب مجموعة صور دفعة واحدة فلا يرتسم بمخيلته واحدة منها.

وتختلف طريقة المطالعة بسرعة أو بتأن بلا فاصلة أو بفاصلة بقلّة أو بكثرة وهذا تابع لحالة القارئ وما يقرأ وحالة بصره وقوة انتباهه وأوقاته وخطر ما يتلوه وتأثير الكتاب فيه. وإن كتاباً في الفلسفة لا يقرأ كما تقرأ قصّة وخير في الكتب المملة أن تُتصفح تصفحاً وكل من يعيشون بين الكتب والمطبوعات والمخطوطات ويبحثون كثيراً فيما بين أيديهم لا يسعهم إلا أن يتصفحوا تصفحاً.

وكان لما كليا بشي العالم الفلورنسي قيم الكتب (1633-1714) طريقة خاصة في المطالعة فإذا وقع له تأليف جديد ينظر في عنوانه ثم يرجع إلى الصفحة الأخيرة منه ويتصفح المقدمات والفهارس والتقدمات. ويلقي نظرة على كل التفاصيل الرئيسية وكان له من الوقوف على التأليف ما يتمكّن معه من معرفة حقيقة المصنف في لحظة بل أنه يعرف المصادر التي أخذ منها المؤلف. ومن أرباب الاختبار في معرفة القراءة من يعرفون ماهية الكتاب من تقلب أوراقه ويدركون ما في صفحة منه من الفوائد بمجرد إلقاء النظر عليها ومنهم من يعرفون كيف يتصفحون الجرائد فلا يقع نظرهم إلا على ما يهمهم منها ولا يضيعون ثانية من أوقاتهم في النظر بما لا يفيدهم.

ورأى بعض أهل العلم أن الذهن مهما بلغ من حدته يخون صاحبه في تذكّر الفوائد التي قرأها فالأولى له أن يقيدها ولذلك كانت الفهارس مما يعين كثيراً على الرجوع إلى مضامين الكتاب. ومن عشاق المطالعة من لا يكتفون بتقييد الفوائد في تذكّراتهم بل هم يكتبون على كل صفحة

تهمهم كتابة تعلمهم على الكتاب نفسه ولكن أكثر باعة الكتب يرون هذه الطريقة مما يعوق الكتب عن بيعها إلا أن المؤلف ومحبي الاستفادة لا يهتمهم إلا أن ينتفعوا من كتبهم ولو بتمزيقها وتشويهها وما الكتاب إلا أداة للتعلم يجب استخدامها على النحو الذي ينتفع به نفعاً حقيقياً بل هو رفيق وصديق تجب معارضته ومناقشته أحياناً وأن لا يسلم له كل ما يورده.

يقول الفيلسوف سينيكا والأديب بلين لجون أن الإكثار من الكتب يشتت الفكر وأن عادة القراءة كثيراً تفضل قراءة أشياء كثيرة وقال لبعضهم: لا نهاية للاستكثار من الكتب ومعلوم أنه في هذا العصر الذي دعي بعصر الورق بل في هذا العصر الذي اشتدت فيه تباريح مرض جديد أي الجنون في الطبع والنشر أن الكتب تنمو وتتضاعف من يوم إلى يوم. وما أجمل ما قالت أريستيب الفيلسوف اليوناني (390 ق. م) أحد تلاميذ سقراط وصاحب المذهب الأبيقوري المنسوب لمدينة سيرين: ليس من يأكلون كثيراً هم أسمن من غيرهم وأصح منهم أجساداً بل السمان هم أولئك الذين يهضمون. وهنا استشهد المؤلف بإحصاء غريب لبعض المشتغلين منذ اختراع الطباعة على القرن الماضي فقال أنه طبع في جميع أنحاء الأرض من سنة 1436 إلى سنة 1536، 42 ألف مجلد وفي سنة 1536 إلى سنة 1636، 575 ألفاً وفي سنة 1636 إلى سنة 1736 مليون و225 ألفاً وفي سنة 1736 إلى سنة 1822 مليون و839960 فيكون مجموع ما طبع زهاء ثلاثة ملايين ونصف مليون مجلد وإذا قدر معدل هذه المصنفات بثلاثة مجلدات وإن أقل ما يطبع من كل كتاب 300 نسخة فيكون قد خرج من المطابع كلها في نحو أربعة قرون 3313764000 وقدر أن ثلثها حرق أو استعمل صرراً عند البدالين والباعة فلم يبق منها إلا ثلثها. وزيف بعضهم

قوله بأن التوراة وحدها طبع منها زهاء 36 مليون نسخة وأن كتاب الاقتداء بالمسيح طبع منه وحده ستة ملايين وأنه إذا كان كُتب على تاريخ فرنسا وحده ثمانون ألف مجلد فكم تكون كتب الأرض؟ وقدّر أحد الأميركيين عدد المجلدات في الولايات المتحدة كما يأتي 420 مليوناً في البيوت و150 مليوناً عند العلماء والكتاب والمخترعين و60 مليوناً عند الكتيبة والطابعين و50 مليوناً في خزائن الكتب العامة و12 مليوناً في مكاتب المدارس والجامعات و8 ملايين عند التلاميذ وأن في أوروبا الغربية ملياراً وثمانمائة مليون مجلد وفي أوروبا الشرقية أربعمائة وستين مليون مجلد و240 مليوناً في سائر أقطار العالم. قال المؤلف: وبيننا أهل الإحصاء يحصون ترى المطابع تصدر الكتب بالألوف فيقدر الآن ما يصدر كل سنة من الكتب في الشرق والغرب بخمسة وسبعين ألف كتاب جديد منها 25 ألفاً في ألمانيا و13 ألفاً في فرنسا و10 آلاف في الولايات المتحدة و7 آلاف في إنكلترا فلو فرضنا أن معدل ما يطبع منها ألف نسخة تكون كتب العالم قد زادت كل عام 75 مليون مجلد.

قال مؤلفنا في اختيار الكتب وهل تفضل القديمة أم الحديثة فرأى أن الشبان ومن قلّ علمهم وأدبهم يؤثرون الجديد على القديم وإن كان الجديد في الغالب غثاً بارداً والقديم سميناً مملوءاً بصحيح الأفكار ومتين الإنشاء. وفي كتب القدماء كنوز قديمة لا مثيل لها في آثار المحدثين. قال: وعندي أن يختار من الكتب العلمية أحدثها التي أخذت بأطراف ارتقاء العلم عامة وآخر ما وصل إليه كماله أما في الأدب فيختار أحسن كتابه مهما قدم عهدهم فالآداب القديمة كما قيل كلما قدمت تتجدد.

ولا مرأى في أن المطالعة تؤثر في عقولنا واضطراباتنا وتورثنا القلق

والحزن فمن الفضول أن نزيد على ذلك ما تدخله علينا من السرور والنفع
قال جول لبتى في كتابه علم حب الكتب ومعرفتها ما أكثر من يبرؤون
أمراضهم بفضل الكتب التي يطالعونها ولو عرف الناس ذلك حق معرفته
لزاد عدد المولعين بالكتب زيادة عظيمة. وتكلم المؤلف على الروايات
وقال أن بعضهم يراها سموم الهيئة الاجتماعية وذكر كيتي الفيلسوف النقاد
الألماني أنه من العبث أن يقول القائلون أن من الكتب ما يؤثر في إفساد
الأخلاق وما الفساد إلا متوفر كل يوم في هذا المحيط وعندي أنه لا يجب
التحرّس كثيراً من ذكر ما لا يجدر أمام الأولاد من الأحاديث فإن الأولاد
كالكلاب لهم حاسة قوية في الشم ويكتشفون كل شيء ولا سيما ما كان من
أمور الشر. وللعلماء آراء مختلفة في هذا الشأن والأكثر على أن الروايات
خيرها أقل من شرها وقشرها أضعف من لبّها أما مطالعة الجرائد فهي لا
تعد في باب مطالعة الكتب لأنها تكتب بسرعة دون أن ينظر فيها النظر
البليغ وما الجريدة كما قال بايل إلا فاكهة الفكر. وقال سانت بوف: يجب
بادئ بدء أن نتزود من الخبز واللحم الطيب قبل أن نضع الفاكهة والحلواء.
كتب تيوفيل غوتيه الكاتب الصحفي الفرنسي أن مطالعة الجرائد تحول
دون نبوغ علماء وأرباب فنون حقيقيين فهي جعبة شطط تصلك كل يوم
ضعيفة ضئيلة تعتري القرائح القوية الشكيمة التي لا تريد إلا عشاقاً اقوياء
في جده الشباب فالجريدة تقتل الكتاب كما أن الكتاب قتل الهندسة وكما
قتلت المدفعية الشجاعة وقوة الأعصاب. وقال جبرائيل هانوتو العالم: إن
الجريدة هي المنافس الحقيقي للكتاب وما النجاح الذي أحرزته الجريدة
إلا لرخص أثمانها وعندي أن الديمقراطية يجب أن يرخص فيها كل شيء
لمداواة أمراض النفوس وأن المستقبل لا يبقى إلا على نوعين من الكتب

المزخرف والمبهرج الذي تطبع منه كميات قليلة ليقتنيها أرباب القصور والغنى والكتب البسيطة التي تباع بأرخص ما يمكن من قيمة ليسوع للجمهور اقتناؤها من أيسر سبيل وبهذا الضرب من الكتب يحفظ للعلم رونقه وتبقى له حياته فالفلاح والعامل يجب أن يقرأ شيئاً وأن يخرج لهما ما يقرآن وحاجتهما ماسة إلى غير كتب التقاويم وبهذا تبين أنه لا يُخشى على الكتب من قلة عشاقها في المستقبل بل أن النفوس تظل عليها مقبلة ما بقي الدهر.

وقال مؤلفنا في الفصل الذي عقده للكلام على ممزقي المكتب وأعدائها أن أعظم ما عرف من المصائب التي أصابت المكاتب على ما ذكر بيروز المؤرخ الكلداني من أهل القرن الثالث قبل المسيح (عليه السلام) واسكندر بوليستور الكاتب العالم اليوناني من أهل القرن الأول قبل الميلاد أن ملك بابل بختنصر الذي أرّخ به منذ سنة 747 ق.م قد أمر بإحراق جميع تواريخ أسلافه ليسدل بذلك حجاباً كثيفاً على الماضي ويكون عهده مبدأ يجرون على التاريخ به في جميع العالم. وأحرق الإمبراطور شي هونغ تي الصيني سنة 213 ق.م جميع الكتب التي في مملكته ولم يستثن منها إلا المصنفات التي فيها تاريخ أسرته وعلم النجوم والطب وذلك بغضاً منه للمتعلمين والمتأدبين.

قال المؤلف: وأعظم ما أصاب الكتب نمن البلايا في التمزيق والتحريق الفتنة الدينية وذلك لأن الكتاب خير ناطق عن الإنسان. له من الصفات ما يخوله المثل في كل مكان ومن القوة والجرأة ما لا نظير له فاقتضت الحال أن يبدأ بإسكاته قبل كل لسان أي أن يحرق لأنه الناطق الذي لا يسأم كما يسأم المخالفون والمناهضون. فقد أحرق الرومان كتب الإسرائيليين

والمسيحيين والفلاسفة وأحرق الإسرائيليون كتب المسيحيين والوثنيين وأحرق المسيحيون كتب الوثنيين والإسرائيليين وأحرق المسيحيون معظم كتب أوريجين أحد زعماء الكنيسة في القرن الثالث للمسيح وكتب قدماء الملاحدة وأحرق الاردينال كسيميس (وزير إسبانيا والمفتش الديني 1436 - 1517) عندما استولى الإسبان على غرناطة خمسة آلاف مصحف وأحرق أهل المذهب البروتستانتي من البيروتانيين في إنكلترا على أوائل عهد الإصلاح ما لا يحصى من الأديار والآثار القديمة وأحرق كرمفل مكتبة أوكسفورد وكانت من أعجب خزائن الكتب في أوروبا.

ثم عاد المؤلف إلى الكلام على مكتبة الإسكندرية ثانية وبرأ المسلمين من إحراقها فقال: تكلمنا على مكتبة الإسكندرية التي شاع بأنها أحرقت بأمر الخليفة عمر عند استيلائه على الإسكندرية سنة 640 وقلنا أن هذه المكتبة لم يكن لها وجود في ذاك العهد البتة وأن أحد قسميها حرق قضاء وقدرأ سنة 47 قبل المسيح عند هجوم جند يوليوس قيصر وأن القسم الآخر حرق بعد هذا التاريخ بنحو أربعة قرون أي سنة 360 على يد الأسقف أو البطريك تيوفيل الذي كان يرمي إلى إبادة الوثنية في أبرشيته. ولم يعثر على كلمة واحدة قالها مؤرخو ذاك الزمن من عهد حريقها إلى قدوم عمرو بن العاص عامل الإمام عمر ما يستدل منه ويحمل على الفرض بأنه أنشئت في الإسكندرية مكتبة ولا ينبغي أن يعجب من ذلك إذ من أسبابه أن الآداب والفلسفة الوثنية كانت في تلك الحقبة من الدهر قد حكم عليها بالتبديد في كل مكان حتى أن جوستينيانوس أمر بإغلاق مدارس آثينة.

ومعلوم أن ما ينسبونه لعمر من الجواب الذي أجاب به عمرو بن العاص وقد سأل عما يعمل بمكتبة الإسكندرية فقال له: انظر فإذا مكان ما

فيها من الكتب يوافق ما في كتاب الله فلا فائدة منها وإذا كانت مخالفة له فليس لنا بها حاجة فاحرقها. وعلى الجملة فقد قال من أورد هذه القصة أن عمرو بن العاص وزّع هذه المكتبة على حمامات الإسكندرية فاستعانت بها على إحماء حماماتها ستة أشهر مع أن الورق دع عنك الرق إذا صلح لإشعال النار فلا يصلح لأن تدون به طويلاً.

ثم استشهد بقول جان جاك روسو في خطابه في العلوم والفنون: ولو كان غريغوريوس الكبير مكان عمر والإنجيل محل القرآن لكانت مكتبة الإسكندرية بادت أيضاً على أن البابا غريغوريوس المشار إليه (540 - 604) متهم بإحراق كتب القدماء ظلماً كما اتهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولكن التاريخ لا يظلم أحداً.

وقال في كلامه على ما يكتب عليه الكتاب أن الرق هو من اختراع فرغامس (برغامة) في آسيا الصغرى والمطنون أنه عرف قبل خمسة عشر قرناً أما الورق فالأرجح أن الصينيين هم الذين اخترعوه وأن العرب نقلوه إلى أوروبا كما قال الدكتور غستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: إن الكتاب المخطوط العربي الذي عثر عليه القصيري (الطرابلسي) في مكتبة الإسكرويال مكتوب على ورق من القطن ويرد تاريخه إلى سنة 1009 هو أقدم مما عرف من المخطوطات المحفوظة في مكاتب أوروبا تدل على أن العرب كانوا أول من استعاضوا عن الرق بالورق وذلك أن الصينيين كانوا يصنعون الورق من الحرير منذ أزمان بعيدة فدخلت صناعته إلى سمرقند منذ أوائل الصدر الأول للهجرة حتى إذا جاءت العرب تلك المدينة فاتحة رأت فيها معملاً للورق ولكن هذا الاختراع الثمين يصعب الانتفاع به في أوروبا لأن الحرير كان غير معروف فيها اللهم إلا إذا استعيض عن الحرير

بمادة أخرى. وقد ظهر من البحث في مخطوطات العرب القديمة أنهم وصلوا في الحال من صنع الورق إلى درجة من الكمال لم يتجاوزوها ويظهر أنه من الثابت أيضاً أن صنع الورق من الخرق هو من اختراع العرب على ما في صنعه من التعب وما يحتاج إليه من المهارة وذلك لأن ورق الخرق عرف عند العرب قبل أن يعرفه المسيحيون بأزمان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

العامية من الفصحى

كثّر بحث الباحثين هذه الأيام في المقارنة بين اللغة الفصحى واللغة العامية وقد ظفرنا بكتاب اسمه القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب تأليف الشيخ محمد ابن أبي السرور الصديقي من أهل القرن الحادي عشر قال مؤلفه في مقدمته: وبعد فإنني لما طالعت كتاب رفع الإصر عن كلام أهل مصر للعلامة الكامل شيخ أهل الأدب الراقي منه إلى أعلى الرتب الشيخ يوسف المغربي رأيته أتى فيه بالعجب العجائب غير أنه أسهب فيه غاية الإسهاب باستطراده (إلى) بعض الألفاظ اللغوية التي ليست من شرط الكتاب مع ذكره أشعاراً وحكايات من قسم الاستطراد لا معنى لها في هذا التصنيف ولا مدخل لذكرها في هذا التأليف فخطر لي أن ألخص من محاسنه وألنقط درة من مكانه ولم أذكر فيه من اللغة إلا ما له أصل في اللغة العربية الناطق بها أهل الديار المصرية مرتباً ذلك على ترتيب القاموس كأصله وسمّيته القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب. والكتاب مرتّب على حروف المعجم وهو في بضعة كرايس وهاك نموذجاً منه نقلناه وبعضه لا يخلو مما يُنتقد.

يقولون أومى قال في المجرد لا يقال أومى وإنما يقال أوماً أي أشار إليه (قلنا ويقول العامة في الشام فلان كلم فلاناً بالومى أي بالإشارة) ويقولون لقاصد القلعة باباً وفي اللغة العربية بابا الرجل إذا أسرع فيمكن أن يكون البابا

منه لأنه يسرع لقضاء الحاجة. ويقولون للولد الصغير إذا أراد المشي تاتا قال في القاموس تاتا الطفل مشى والتبختر في الحرب. ويقولون عند سقي القهوة جبا وهي قرية باليمن يصير فيها البن الصبري وهو عجيب في الحُسن فكأن الساقى إذا قال جبا أي هذه قهوة من جبا. ويقولون في سوق الحمار حاحا قال في القاموس حاحا إذا دعي الحمار للشرب وأهل مصر تقول ذلك له إذا أرادوا مشيه وتصحيفه جأجأ (?) قال في القاموس معناه حمار وثاب. ويقولون لا تتكأ كاد أي لا تتأخر عن السير. ويقولون هاها بالإبل أي زجرها عند ورودها الماء وهأهأ رجل ضحاك، ويقولون ياما عمل له أصل في اللغة وهو من باب التعجب. ويقولون الأب والأخ مثلاً فيشددون الباء وليس هو خطأ بل له أصل في لغات العرب. ويقولون بيه قال المجدي هو حكاية صوت الصبي والشاب الممتلئ لحماً وصفة الأحمق. ويقولون حوبة قال المجدي ومعناه الضعيف عن الشيء والحوبة البنت والأخت ورقة فؤاد الأم والهم والحاجة والمرأة والسرية كل ذلك يقال له حوبة. ويقولون دُرابة وهو كناية عن أحد ألواح الدكان وله أصل في اللغة كذا نقله صاحب الكتاب المجرد في اللغة. ويقولون رجب الموجب أي المعظم وهو صحيح. ويقولون سبب قال بعض أئمة اللغة أي باع واشترى في الشيء. ويقولون شقلبه أي غيرَه من حال إلى آخر. ويقولون طبطب قال في القاموس الطبطقة صوت الماء وصوت تلاطم السيل وطبطب صوت ويقولون طاب وهو اسم لما يلعبون به واسم الكرة أيضاً ويقولون عرقب في حق الدابة إذا قُطع عرقوبها وله أصل في اللغة. ويقولون علب قال في القاموس العلبة بالكسر آتية من الشجر غليظة يتخذ منها وعاء للشيء. فائدة: العُلبة بالضم النخلة الطويلة وقدح ضخَم من جلود الإبل أو من خشب يُحلب بها.

ويقولون قَبَّ جلدي منه إذا اقشعر وله أصل في كتب اللغة. ويقولون قطب له المزين وهو في صحيح كتب اللغة ويقال قطب الشيء قطعه ثم جمعه وقطب فلان أي غضب. ويقولون للمنغزل عن الناس قطرب وهو صحيح لأنه من جنس الأمراض السوداوية صاحبه يحب الانفراد من الناس وله معان كلها قبيحة وهو بالضم اللص والفأرة والذئب والأمعط والجاهل والجبان والسفيه والمصروع وصغار الكلاب ودوية لا تستريح نهاراً سعيًا. ويقولون فلان أكرب علينا قال في القاموس أي أمرنا بالسرعة. ويقولون كركبة قال المجدي معناه الحركة ويقولون تُت قال المجدي معناه اقعُد وهو صحيح ورد في بعض كتب اللغة. ويقولون ضربته حته معناه حتى اكتفيت فله معنى في كتب اللغة والحت الجواد من الخيل والسريع من الإبل وما يلتزق من التمر والميت من الجراد كل ذلك معناه حته. ويقولون الشيت وهو من الأقمشة قال المجدي والشيت نوع من الأقمشة الهندية. ويقولون فلان يشخت مرادهم وينهر من شدة غيظه وهو صحيح. ويقولون غتّ عليّ بمعنى أدخل عليّ سوءاً وهو صحيح وارد في كتب اللغة. ويقولون للملاح النواتي قال في الزاهر النواتي الملاحون بالبحر الواحد نوتي. ويقولون هتّ علي وهو صحيح في كتب اللغة معناه أسرع في الكلام أو سرد كلامه.

ويقولن فلان هفت من الجوع أي سقط ومنه تهافت الفراش على الفتيلة أي تساقط عليها فكأنه لكثرة جوعه يسقط كذا نقله بعض أئمة اللغة. ويقولون هيّت علينا أي خوفتنا وهو صحيح ورد في بعض كتب اللغة هيت به صاح به ودعاه وهيت قرية بالعراق تنسب إليها الخمرة الطيبة ومنه قول أبي نواس:

هات اسقني قهوة صفراء صافية منسوبة لقري هيت وعانات
ويقولون على لون من الطعام عجة قال بعض أئمة اللغة العُجّة بالضم
طعام من البيض. ويقولون لآلة الدراس نورج وهو صحيح لغوي ويقال
ذلك أيضاً لآلة الحرث والنورجة والنيرجة الاختلاف إقبالاً وإدباراً
والنيرج التمام. ويقولون إذا أُلقي إنسان على وجهه بطحه وهو صحيح
لغوي ويراد منه أيضاً الضرب والغيوبة عند ذلك. ويقولون طرحة قال
في القاموس الطرحة الطيلسان وأما لفظ طرّاحة فليس له أصل في اللغة.
ويقولون بربخ للشيء الذي توضع عليه الجرة وهو صحيح لغوي أيضاً
هو اسم لمجرى الماء والبالوعة يقال لها بربخ قال ذلك في القاموس.
ويقولون في المريض صار مثل الفخ والفخ المصيدة وهو مثل القوس
وهو لئن فشبّه به المريض أي صار مثل القوس اللينة. ويقولون للأطفال
بمعنى الزجر كخّ، نقل حجة الإسلام الغزالي في كتاب الإحياء أن
الإمام الحسين عليه السلام أخذ ثمرة من تمر الصدقة فقال النبي ﷺ:
كخّ فرمى بها من فيه. ويقول زرد عليه إذا خنقه وهو صحيح وارد في
كتب اللغة. ويقولون زرد اللقمة إذا ابتلعها وزرد كنصر خنقه والزرد
الدرع. ويقولون فلان سرّد إذا حصل له النعاس قال في الزاهر السرد
يطلق على النعاس في بعض الأحيان. ويقولون همر علينا إذا وثب
وصاح وهو صحيح لغوي. ويقولون فلان واكر عند فلان إذا كان ملازماً
له وهو صحيح لغوي مأخوذ من وكر الطائر اتخذ له وكرًا وكذلك هذا
الرجل اتخذ صاحبه مثل وكر الطائر في الملازمة. ويقولون راز الشيء
ويروزه يعرف قدره وله أصل في اللغة راز الشيء روزاً جرّبه ليعرف قدره
والراز رئيس البنائين. ويقولون أكلنا عند فلان بسياسة قال في القاموس

البسيصة اتخاذ السويق أو الدقيق أو الأقط بالسمن والزيت ويقولون فلان دحس قال المجدي الدحس هو الذي يخفي الأشياء مكرراً وقال في القاموس الدحس الدساس شيء في التراب. ويقولون فلان عنده عترسة أي شدة قال في القاموس العترسة الأخذ بالشدة والجفاء والعنف والغلظة. ويقولون ناموسية لشيء يعمل من القماش يدخلون فيه زمن الشتاء وهو صحيح لغوي والناموس عريسة الأسد والناموس جبريل عليه السلام ويقولون فلان هلس وهو صحيح لغوي ومعناه إذا تكلم كلاماً غير منتظم ويطلق على سلب العقل وعلى الهزال. ويقولون فلان خربشني بأظافره أي آذاني بها وهو صحيح قال في مختصر الصحاح الخربشة والخرفشة والخرمشة كلها بمعنى واحد. ويقولون طواشي على الخصي وهو صحيح لغوي وارد في بعض كتب اللغة والذي في القاموس الطوش خفة العقل. ويقولون عفش وهو صحيح لغوي يقال عفشه يعفشه جمعه ومن الناس من لا خير فيهم. ويقولون نتش وهو صحيح لغوي قال في الزاهر النتش كالضرب استخراج الشوكة ونحوها وتنتشت اليوم كذا وكذا أي اكتسبت. ويقولون فلان بصبص لي أي نظر إليّ نظراً بعد نظر وهو صحيح لغوي قال في الزاهر البصاصة العين لأنها تبصّ وبصبص الكلب حرك ذنبه والجرو فتح عينيه. ويقولون فلان ممصوص قال في القاموس المصوص الرجل المهزول والمصوصة المرأة المهزولة. ويقولون ساباط قال في مختصر الصحاح الساباط سقيفة بين حائطين تحتها طريق والجمع سوابط وساباط (في لغة أهل الشام الآن سباط وبلغة مصر سباط). ويقولون فوط قال في القاموس الفوط الشيء يجلب من بلاد السند وهي مآزر مخططة فصار يطلق على

غيرها مجازاً ويقولون فلان فطفاطي قال بعض أئمة اللغة هو الأعوج القليل الثبات أو الذي يتكلم بكلام لا يفهم. ويقولون فلان عنده دلاعة قال في القاموس الدلاعة الغاية في الحمق والغفلة والتصاغر وخروج اللسان. ويقولون أخضر مرعرع قال في الزاهر المرعرع الكامل الحسن في الاعتدال والرعرعة اضطراب الماء الصافي على وجه الأرض وترعرع تحرّك وانتشأ أو رعرعه الله أنبته. ويقولون فلان مننع أي عنده عدم في قوته قال في القاموس النعنة ضعف العزيمة بعد قوة والرتة في اللسان والنعناع نبت معروف. ويقولون وكثيراً ما يقع في الأروام غوغا قال بعض أئمة اللغة الغوغا الشر والحرب والغوغا الجراد وشيء يشبه البعوض لضعفه وبه سمّي الغوغاء من الناس. ويقولون فلان مغمغ في كلامه إذا لم يبينه قال في القاموس مغمغ اللحم مضغه ولم يبالغ وكلامه لم يبينه. ويقولون فلان شلاف قال المجدي الشلاف هو الذي يأخذ الشيء من غير حساب. ويقولون شاف الشيء أي نظره قال في القاموس شاف الشيء أي نظره وشفته شوفاً جلوته ودينار مشوف مجلو. ويقولون فلان نثيف وأعطاني نُتفة وكلاهما صحيح لغوي إلا أنهم يحرفونها فيكسرون النون والصحيح الضم قال بعض أئمة اللغة نتف ما تنتفه بإصبعك من شعر أو نبت والتتفة الشيء اليسير. ويقولون شقة قماش قال في القاموس الشقة من الثياب المستطيلة. ويقولون عفقه قال في المجرد عفقه بمعنى أمسكه ويقولون عفلق قال في مختصر الصحاح العفلق الرجل الطويل المسترخي والعفلق الضخم المسترخي والمرأة الخرقاء السيئة العمل والمنطق والرجل الأحمق. ويقولون فلان ربي على قلبي دبله قال في مختصر الصحاح الدبل الطاعون ويطلق على

الداھية وعلى الجمل الصغير. ويقولون فلان زول قال في المجرد الزول
الھيبة العظيمة والزول العجب والجواد والكلأ والخفيف الظريف الفطن
ويقولون حزام قال في المجرد الحزام ما يشد به الوسط. ويقولون طارمة
قال في مختصر الصحاح الطارمة بيت من خشب والغالب أن يكون ذلك
في المراكب وحارة بمصر يقال لها اصطبل الطارمة أي الإصطبل الذي
فيه بيت من الخشب.

عبث الوليد

أبو تمام حبيب الطائي وأبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي وأبو عبادة البحتري هم الشعراء المِعْوَل على شعرهم في المولدين جمعوا إلى جزالة الألفاظ وحسن السبك معاني الحضارة وأساليب الحكمة ولذلك كانت دواوينهم من جملة ما يقضى على طالب الأدب أن يتدارسها ويستظهرها وكانت مما أوصى بتعلّمه ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر كل مشغل بالمنظوم والمنشور لأنها حوت عامة المزايا اللغوية والأدبية. ومن أجل هذا ترى هذه الدواوين قد خُدمت أجل خدمة منذ القديم ولاسيما ديوان أبي تمام وديوان أبي الطيب فنظر فيهما مشاهير اللغويين والعلماء وتعاورتهما الأقلام بالشرح والنقد إلا ديوان أبي عبادة البحتري لم نسمع بأن أحداً من العلماء تصدّى لنقده غير أبي العلاء المعري.

فإن هذا العلامة الحكيم اللغوي أبي أن يغفل كلام البحتري من وضعه على محك انتقاده بعد أن أُلّف في ديواني الطائي والمتنبي كتابين مستقلين دعا الأول ذكرى حبيب والثاني معجز أحمد - فأُلّف في الثالث كتاباً سماه عبث الوليد قال في مقدمته: أثبت ما في ديوان البحتري ما أصلح من الغلط الذي وجد في النسخة المكتوب في آخرها أنها بخط ظفر بن عبد الله العجلي وإنما أثبت ذلك ليكون مولاي الشيخ الجليل أدام الله عزه كأنه حاضر للقراءة ولم يمكن إثبات جميع الأغلاط لأن أكثرها غير محيل

وقد وُصل بذكر شيء مما جرى إليه أبو عبادة من الضرورات وما بجتنبه أمثاله وبالله التوفيق.

قال أبو العلاء في الكلام على قول أبي عبادة:

إذا تشاكلت الأخلاق واقتربت دنت مسافة بين العجم والعرب
إذا وقعت بين في هذا الموقع فالاختبار خفضها وكذلك ترفع إذا وقعت
في موقع رفع كما جاء في الكتاب العزيز لقد تقطع بينكم. أكثر القراء على
الرفع ويجوز النصب فقال قوم يكون الاسم مضمراً كأنه قال لقد تقطع
الوصل بينكم وقال قوم يضمّر ما كأنه قال لقد تقطّع ما بينكم وحسّن حذف
ما ههنا كما حسّن حذف لا إذا قيل والله أفعل أي والله لا أفعل قال امرؤ
القيس:

كلّاً يمين الإله يجمعنا شيء وإخواننا بني جُشما
أي لا يجمعنا. وهذا البيت ينشد بخفض بين ونصبها:

يديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم
فالحفض على الإضافة والنصب وعلى تقدير ما.

وقال المعري في مكان آخر: وكان في النسخة هذه الأبيات التي أولها:
يا أمتا أبصرني راكب يسير في مسحنفر لاحب
والأبيات الثلاثة منها مذكورة في أمالي قوم من العلماء المتقدمة ويجوز
أن يكون غلط بها على أبي عبادة فنسبت إليه أو ظنها بعض الناس من شعر
العرب فألحقها بما يُحكي عنهم والبيت الثالث الثابت في هذه النسخة
لا يوجد في الحكاية المتقدمة وقد اختلف في أشياء من هذا الجنس وربما
حسد بعض فنسب شعره إلى المتقدمين ليؤكد بذلك ويُنقص من قدره.

وحكى بعض الكتاب أنه رأى كتاباً قديماً قد كُتب على ظهره أنشدنا أحمد بن يحيى ثعلب من الجاذر في زي الأعراب. وذكر خمسة أبيات من أول هذه القصيدة وهذا كذب قبيح وافتراء بَيِّن. وإنما فعله مفرط الحسد قليل الخبرة بمظان الصواب غرضه أن يلبس على الجاهل. وقد رويت أبيات أبي عبادة التي في صفة الذئب لبعض العرب ويجب أن يكون ذلك كذباً مثل ما تقدم في حديث البائية التي لأبي الطيب. وقد نسبوا الأبيات التي في صفة الذئب إلى عبد الله بن أنيس صاحب النبي ﷺ وهو من بني الترك راشد بن وبرة ولا ريب أن ذلك باطل والرواية التي يرويها أصحاب اللغة يجيئون بالبيتين الأولين فيجعلونهما من قول الجارية ثم يقول فأجابتها أمها:

الحصن أدنى لو تأييته

على أن هذه الأبيات بعيدة من نمط أبي عبادة وإن كان الشاعر المغزر يجوز أن يأتي بكل فن من القول.

وقال المعري في الكلام على بيت البحري الذي هو:

والخدود الحسان يبهى عليها جلنار الربيع طلقاً وورده
جلنار من أطراف كلام العامة وليس هو اسماً موجوداً في الكلام القديم
ويجب أن يكون المراد به جل نار أي ما عظم من الجمر ثم كثر في كلام
العامة حتى جعلوه كالاسم الواحد وأجروه مجرى الأسماء العربية غير
المركبة. والشعراء والمولدون يعربون الراء فيقولون كأنه جلنار ورأيت
جلناراً ولو أضافوه وقالوا جلّ نار لكان أقيس ولو أنهم جعلوه بمنزلة
حضر موت لوجب أن يقول هذا جلنار ورأيت جلنار ومررت بجلنار فلا
يصرفون ولم يأخذوا به في هذا المنهاج بل أدخلوا عليه الألف واللام

فقالوا الجلنار واجترؤوا على توحيده فقالوا جلنارة فأجروه مجرى تمر
وتمررة وقال بعض المحدثين:

غدت في لباس لها أخضر كما تلبس الورق الجلنارا
ولا أعلم هذا الاسم جاء في شعر فصيح وإنما هو لفظ محدث وكأنه
في الأصل جاء على معنى التشبيه شبهوا حمرة بحمرة الجمر وهو جل
النار ثم تصرفوا في نقله وتغييره وقالوا في تسمية الطعام الفارسي نيرباج
وزعموا أن نير بالفارسية رمان وفارس تنطق بالياء كأنها ألف والألف كأنها
ياء فيجوز أن يكون نار في جل نار من هذا النحو فكأنهم أرادوا جل الرمان
ويجوز أن يكون جل بلسانهم في غير هذا المعنى على أن لغتهم اختلطت
بالعربية وصارت فيها حروف كثيرة من كلام العرب وهم يسمون الفارسية
الخالصة الفهلوية والذين يتكلمون بها اليوم قليل تفتقر إليهم الملوك في
تفسير سير المتقدمين.

وقال في كلامه على بيت:

أسند صدور العملات بوقفة في الماثلات كأنهن المسند
أشبه ما يجعل المسند ههنا أن يكون في معنى خط حمير لأن مذهب
الشعراء في ذلك معروف وإياه قصد أبو عبادة كما قال ذوئيب:

عرفت الديار كرقم الدواة يزبرها الكاتب الحميري
وكانوا يسمون خطهم المسند وسمّوا هذا الخط العربي الجزم لأنه جزم
من ذلك الفن أي قطع وقد يحتمل أن يعنى بالمسند الحديث المسند أي
هذه المنازل قد صار حديثاً يذكر.

وقال في الكلام على بيت:

يغضون دون الاشتيام عيونهم فوق السماط للعظيم المؤمر

الاشتيايم كلمة لم يذكرها المتقدمون من أهل اللغة فإذا سئل من ركب البحر عنها قال البحرىون الذين يسلكون بحر الحجاز يسمون رئيس المركب الاشتيايم فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي الافتعال من شام البرق لأن رئيس المركب يكون عالماً بشؤون البروق والرياح ويعرف من ذلك ما لا يعرفه سواء فكأنه سمي بالمصدر من اشتتام كما قيل رجل زور وهو مصدر زار ودنف وهو مصدر دنف وفي البحر سمكة تعرف بالاشتيايم وهي عظيمة ويجوز أن يكون سميت برئيس المركب كأنها رئيسة السمك وإذا أخذ بهذا القول فهزمة الاشتيايم همزة وصل وإن صار في البيت زحاف قد جرت عادته باستعمال مثله وإن كان الاشتيايم كلمة أعجمية فألفه ألف قطع كألف إبريسم وإبرهيم ونحو ذلك. وقال في قوله:

إن أتبع الشوق أزرأءً عليه فقد جافى من النوم عن عيني ما جافا
قوله أزرأءً عليه رديءٌ وإنما المعروف أزريت به وزريت عليه وقد عابوا
على ابن دريد قوله في رسالة الجهمرة إلى الأزرأء على علمائنا وقد حكى بعض
أهل اللغة أزريت عليه وليس بمعروف وإنما الفصحى أزرى به كما قال الأعشى:
فإن تعهدي لامرئٍ لمةً فإن الحوادث أزرى بها
ومثل هذا ما صححه للبحثري في قوله: إذا استقلت جرد الخيل فقال
أنها غير مستعملة وإنما المعروف إذا استقلت به ويقولون استقل القوم إذا
ساروا غير متعد وإنما أراد بقوله استقلت أقلته ولو قال أقلته لاستقام الوزن
ولعل أبي عبادة كذلك قال: كما أنكر عليه لفظة البرطيل الذي تستعمله
العامة في معنى الرشوة وقال أنه لا يعرف في الكلام القديم وكذلك وردت
لفظة الأطروش في شعر البحثري فأنكرها المعري وقال أنه لا أصل لها في
العربية وقال في:

أخواله للرستمين بفارس وجدوده للتبعين بموكل
 يروى للرستمين على الجمع وكذاك التبعين ويروى بالثنية والجمع
 أشبه لأنه قال أخواله فجمع وكذلك قال جدوده فإن تكون الأخوال
 والجدود لملوك كثيرة أشبه من أن تكون لملكين وموكل اسم موضع
 باليمن ويقال أنها دار مملكة حمير وهو مفتوح الميم والكاف وكذلك
 نقل أهل اللغة وكان أبو عمرو والزاهد يقول الموكل قبة الملك فإن كان
 ذلك شيئاً قديماً سمعه فقد يجوز أن يكون حمل على أن هذا الموضع يقال
 له موكل وهو مقر مملكة القوم والذي يتهم به أبو عمرو يتخرج كثير منه
 على هذا النحو وكأن قبة الملك تسمى موكلاً لأنه يقعد فيها ويكل أموره
 إلى الخدم والحشم وقدم هذه البلاد رجل من أهل نجران ممن يسكن
 في البادية فصيح ينتمي إلى زبيد من مذحج فسمع فتى في المكثب ينشد
 هذه القصيدة فلما انتهى بموكل كسر الكاف فقال النجراني موكل وكذلك
 حكاه أهل العلم.

وقال في كلامه على:

وكنا نرى بعض الندى بعد بعضه فلما انتجعناه دفعنا إلى الكل
 كان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخال الألف واللام على كل
 وبعض وروى الأصمعي أنه قال كلاماً معناه قرأت آداب ابن المقفع فلم
 أر فيها لحناً إلا في موضع واحد وهو قوله: العلم أكبر من أن يحاط ب كله
 فخذوا البعض وكان أبو علي الفارسي يزعم أن سيبويه يجيز إدخال الألف
 واللام على كل لا أنه لفظ بذلك ولكنه يستدل عليه بغيره والقياس يوجب
 دخول الألف واللام على كل وبعض وقد أنشد بعض الناس قول سحيم
 عند بني الحسحاس:

رأيت الغني والفقير كليهما إلى الموت يأتي الموت للكلّ معمدا
هذه نموذجات من كتاب عبث الوليد وقد وقع في 94 ورقة وحوى
فوائد لغوية وأدبية قلما يعثر عليها في الكتب المتداولة وقد جاء في آخره
تم الإملاء المعروف بعبث الوليد وهذه السمة موقوفة بين أمرين أحدهما
أن يراد عبث الوليد الذي هو البحثري والآخر أن يعني الوليد الذي هو
الصبي وكون الرجل سمي بالوليد يحتمل هذه التسمية.

شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويوضع بشرف القائمين به ووضاعتهم وكل علم يشرف ويوضع على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه وغاية تكون وراءه وصناعة الموسيقى هي من إمارات الظرف تعدُّ عند الأمم الحديثة المتحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعهدها العرب إبان حضاراتهم من الكماليات.

قال ابن خلدون والغناء يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم إلى الكمالي وتفتنوا فتحدث هذه الصناعة لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجياته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفتناً في مذاهب الملذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاهر في أمصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويغنون فيها.

قال وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاءً متساوية لم يزل هذا شأنهم في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته فيترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك

كثيراً ما ولم يكن المملوذك عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنّوا جميعاً بالعيدان والطناير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلتّحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم وابنه إسحق وابنه حماد.

قال وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها وكان للموصلين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيره منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس فبالغ في تكريمه وركب للقاءه وأثنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحلّه من دولته وندمائه بمكان فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف. وطما منها بإشبيلية بجر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد الغدوة بإفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صباية على تراجع عمرانها وتناقص دولها. وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعته.

وقال ابن خلدون أيضاً: ولقد عدلت يوماً بعض الأمراء من أبناء

الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالأوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنّين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا تأسيت بأبيه وأخيه أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم؟ فصمّ عن عدلي وأعرض.

هذه زبدة تاريخ الغناء أو الموسيقى في العرب وطرف مما كان من عناية ملوك الإسلام بها أيام الحضارة ولقد انتشرت بعد حتى صار يتعلمها بعض أهل العلم من غير نكير وشرفت بإقبال الكبراء عليها بحيث لم تكن في شرفها دون غيرها من العلوم. فقد ذكر بن أبي أصيبعة أن الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها إلى غاياتها وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه ويذكر أنه صنع آلة غريبة يسمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات وله كتاب الموسيقى الكبير ألفه للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وكتاب في إحصاء الإيقاع وكلام له في النقلة مضافاً إلى الإيقاع كلام في الموسيقى.

ويحكى أن القانون الذي يضرب عليه للطرب هو من وضعه وأنه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم.

وألّف يعقوب بن إسحق الكندي فيلسوف العرب في الموسيقى فكتب رسالة في ترتيب النغم الدالة على طبائع الأشخاص العالية وتشابه التأليف ورسالة في المدخل إلى صناعة الموسيقى ورسالة في الإيقاع ورسالة في الأخبار عن صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى في تأليف النغم وصناعة العود ألفه لأحمد بن المعتصم ورسالة في أجزاء جبرية الموسيقى. وألّف أحمد بن الطيب السرخسي العالم الحكيم كتاب الموسيقى الكبير ولم

يعمل مثله كما ألف كتاب نزهة النفوس ولم يخرج باسمه وكتاب اللوم والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وأنواع الأخبار والملح صنّفه للخليفة.

وَألف ثابت بن قرّة كتاباً في الموسيقى ورسالة إلى علي بن يحيى المنجم فيما أمر بإثباته من أبواب علم الموسيقى ورسالة إلى بعض إخوانه في جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقى. وكان أبو بكر محمد بن طفيل من فلاسفة المسلمين في الأندلس يأخذ رواتب كثيرة مع الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد وغيرهم ويقول لو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم.

وكان ابن باجة الفيلسوف الأندلسي على جلالة قدره متقناً لصناعة الموسيقى جيّد اللعب بالعود قال ابن سعيد أن ابن باجة في الموسيقى بالمغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد. وكان ابن يونس المنجم المشهور يضرب بالعود على جهة التأدب. وكان أبو المجد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويحيد الغناء والإيقاع والزممر وسائر الآلات وعمل أرغناً وبالغ في إتقانه. وكان أبو زكريا يحيى البياسي من أفاضل العلماء جيّد اللعب بالعود وعمل الأرغن أيضاً وحاول اللعب به وكان يقرأ عليه علم الموسيقى. وكان أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي العالم الرياضي الطيب متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيّد اللعب بالعود. وكان أبو الحكم الأندلسي الطيب الشاعر يعرف الموسيقى ويلعب بالعود. وكان الحرث بن كلدة الثقفي أحد أطباء العرب يضرب بالعود تعلم ذلك بفارس واليمن. وكان قسطاً بن لوقا البعلبكي العالم الفيلسوف بارعاً

في علم الموسيقى. وكان أمين الدولة بن التلميذ يحب صناعة الموسيقى وله ميل إلى أهلها. وكان صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر العالم المفضل عالماً بالموسيقى.

وكان نجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة لأنه أمه كانت عالمة بدمشق (وتعرف ببنت دهرين اللوز) فاضلاً في الأدب والطب وله معرفة بالضرب بالعود استوزره الملك مسعود صاحب آمد وحظي عنده. وكان فخر الدين بن الساعاتي الفلكي الفيلسوف الطبيب خدام بني أيوب وتوزر للملك العادل والملك المعظم وكان ينادم هذا ويلعب بالعود. وكان رشيد الدين بن خليفة الطبيب العالم أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى أنه شوهده من تأثر الأنفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابي فكثير إعجاب الملك المعظم به جداً وبعد ذلك أخذه إليه واستمر في خدمته.

وذكر ابن خلكان أن أبا بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور كان في شببته يضرب بالعود ويغني فلما التحى وجهه قال كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يُستظرف فنزع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة.

وكان أبو الحسين علي بن الحمامة آخر فلاسفة الأندلس آخر من برع في الألحان وعلمها وهو من أهل غرناطة قال في نفح الطيب واشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغني به فيطرب سامعيه. وكان الفاضل أبو الحسين بن الوزير أبي جعفر الوقشي آية في الظرف والموسيقى والتهديب وشيخه في هذا الفن أبو الحسين بن الحسن بن الحاسب كان ذا ذوق فيها مع صوت

بديع أشهى من الكأس للخليع قال أبو عمران بن سعيد ما سمعته إلا
تذكرت قول الرصافي:

ومطارح مما تجس بنانهُ لحناً أفاض عليه ماء وقاره
يشني الحمّام فلا يروح لوكره طرباً ورزقُ بنيه في منقاره
وكان محمد بن أحمد بن أبي بكر القرموطي المرسى من أعرف أهل
الأندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب
فيلسوفاً طبيباً ماهراً يقرئ الأمم بالسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي
تعلمها ولما تغلب الإفرنج على مرسية عرف له حقّه فبنى له مدرسة يقرئ
فيها المسلمون والنصارى واليهود قاله في النفع.

وعلى الجملة لم تكن صناعة الموسيقى بالمنزلة التي يصورها أهل
جيلنا من الغضاضة والضعّة بل عرف بها أناس من أهل الصيانة والعلم
وما كان كل من تعاطى صناعة الغناء عارياً من سائر العلوم فقد كان إسحق
بن ابراهيم الموصلي نديم الخلفاء وشيخ الغناء ومع هذا كان من العلماء
باللغة والشعر وإخبار الناس وله يد طويلة في الحديث والفقه والكلام
وكان المأمون يقول لولا ما سبق لإسحق على ألسنة الناس واشتهر بالغناء
لوليته القضاء فإنه أولى وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة
ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع أنه أصغرهما عنده.

ومثل هذا ما وقع لقاضي إشبيلية أبي بكر القاضي أبي الحسن الزهري
فإنه كان كثير اللعب بالشطرنج لم يكن من يلعب به مثله في بلده قال فكانوا
يقولون أبو بكر الزهري الشطرنجي فكان إذا بلغني ذلك أغتاظ ويصعب
عليّ فقلت في نفسي لا بد أن أشتغل عن هذا بشيء غيره من العلم لأنعت به
ويزول عني وصف الشطرنج وعلمت أن الفقه وسائر الأدب ولو اشتغلت

به عمري كله لم يخصني منه وصف أنعت به فعدلت إلى أبي مروان عبد الملك بن زهر واشتغلت عليه بصناعة الطب وكنت أجلس عنده وأكتب لمن جاء مستوصفاً من المرضى الرقاع واشتهرت بعد ذلك بالطب وزال عني ما كنت أكره الوصف به وهذا هو السبب والله أعلم في إخفاء كثير من أهل الوقار والعلم أنهم على جانب من علم الموسيقى والضرب على العود وغيره من أنواع المملوذك. ولولا التقية لانتهى إلينا أسماء كثير ممن تبلغنا عنهم سوى أخبار العلوم المتعارفة على أن الشرف كله اعتباري ولا مانع من الغناء والتلحين إذا لم يتبعهما التلطيخ بحمأة السفاهة والرذيلة.

أما الملوك والأمراء الذين عنوا بالموسيقى قديماً فأكثر من أن يحصوا منهم يزيد ابن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادي وإبراهيم بن عيسى بن جعفر المنصور ومحمد بن جعفر المقتدر والمتوكل والمهدي والمؤيد وطلحة الموفق والطائع والمقتدر وابن المعتز وغيرهم من الملوك المتأخرين والله أعلم.

النقل والناقلون

للتأليف طريقتان طريقة الاعتماد على من سبق لمؤلف ونقل كلامهم ليدعم به قوله ويؤيد رأيه وطريقة إبداء رأي المؤلف مباشرة دون الاستشهاد بأقوال غيره مهما بلغت من المكانة. والطريقة الأولى هي الطريقة العلمية المقنعة التي تبقى على الدهر ويصعب أن يتطرق إليها الخلل إلا إذا ظهرت نصوص كثيرة صحيحة تخالف ما استشهد به الكاتب.

فقد رأى ديكارت الفيلسوف الفرنسي أن ليس في مذاهب الغير ولا سيما في الفلسفة كبير أمر وأنّ الأجدر ولو ببعض أرباب العقول أن يبحثوا عن الحقيقة بما فيها من الأسرار الخاصة دون الاحتفال بالمذاهب الأخرى التي ذهب إليها غيره في هذه المسألة بيد أن بعض إشباع فلسفة ديكارت أنفسهم يرون أن هذا البحث على خلوّه من فائدة ضارّ لأنه يسلب من العقل في تقدير الأشياء قدرها.

ويرى الفيلسوف كوزين الفرنسي غير رأي ديكارت بل أنه غالى في ضرورة درس المذاهب الفلسفية السالفة حتى تدرّج إلى أن مزج الفلسفة بتاريخ الفلسفة ومن رأيه ان الطريقة الفلسفية الوحيدة الجديرة بهذا العصر أن يدرّس المؤلف المذاهب كلها ويقابل بين المذاهب التي ظهرت إلى اليوم على مشهد العقل البشري من المذاهب المتناقضة.

ثم عاد ديكارت أيضاً فقال أن المصنفات التي يصنفها جماعة قد تكون في كمالها دون التي يصنفها فرد واحد وتدرّج من ذلك إلى أن قال أن العلوم التي تألفت على التوالي من آراء كثيرين قد يكون حظها من الأخذ بطرف من الحق أقل من العلوم التي هي ثمرة فكر واحد.

ومن العادة عند مؤلفي الغربيين إذا أرادوا الكتابة أن يطالعوا جميع ما يمكنهم مطالعته في الموضوع الذي يريدون الخوض فيه فيطالع الألماني ما كتبه الإفرنسي والإيطالي والروسي والإنكليزي والأميركي وغيره غيرهم لتكون كتابته مؤيدة بالشواهد الصحيحة ولذا قرأ سبنسر فيلسوف الإنكليز في القرن التاسع عشر 173 كتاباً قبل أن يكتب كتابه «العدل». وهكذا كل مؤلف في الغرب اليوم.

وبعد فما كل قول ينقل ويستشهد به حجة لتأييد الكلام وإنما ينقل قول يكون قائله قدوة وإلا فما من قول إلا وقد قيل كما قال كثير من الحكماء. وقد نشأ من نقل أقوال كيفما اتفق اختلاف كثير حتى أن الباحث إذا دقق النظر يرى أن تلك الأقوال ترجع إلى قول أو قولين ممن يعتد بهم ولو أمكن لكل مؤلف أن يسلك طريقة الجاحظ في قوله: إنما أحكي لك من كل نحلة قول حدّاقهم وذوي أحلامهم لأن فيه دلالة على غيره وغنيّ عما سواه لكان نهج السبيل الأقوم.

ومن نقل كل ما يقال ترى في كتب التاريخ والملل والنحل أقوالاً إذا بحثت عنها لم تجدّها إلا عند بعض أدنى العوام فكراً ولو عين المنقول إليه لسقط موقع القول من النفوس لكن بعض الناقلين لقصورهم في النظر ينقلون كل ما يقال بدون تعيين المنقول عنه ولو عيّنوا المنقول لسقط الإشكال. وكثيراً ما يقصد الحدّاق منهم المغالطة ليوهموا الناظر أن في

المسألة اختلافاً وهو محل دقيق جداً يغلط فيه التحرير العالم على أن بعضهم يرى أن لا ينقل من قول الحدّاق إلا قول له موقع في النفس ومن ثم يقول القائل.

وليس كل خلاف جاء معتبراً إلا خلاف له حظ من النظر وإن أرباب النقد ليبحثون في كل قول عمن قاله ليعلموا درجة القائل في نفسه ودرجته في اقتداء الناس به وبذلك تظهر له الحقيقة في أجلى مظاهرها وقد قال حجة الإسلام الغزالي قولاً قاله كثير ممن قبله لو سكت من لا يعلم قلّ الخلاف في العالم.

سألنا ذات يوم أحد العلماء العارفين عن السر في اختلاف المذاهب والمشاعب المنقولة فقال: وربما نجد في كتب الملل والنحل أسماء فرق لها أقوال غريبة يصعب عليك بعد التتبع الشديد أن تعرف في أي عصر وجدت وأين وجدت وكيف وجدت وفي أي قطر يوجد منهم أناس وإن زعم الزاعم انقراضها يعسر عليه إثبات زمان انقراضها وأغرب من ذلك صعوبة معرفة ترجمة رجل من حدّاقها فذكر فرقة من هذا النوع يعدّ سخافة من الناقل. والذين لهم كتب في هذا المقام منهم الناقل غير الناقد ومنهم المموّة لغلبة الهوى عليه ومنهم من لم تنتشر كتبه عندنا ولو وجدت كتب الجاحظ ومن نحاه نحوه كابن أبي الحديد في هذا الباب مثلاً لكفينا المؤنة في ذلك نعم يقال أن الجاحظ قد يسلك طرق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض معاصريه من أبناء نحلته كأبي جعفر الإسكافي لكن تمويه الجاحظ تمويه عاقل ذي بصيرة إذا موّه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه وقد يصرح بغير ذلك في موضع آخر. فالعاقل ذو البصيرة ينتفع بكلامه كيف كان قال ومن يخلط في نقله كالطبيب الذي ينقل كل قول لا يعود أحد يعتدّ

بمنقوله وكذلك النحوي وغيره وهذه القاعدة تكاد تكون عامة لا تتخلف في كل فن. فقد نقل ابن أبي الحديد أن الجاحظ ألف كتاباً سماه كتاب العثمانية انتصر فيه للخلفاء الراشدين إلا أنه أظهر فيه ما يشعر بالنصب لما اقتضته طينة البصرة على زعم بعضهم فتصدى له من أبناء نحلته الإمام أبو جعفر الإسكافي فنقض كتابه وأطلق لسانه في الجاحظ إطلاقاً لم يقع نظيره من المضادين للجاحظ في النحلة فمن ذلك قوله: القول ممكن والدعوى سهلة سيّما على مثل الجاحظ... قوله لغو ومطلبه سجع وكلامه لعب ولهو يقول الشيء وخلافه ويحسن القول وضده.

قال قاضي القضاة عبد الجبار في كتاب طبقات المعتزلة نقض الإسكافي كتاب الجاحظ في العثمانية في حياته فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال: من هذا الغلام السوادي الذي بلغني أنه تعرض لنقد كتابي وأبو جعفر جالس فاختمني منه حتى لم يره وكان أبو جعفر علوي الرأي محققاً منصفاً قليل العصبية ألف سبعين كتاباً في علم الكلام.

وقصارى القول أنه لا ينقل إلا كلام الثقات والعظماء للاستئناس به وتقوية أو اصر الكلام به وقد ينقل كلام بعض الضعفاء لنكتة فيه أو لعبرة تراد منه. والكتابة بدون استشهاد بأقوال الأئمة والعظماء مهما بلغت درجة صاحبها لا يُلتفت إليها عند المحققين ولو حوت من اللآلئ كل عقد ثمين.

المطبوعات العربية

كان أول كتاب عربي مثل بالطبع في القرن الخامس عشر للميلاد في رومية العظمى كرسي البابوية فطبع على ذاك العهد أمهات من الكتب النافعة كأسفار ابن سينا وغيره وعني الطابعون بتصحيحها ومعارضتها على أصول وقعت إليهم فدلّوا بذلك على أن حب الإتقان واختيار الأجود تكاد تكون غريزة في الغرب ثم انصرفت الرغبة في أوروبا إلى تعلّم لغات الشرق ولا سيما العربية فطبع المستشرقون من الفرنسيين والألمان والهولنديين وغيرهم كتباً جليّة لنا وبذلوا مجهودهم في تصحيحها ووضع الفهارس والمعاجم لها والدلالة على ما فيها من فوائد وأوابد وشوارد، وكل هذه المطبوعات على سقم الحروف التي كانوا يستعملونها في مطابعهم كانت على غاية من جودة الورق ومتانته وجمال الوضع والشكل.

ولما دخل الطبع إلى البلاد العثمانية سنة 1135 هـ تأسست في اسكدار إحدى أحياء الأستانة أول دار للطباعة كان في جملة المطبوع من الكتب العربية بعض كتب دينية وبينها بعض الكتب العلمية والتاريخية إلا أن الطباعة لم تكن على الإتقان المطلوب والعناية بالتصحيح كانت دون عناية الأوروبيين بكثير. أما الفهارس والتبويب فلم يحفلوا بها لما يحتاج وضعها إليه من طول النفس وسعة الصدر وكثرة العلم.

ولما قام محمد علي الكبير في القطر المصري والياً عليها وأراد أن

يجعل لها شأنًا في الحضارة لتدخل في عداد البلاد الراقية كان مما قام به تأسيس المطبعة الأميرية الكبرى فشرعت تطبع الكتب المعنى بها متخيرة لها أجود الحروف وأجود الورق وخيرة المصحّحين والناظرين، وإن بعض الكتب التي نشرتها تلك المطبعة على أوائل عهدها لا تزال إلى اليوم مثال الإجادة ومنها كتاب كلستان الفارسي للحافظ الشيرازي والقاموس المحيط للفيروز آبادي.

وما برحت أحوال المطبعة الأميرية عرضة للقلب والإبدال على ما يكون حال الإدارات والمشاريع في الشرق غالباً تختلف سقوطاً وارتفاعاً بحسب إرادة القائم عليها وهي تطبع مع تلك الكتب القديمة التأليف الأسفار التي عني الشيخ رفاة الطهطاوي وجماعته بتعريبها من اللغات الأفرنجية ولا سيما الأفرنجية فجاءت إلا قليلاً نموذج الجودة شكلاً ووضعاً.

ثم أخذ بعض التجار في أواسط القرن الماضي بمصر يفتحون المطابع ويطبعون الكتب للتكسب منها فقط فوضعت لهم بعض أمهات الحروف ولكنها سقيمة بالقياس إلى حروف المطبعة الأميرية وزادها سقماً أن أولئك الطابعين طفقوا يتخيرون من الورق أرأده ويقتصدون في التصحيح حتى لقد يعهدون به وأكثرهم أميون لا يقرأون الكتاب إلى أناس يماثلونهم في ضعف المدارك والعلم، فكانوا إذا أحسنوا وأجادوا يطبقون المطبوع بالحرف على ما عندهم من الأصل وربما كان في البلد على قيد غلوة منهم خمس نسخ أو عشر من ذاك الكتاب كُتبت في أوقات مختلفة وهم لا تحدثهم أنفسهم بأن يعارضوا عليها نسختهم التي يطبعون عليها وأن يذيلوها كما جرت عادة الأوروبيين بوضع اختلاف النسخ في أسفل

الصفحات، أما التبويب والفهارس المتقنة فليس لها أثر فيما طبعه أولئك المتّجرون ببضاعة العلم.

وعلى ذاك العهد فتحت بعض المطابع في بيروت على يد بعض الجمعيات الدينية المسيحية وكان سبق لبعض الأديار في لبنان أن كان لها مطابع حجرية، طبعت بعض الكتب الدينية واللغوية ومن جملتها شرح الزوزني على المعلقات وهو طبع حجري لا حرفي، فتخيّرت مطابع تلك الجمعيات الكتب الدينية أولاً وأجادت بعض الشيء في طبعها، ثم ارتقت الطباعة إلى أن أصيبت ببائقة المراقبة فانقطعت الرغبات عن الطبع بل زهد الناس في تعلم العربية ورأوا ربحهم المادي من اللغات الأعجمية أكثر وأنشأ دير الفرنسيسكان في القدس مطبعة طبعت بعض كتب وأكثرها في الدين ومثلها دير الدومينيكيين في الموصل طبع مع كتب الدين كتباً علمية قديمة وحديثة ومنها تأليف المطران يوسف داوود العالم المشهور، وأنشئت إذ ذاك في دمشق مطبعتان إلا أنهما لم تطل أيامهما حتى تزيد العناية بإتقان مطبوعاتهما بالاقتصاد من التصحيح والعناية والورق والشكل ورصّ السطور والكلمات بعضها فوق بعض بدون فواصل ولا تقطيع وكانت أكثر مطبوعاتهم في فروع الفقه والنحو والكلام والزهد والخلاعة مما ألفت المتأخرون وفيه من الحشو واللغو والموضوع والمصنوع ما كثر ضرره في عقول الطالبين والمتأدبين.

ومنذ عادت إلى العربية بعض نضرتها الأولى أيام هبّ منذ بضع سنين أناس استناروا بقبس الغرب أصبحت المطابع تستحي من طبع التأليف الساقطة وتستشير أهل الرأي في تخيير المصنفات للطبع ولو عملوا بنصائح العلماء كل حين لما أخرجوا كتاباً للناس قبل بذل الجهد في تنقيحه

وتصحيحه وإتقان طبعه ووضعها ولكن ما الحيلة وهم يعتقدون كما قلنا أن الربح لا يتيسر لهم إلا بمثل هذا الاقتصاد البارد، وما أعجب إلا من طابع يطبع كتاباً يكلفه الألف والألفي ليرة ثم يبخل بعشرات من الليرات أو بعض النسخ جائزة لمن يتقن النظر فيه.

أما سائر المطابع المصرية كمطابع الصحف فلم تطبع شيئاً يذكر من الكتب المهمة وإن كانت أكثر سخاء من أولئك التجار في إتقان الطبع وجودة الورق وحسن التنسيق، ولم نر في المطبوعات التي انتشرت في العهد الحديث أتقن وأجمل وأصح من كتاب المخصّص لابن سيده تعاورته بالتصحيح أيدي بعض العلماء الأخصائيين المحققين فجاء مزيداً في بابه لا نخجل منه إذا نظر فيه عالم أوروبي كسائر مطبوعاتنا الأخيرة.

نقول هذا ونحن على مثل اليقين في أن ما طبع من الكتب العربية في بلادنا ما عدا بعض كتب طُبعت في المطبعة الأميرية في مصر وبعض كتب لغوية أدبية طبعت في المطبعة اليسوعية في بيروت لا ثقة للمستشرقين به، وقد أكد لنا أحدهم أن كل نقل ينقله أحد مؤلفيهم من كتاب عربي طبع في الشرق تسقط مكانته وإن جمهورهم لا يعترف بالصحة إلا لكتاب عربي طبعه أوروبي ولكن هذا لا يخلو من غلو أيضاً.

أليس من العار أن تكون سيرة ابن هشام التي طبعت في ألمانيا أصحّ من الطبعة التي طبعت في المطبعة الأميرية نفسها وهي التي كنا نقرؤها الآن بجودة الطبع واختيار المصححين وقد نبغ منهم فيها أمثال الشيخ نصر الهوريني وأمثاله.

أليس من العار أن يطبع امرؤ القيس الطحان أو (ماكس موللر) الألماني

طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة في مصر فيخرج بجودة تصحيحه وفهارسه على ما تراه وتطبع مصر كتاباً لأحد كبار فقهاء الذين تفاخر بهم وهو كتاب طبقات الشافعية للسبكي فيأتي مشعّناً سقيماً كما تشهد، نعم إن نفس تأليف ابن أصيبعة أرقى وأمتع من مصنف السبكي في بابهِ ولكن إتقان الطبع والتصحيح والفهارس هو الذي نبكي على فقده بين أظهرنا وهو موضوع بحثنا الآن.

أي فرق بين كتاب لنا طبع مرة في أوروبا وأخرى في الشرق، بالله كم تساوي نسخة معجم البلدان لياقوت طبع أوروبا إذا قيسَت بالنسخة التي نقلت عنها وطُبعت في مصر أو كتاب الكامل المبرد المطبوع في أوروبا إذا قيس بالطبعة الثانية المصرية التي نقلت عنه فكانت الصحة تغلب عليها أكثر من الكتب التي نطبعها ابتداءً.

ومن غريب أمر الطابعين في مصر أنهم يستحلون طبع الكتب التي تعب علماء المشرقيات من الأوربيين في إحيائها فيعيدون طبعها بالسقم والمعهود في مطابعنا فتجيء والعين تنبو عن النظر إليها دون الطبعة الأوروبية بمراحل ومع هذا يستنكف أولئك الأمناء أن يشيروا إلى النسخة المنقول عليها تمويهاً بأنهم هم ناقلوها عن أصل مخطوط ظفروا به وتكلّفوا في البحث عنه ضروب المشقة والنفقة كأن أولئك الفضلاء الذين لهم الفضل الأكبر في إحياء مآثر أجدادنا غير أحرى أن يُذكروا بكلمة شكر لمعاونتهم لنا.

وإننا لنرى حتى الآن خزائن الكتب في بلادنا طاغية بالمخطوطات من الأمهات التي تجب المبادرة إلى تمثيلها بالطبع على مناحي الغربيين ونرى طابعينا وكتبيّنا يكررون طبع تلك الكتب المألوفة والمستنير الفكر منهم

يمدّ يده إلى كتاب طبعه أوروبي فعانى عرق القربة في سبيل نيله فيعيد طبعه مدّعيه لنفسه وإنه هو الذي أحياه، وخزائن كتب الأستانة وخزانة دار الكتب المصرية وحدها مملوءة بالنوادير التي لو أحيت على الطريقة التي تجب من العناية لكان فيها الربح الجزيل والشرف الأثيل لطابعيها وناشريها.

لو بذل أرباب المطابع في مصر والشام والأستانة وبغداد وتونس وفاس بعض عناية الأوروبيين بكتبنا قبل أن يمثلوها بالطبع لكان عندنا اليوم من المطبوعات العربية ما نفاخر الأمم بكميته وإتقانه، نحن لا نقول لطابعينا أن يتأنقوا ويبالغوا في التصحيح كما يبالغ أكثر المستشرقين في الطبع بأن يرسلوا أحياناً الملازم المصفوفة حروفها من مملكة إلى أخرى لتعارض على الأصل الآخر الذي هناك أو لتُدفع لعالم متمكّن من الفنّ الذي جعل الكتاب في موضوعه يمرّ عليها نظره، وإنما نريدهم على السخاء المعتدل في التصحيح وجعله من أوليات المسائل في الطبع لا مناص من توسيده إلا للعالمين به كما لا مهرب من إعطاء أجرة المنضد والمرتب والطابع والمجلّد لكل من أراد أن ينشر كتاباً.

طبع بعض مطابع الهند وفارس كتباً عربية كثيرة ومعظمها بالحجر في موضوعات دينية من حديث وفقه وكلام ولكن بعضها على العجمة المستحكمة من ألسن أهل تلك البلاد تكاد تكون أقرب إلى الصحة والضبط من بعض ما طبعه العرب من أرباب الطباعة في هذا الشرق الأدنى.

أما الآن وقد رفع الحجر عن العلم في البلاد العثمانية وأصبحت كالديار المصرية في حرّيتها فالفرض العيني على المتجرين بالكتب والمتمحضين لخدمة الآداب والعلوم أن يسارعوا إلى استنساخ ما حوته خزائنا العامة والخاصة من الأسفار الممتعة ويحذوا حذو الأوروبيين في التصحيح

والشكل والفواصل والتقطيع والفهارس المتنوعة حتى ينتفع المراجع
بفوائد الكتاب لأول وهلة ويسقط على ما يريد معرفته منه بأدنى نظر
دون إنهاك القوى في تصفحه كله على غير جدوى من أجل العثور على
مسألة أو اقتباس جملة، وبذلك يرفعون العار عن العربية الذي يشيعه عنها
الجاهلون فضلها فيرمون كتبنا عنها بأنها معقدة غير متسعة وأن المطالعة
في كتب جعلت جملة واحدة ضرب من العنت وإضاعة الوقت على غير
طائل، وإفناء العمر في باطل وعاطل.

سعة التأليف في الإسلام

من جملة مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق كتابان عظيمان تعددت مجلداتهما فدلّا على اتساع نطاق التأليف في الإسلام أيام كان علماؤه منصرفين إلى العلم والعمل يصرفون أئمن أوقاتهم في خدمة الأمة وهما كتاب الكواكب الدراري في تبويب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري لجامعه الإمام أبي الحسن علي بن عروة الحنبلي من أهل القرن التاسع، وكتاب تاريخ دمشق الكبير لواضعه الحافظ أبي القاسم ابن عساكر من أهل القرن السادس.

هذان السفران الجليلان آيتان ناطقتان على طول نفس أجدادنا وشدة ونائنا وجهالتنا فقد وجد من الأول مجلدات كثيرة ضخمة لا تقل عن ثمانين مجلداً متفرقة ومما وجد منها المجلد الثاني والعشرون بعد المئة بحيث لا يُظن أن الكتاب بلغ أقل من مئة وخمسين مجلداً في التفسير والحديث والأصول والفقه الحنبلي وتراجم الحنابلة ومباحث في الفلسفة والكلام والتاريخ والأدب فهو دائرة معارف إسلامية حقيقية ضمت بين جوانحها أشهر كتابات علماء الحنابلة وكبار مجتهدي الأمة مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن رجب وغيرهم من الأعلام.

وأما تاريخ دمشق فممنه الآن نسختان نسخة في عشرين مجلداً ونسخة وقعت في عشرة مجلدات ضخمة وهي تامة وكان كتب في ثمانين مجلداً.

ولقد جرى ذكره بين حافظ مصر في عهده زكي الدين المنذري وطال الحديث في أمره واستعظامه فقال حافظ مصر: ما أظنّ هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبّه. قال ابن خلكان: ولقد قال الحق ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضيع مثله وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره وما صح له هذا إلا بعد مسودات ما يكاد ينضب حصرها وله غيره تواليف حسنة.

وبعد فإنّ الخالق تعالى وضع في أفراد من كل أمة خاصّيات وملكات قلّما يشاركهم فيها كثيرون وآثامهم هبات يستخدمونها في نفع البشر ونفوساً لا تعرف الملل لدرك مقاصدهم الشريفة. وكلما ارتقت الحضارة في شعب ينبع فيه رجال يصرفون على الإفادة والاستفادة نقد أعمارهم ويتمحصون لإحسان الخدمة حتى لا يكادون يرون السعادة والملاذ والخير وكل ما تطمح إليه نفوس بني الإنسان من المعالي إلا فيما هم بسبيله.

ومن أنعم النظر في تراجم نوابغ العلماء ودرس حياتهم حقّ دراستها لا يلبث أن يزول عجبه إذا شاهد كيف كانوا يستغرقون في أعمالهم ويتفانون فيما أخذوا به نفوسهم فيزهدون في المال والبنين ويفطمون أنفسهم عن حُبّ المناصب والمراتب والزخارف والسفاسف.

كنّا ذات يوم نذكر لأحد أصدقائنا من الأطباء الذين صرفوا شطراً من حياتهم في الغرب اتّساع التآليف في هذه الأمة قديماً فقال أمّا ما يبلغكم عن أكثر المؤلفين في الغرب اليوم من كثرة المصنّفات فليس لأكثرهم منه إلا النظر القليل يكتبه لهم أذكّاء المتخرجين بهم بعد أن يكونوا ثقفوا

عنهم بعض ما له علاقة في الموضوع الذي ألفوا فيه حتى إذا أتوا على آخره يدفعونه إلى أساتذتهم فيجيلون فيه أنظارهم ويمثلونه للطبع مفتتحاً بأسمائهم والمصنف منهم من يذكر أنّ تلميذه فلان أعانه في التأليف وبعضهم يضنون بمثل هذه الإشارة.

ولما أوردنا أسماء كثير ممن اشتهروا في الإسلام وألفوا التواليف الممتعة الضخمة وعنوا وحدهم في الأكثر بجمعها وتنسيقها وتصنيفها وتبييضها وتسويدها وإن ما أثر عنهم كان مردوداً لو لم يرد على لسان أهل العدل والصدق من المؤرخين وعلماء التراجم وبعضهم قد يكذبون من أضدادهم وحاسيدهم - عند ذلك اقتنع صاحبنا بصحة رأينا وقال أن حال الإفرنج اليوم يخالف حال سلفنا فإن الإفرنجي مهما بلغ من حبه الحكمة وتفانيه في خدمة المعارف يقطع له أوقاتاً لراحته وإدخال الفرح على قلبه لينشط إلى متابعة السير في عمله أما الشرقي فإنه يفرط فيما تمحض له فحاله إما تعب ليس وراءه غاية أو راحة ما بعد ورائها وراءاً.

افتح أيّ كتاب من كتب التراجم ولا سيما تراجم أهل القرون الستة الأولى للإسلام تسقط على مبلغ عناية رجالنا بالتأليف وتوفرهم على النفع وقد يظنّ أن معظم ما خلفوه من كتبهم هو ديني محض ولا أثر لهم في العلوم الدنيوية ولكن هذا الظن لا يغني من الحق شيئاً، لأن جماهير المؤلفين المجيدين لم يكونوا متمكّنين من علوم الدين بإغفال علوم الدنيا، بل إنهم كانوا يعتقدون بأن العلوم بأسرها نافعة في الدارين وما نفع في هذه الأولى كان خليقاً بأن ينفع في الأخرى.

هذا أبو محمد حزم الظاهري وأهل الظاهر نفاة القياس والتعليل وهو معدود في الطبقة الأولى بين علماء الدين، ومع هذا تجد له تأليف ممتعة فيما

نعتبره من علوم الدنيا فقد ذكر غير واحد من علماء الأندلس أن تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين نحو من أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة 310 وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ومن جملة تأليفه التفسير الكبير والتاريخ الذي هو أصحّ التواريخ وأثبتها وكلاهما مطبوع متداول وهو الذي قال لتلاميذه: هل لكم أن أملي عليكم كتاباً في التاريخ قالوا وكم يكون حجمه؟ فقال ثلاثون ألف ورقة فاستعظموا ذلك وأرادوه على الاختصار حتى أملاه عليهم في ثلاثة آلاف ورقة، فجاء كما رأيناه اليوم أحد عشر مجلداً ضخماً أعلاه بهذا القدر وهو يحوّل ويقول ماتت الهمم لأن تلاميذه لم يوافقوه على جعل تاريخه في ثلاثين ألف ورقة فماذا كان يقول لو جاء في هذا العصر ورأى انحطاط علوم الدين وعلوم الدنيا بين قومه.

وابن جرير في إجادته في التأليف وإكثاره منه مشهور كسائر من تقدمه ومن تأخر عليه من المصنفين مثل ابن تيمية من أهل القرن الثامن فقد قال فيه أحد واصفيه أن له من المؤلفات والقواعد والفتاوى والأجوبة والرسائل والتعليق ما لا ينحصر ولا ينضب ولا أعلم أحداً من المتقدمين ولا من المتأخرين جمع مثل ما جمع ولا صنّف نحو ما صنّف ولا قريباً من

ذلك مع أن تصانيف كان يكتبها من حفظه، وكتب كثيراً منها في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه ويراجعه من الكتب. وقال غيره كان الإمام يكتب في اليوم واللييلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصولين أو من الرد على الفلاسفة الأوائل نحواً من أربعة كراريس أو أزيد وما يبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلد وجمع بعض الناس فتاويه بالديار المصرية مدة مقامه بها سبع سنين في علوم شتى فجاءت نحو ثلاثين مجلداً وقيل إن تأليفه تبلغ ثلاثمائة مجلد.

ومثله أبو الفرج ابن الجوزي الواعظ من علماء القرن السادس صنف في فنون عديدة وكتبه أكثر من أن تعدّ وكتب بخطه شيئاً كثيراً والناس يغالون في ذلك حتى يقولون أنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل ويقال أنه جمعت برّاية أقلامه التي كتب بها حديث الرسول فحصل منها شيء كثير وأوصى أن يسخّن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ففعل ذلك فكفت وفضل منها.

ومن المكثرين من التأليف ابن الهيثم الرياضي الطبيعي فقد عدد ابن أبي أصيبعة مصنفاته في زهاء أربع صفحات، هذا عدا ما ضاعت دساتيره منه لما فارق البصرة والأهواز وانتقل إلى مصر قال: وما أظنها تنقص عن مئة مجلد. ومثله الفارابي أحد فلاسفة الإسلام كان مكثراً من التأليف وقد أضاع أكثرها لأنه كان يكتب في رقاع كيفما اتفق ويختار الفلاة ومجاري الأنهار للتأليف فتطير الأوراق التي يكتبها.

ومثلهما أبو الريحان البيروني قال ياقوت: كان لغويّاً أديباً له في الرياضيات والنجوم اليد الطولى ولما صنف القانون المسعودي أجازه

السلطان بحمل فيه فضة فردّه للاستغناء عنه، وكان مكباً على تحصيل العلوم منصباً على التصنيف لا يكاد يفارق يده القلم وعينه النظر وقلبه الفكر. دخل عليه بعض أصحابه وهو يوجد بنفسه فقال له في تلك الحال كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة فقال: أفي هذه الحال؟ قال: يا هذا أودّع الدنيا وأنا عالم بها أليس خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها قال: فذكرتها له وخرجت فسمعت الصريخ عليه وأنا في الطريق. قال ياقوت: وأما تصانيفه في النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فإنها تفوت الحصر ورأيت فهرستها في وقف الجامع بمرو في ستين ورقة. وقال بعض مترجميه: إن كتبه زادت على حمل بعير.

والبيروني أحد كبار فلاسفة العرب يجيء في طبقة ابن سينا وابن رشد وابن زهر والفارابي ومثلهم الكندي فيلسوف العرب وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والأرثماطيقى والموسيقى والنجوم وغير ذلك. وقد عدد أسماءها ابن النديم في ست صفحات. ومثله أبو بكر بن زكريا الرازي صاحب المصنفات الممتعة في الطب والعلوم العقلية والأدب وهو الذي استنار الغربيون لأول نهضتهم بمصنفاته وأول ما طبع عندهم من تأليف العرب كتبه ذكر أسماءها ابن أبي أصيبعة في نحو سبع صفحات وابن النديم في ثلاث. ومن المكثرين من التأليف في عهد الحضارة الإسلامية حنين بن اسحق وثابت بن قره ويعقوب بن اسحق الكندي وقد ساق ابن أبي أصيبعة تأليف آخرهم في خمس صفحات وكلها كتايف حنين وثابت فلسفية علمية وهم أئمة النقل من اليونانية إلى العربية.

ومن المكثرين من التأليف المجودين فيها حجة الإسلام الغزالي

والماوردي وعمر بن بحر الجاحظ وجار الله الزمخشري وهذان الأخيران من أئمة المعتزلة. قيل في الأول أن تأليفه تعلّم العقل وفي الثاني أن تأليفه يُكتفى بها في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان والأدب. ومن المكثرين الموجودين من أئمة المعتزلة القاضي عبد الجبار قيل أن تأليفه التي وضعها في كل فن أربعمائة ألف ورقة ومن أئمة المعتزلة كثيرون من جاوزت مؤلفاتهم المئة والخمسين ألف ورقة.

ومن المؤلفين الأول المكثرين من التأليف هشام الكلبي العالم بالنسب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها المتوفى سنة 206 ذكر كتبه ابن النديم في نحو ثلاث صفحات وهي تزيد على مئة وخمسين ومنهم المدائني المتوفى سنة 215 في نحو أربع صفحات ومنهم المرزباني من أهل القرن الرابع قال إن تأليفه بلغة ألوفاً من الأوراق ومن الفقهاء والحفاظ المكثرين من التأليف محمد بن إدريس الشافعي وداود بن خلف الأصفهاني وأبو العباس بن سريح المعروف بالباز الأشهب من أئمة الشافعية كانت فهرست كتبه تشتمل على أربعمائة مصنف. وقيل أن تصانيف الحافظ أبي بكر ابن البيهقي تبلغ ألف جزء ولأبي بكر ابن الخطيب صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة 463 قريب من مئة مصنف وللنسفي من كتب الأصول والفقه والحديث والأدب والتاريخ ما يقرب من مئة مصنف، وكان ابن سبعين ممن صنف تصانيف كثيرة وللأشعري خمسة وخمسون تصنيفاً.

وكان أبو حاتم البستي من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ قال ياقوت وكانت الرحلة بخراسان إلى مصنفاته. وروى عن ابن ثابت أن من الكتب التي تكثر منافعها إن كانت على قدر ما ترجمها واصفها مصنفات أبي حاتم محمد بن حيان البستي التي ذكرها لي مسعود بن ناصر

الشجري ووقفني على تذكرة بأسمائها ولم يقدر لي الوصول إلى النظر فيها لأنها غير موجودة بيننا ولا معرفة عندنا، وأنا أذكر منها ما استحسنت سوى ما عدلت عنه وأطرحته وهنا عدّها فجاءت زهاء مائتين وخمسين جزءاً وبلغت مصنفات أبي بكر بن فورك المتكلم الأصولي النحوي الواعظ قريباً من مائة مصنف. ولفظة المتكلم تُطلق على من يعرف علم الكلام وهو أصول الدين وإنما له علم الكلام، لأن أول خلاف وقع في الدين كان في كلام الله عز وجل أمخلوق هو أم غير مخلوق؟ فتكلم العباس فيه فسمي هذا النوع من العلم كلاماً اختص به وإن كانت العلوم جميعها تنشر بالكلام. ولأبي الحسين الرواندي صاحب المقالة المشهورة في علم الكلام وهو الذي ينسب إليه اليوم ظلماً كلّ كلام فيه سفسطة ومغالطة وكفر من التأليف نحو مائة وأربعة عشر كتاباً مع أنه لم يتجاوز الأربعين من عمره.

ولرأس المتصوفة محيي الدين بن عربي تأليف كثيرة ومنها الممتع ذكر في إجازة كتبها للملك المعظم أنه أجازه أن يروي عدد مصنفاته ومن جملتها كذا وكذا حتى عدّ نيفاً وأربعمائة مصنف وألف رسالة عدّد فيها كتبه كما جرت عادة بعض المؤلفين أن يترجموا أنفسهم ويذكروا مؤلفاتهم في رسائل خاصة مخافة أن يدسّ عليهم بعضهم ما لا يروقهم ويقول فيهم ما ليس فيهم.

وابن سعيد الأندلسي المؤرخ من المكثرين من التأليف منها المرقصات والمطربات والمقتطف من أزاهر الطرف والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد والموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار وهما المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق وغير ذلك قال لسان

الدين حدثني الوزير أبو بكر بن الحكيم أنه خلف كتاباً يسمى المرزومة يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والإخبارية إلا الله تعالى.

ومن المكثرين من التأليف لسان الدين بن الخطيب وأبو العلاء المعري ولهذا كتاب سماه الأيك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف يقارب المئة جزء في الأدب قال ابن خلكان: وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف وقال لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد. ومن المكثرين القاضي الفاضل قال ابن خلكان: أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره أن مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد وكان الحاجب المنصور أبو بكر بن عبد الله بن مسلمة المدعو بالأفطس أديباً جليلاً ومن تأليفه الكتاب المظفري المسمى بالتذكرة في خمسين مجلداً. وكتب عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف نحو مئة وخمسين كتاباً وذلك في سياحات له طويلة دامت نحو أربعين سنة ساحها بين العراق والشام ومصر والروم.

ومن المكثرين من التأليف والمتوسعين فيه أحمد بن أبان بن السيد اللغوي الأندلسي يعرف بصاحب الشرطة وهو مصنف كتاب العالم في اللغة نحو مئة مجلد مرتّب على الأجناس بدأ بالفلك وختم بالذرة وله في العربية واللغة كتب أخرى. ومثله ابن سيدة الضرير صاحب المخصص والمحكم وغيره وهو من المكثرين من التأليف والحفظ ومن المكثرين أبو اسحق إبراهيم بن الأعلم البطليوسي له نحو خمسين تأليفاً. وبلغت تأليف محمد أبي طالب القرطبي المتوفى سنة 437 - 77 تأليفاً وألف عيسى بن

عمر النحوي نيفاً وسبعين مصنفاً في النحو قال سيبويه جمعها بعض أهل اليسار وأتت عنده عليها آفة فذهبت ولم يبق في الوجود سوى كتابين ولو تنافس أهل العلم وغلاة الكتب بمثل هذه الكتب لتعاورتها الأيدي بالنسخ ولما فُقدت.

ومن المكثرين من التأليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة 238 قال المقرئ رأيت في بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفاً ومن أشهرها كتاب الواضحة في مذهب مالك. ولأبي عمرو الداني القرطبي من علماء القرآن مئة وعشرون مصنفاً وكان يقول ما رأيت شيئاً قط إلا كتبه ولا كتبه إلا حفظته ولا حفظته فنسيته وآخر من له التأليف الكثيرة من أئمة الأندلس أبو الحسن القلصادي المتوفى سنة 891 وأكثر تصانيفه في الحساب والفرائض.

وممن عرفوا بسعة التأليف أحمد بن أبي عبد الله على مذهب الإمامية فإن ما كتبه بلغ مائة تصنيف عددها ياقوت في معجم الأدباء ومن فقهاء الإمامية أبو النصر العياشي ذكر ابن النديم أسماء كتبه في نحو صفحتين.

ويقال أن تواليف أبي جعفر بن النحاس تزيد على خمسين منها شرح عشرة دواوين للعرب وذكروا أن محمد بن جماعة من أهل القرن الثامن كان أعجوبة زمانه في العلم وليس له في التأليف حظ مع كثرة مؤلفاته التي جاوزت الألف فإن له على كل كتاب أقرأه التأليف والتأليفين والثلاثة وأكثرها من شرح مطول ومتوسط ومختصر وحواش ونُكَّت إلى غير ذلك وكان يعرف علوماً عديدة منها الفقه والتفسير والحديث والأصلاص والجدل والخلاف والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق والهيئة والحكمة والزيج والطب والفروسية والرمح والنشاب والدبوس

والثقاف والرمل وصناعة النفط والكيمياء وفنون آخر وعنه أنه قال: أعرف ثلاثين علماً لا يعرف أهل عصري أسماءها.

ومن الذين أكثروا من التأليف أحمد بن مكتوم من أهل القرن الثامن وعبد الرحمن الأنباري من أهل القرن السادس وعيسى الإسكندراني من أهل القرن السادس وتقي الدين السبكي من أهل القرن الثامن وله مئة وخمسون تصنيفاً والجلال السيوطي من أهل القرن العاشر أطلعنا على فهرست كتبه في سبع ورقات وربما لا تقلّ عن أربعمئة مجلد وفيها الجيد.

وأعجوبة المؤلفين أبو موسى جابر بن حيان قال: ألّفت ثلاثمئة كتاب في الفلسفة وألفاً وثلاثمئة كتاب في الحيل على مثال كتاب تقاطر (؟) وألفاً وثلاثمئة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب ثم ألّفت في الطب كتاباً عظيماً وألّفت كتباً صغاراً وكباراً وألّفت في الطب نحو خمسمئة كتاب إلى أن قال: ثم ألّفت كتباً في الزهد والمواعظ وألّفت كتباً في العزائم كثيرة حسنة وألّفت كتباً في النيرنجيات وألّفت في الأشياء التي يُعمل بخواصها كتباً كثيرة ثم ألّفت بعد ذلك خمسمئة كتاب نقداً على الفلاسفة ثم ألّفت كتاباً في الصنعة (الكيمياء) يعرف بكتب الملك وكتاباً يعرف بالرياض.

وماذا عسانا أن ندوّن هنا ونقتبس من كلام المؤرخين في المكثرين من المؤلفين العارفين، ولو أردنا أن نذكر فقط من لهم منهم إلى عشرة كتب لاستغرق الكلام مجلد سنة من مجلّتنا برأسه. وإنّا ليحزننا يوم نذكر أن كل واحد ممن ذكرنا خلف للأمة خزانة كتب من مصنفاته ونلتفت الآن عن إيماننا وعن شمائلنا فلا نرى المؤلفين في الأقطار العربية يعدّون على الأصابع والمكثّر منهم من لا تتجاوز مصنفاته العشرة.

مناظرة القنائي والسيرافي

من المناظرات الجميلة بأسلوبها وجمال إنشائها ما جرى بين متى بن يونس القنائي وبين أبي سعيد السيرافي نقبستها من الجزء الثالث من معجم الأدباء الذي صدر مؤخراً ليطلع القراء على أفكار الفيلسوف وأفكار نحوي وها نحن نقدم قبل إيراد المناظرة مختصر ترجمة المتناظرين وناقل كلامهما ليكون القراء على بينة ممن يتلو كلامه.

أما متى بن يونس أو يونان أبو بشر وهو من أهل دير قنى ممن نشأ في أسكول مرماري قرأ على قوقري وعلى روفيل وبنيامين ويحيى المروزي وعلى ابن أحمد بن كرنيب وله تفسير من السرياني إلى العربي وإليه انتهت رئاسة المنطقتين في عصره وكان نصرانياً وتوفي ببغداد يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ولمت من الكتب مقالة من مقدمات صدر بها كتاب أنالوطيقا كتاب المقاييس الشرطية وشرح كتاب إيساغوجي لفرفوريوس.

وأما أبو سعيد الحسن السيرافي فيتلخص مما قاله ياقوت في معجم الأدباء أن سيراف بليد على ساحل البحر من فارس كان أبوه مجوسياً اسمه بهزاد فسمّاه أبوه أبو سعيد عبد الله وقال أبو حيّان في كتابه الذي ألفه في تقرّيط عمرو بن بحر وقد ذكر جماعة من الأئمة كانوا يقدّمون الجاحظ ويفضّلونه فقال: ومنهم أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ وإمام الأئمة

معرفة بالنحو الفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة فما وُجد له خطأ ولا عُثر له على زلة وقضى ببغداد وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقة بخطة في السليمانى فما جراه فيه أحد ولا سبقه إلى تمامه إنسان هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرواية صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله ومات سنة 368.

هذا أما أبو حيان التوحيدى فهو المتكلم الصوفى صاحب المصنّفات ومنها كتاب البصائر والإشارات وغيرهما وكتاب المقابسات وكان إماماً في النحو واللغة والتصريف فقيهاً مؤرخاً وصفه ابن النجار أنه كان فقيراً صابراً متديناً وأنه كان صحيح العقيدة إلا أن بعض المؤرخين رموه بالكذب وقلة الدين والمجاهرة بالبهتان وإنه تعرض لأمر جسام والقدح في الشريعة والقول بالتعطيل قال ابن الفارس:

ولقد وقف سيدنا صاحب كافي الكفاة على بعض ما كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد فطلبه ليقطعه فهرب والتجأ إلى أعداءه ونفق عليهم بزخرفه وأفكه ثم عثروا منه على قبيح دخلته وسوء عقيدته وما يبطنه من الإلحاد ويرومه في الإسلام من الفساد وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح فطلبه الوزير المهلبى فاستتر منه ومات في الاستتار.

وعده أبو الفرج ابن الجوزي في تاريخه أحد زنادقة الإسلام الثلاثة وهم الراوندى وأبو حيان التوحيدى وأبو العلاء قال وأشدّهم على الإسلام أبو حيان لأنه جمجم ولم يصرح. قال السبكي أنه وقع على كثير من كلامه فلم يجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس مزدرياً بأهل عصره ولا يوجب

هذا القدر. قلنا وما كان طلب صاحب ابن عباد لأبي حيان إلا لأن هذا وضع كتاباً سماه مثالب الوزيرين ضمنه معائب أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وتحامل عليهما وعدّد نقائصهما ومن كتبه أيضاً الإمتاع والمؤانسة في مجلدين وكتاب الصديق والصدّاق وكان موجوداً في السنة الأربعمئة. وإليك الآن هذه المناظرة الغريبة.

قال أبو حيان: ذكرت للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى واختصرتها فقال لي اكتب هذه المناظرة على التمام فإن شيئاً يجري في ذلك المجلس النبیه وبين هذين الشيخين بحضرة هؤلاء الأعلام ينبغي أن يغتنم سماعه وتوعى فوائده ولا يتهاون منه في شيء فكتبت:

حدثني أبو سعيد بلمع من هذه القصة فأما علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح فإنه رواها مشروحة قال: لما انعقد المجلس سنة عشرين وثلثمائة قال الوزير ابن الفرات للجماعة: (وفيهما الخالدي وابن الإخشيد والكندي وابن أبي بشر وابن أبي رباح وابن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهرى وعلي بن عيسى بن الجراح وأبو فارس وابن رشيد وابن العزيز الهاشمي وابن يحيى العلوي وابن طغج من مصر والمرزباني صاحب بني سامان) أريد أن يتدب منكم إنسان لمناظرة متى في حديث المنطق فإنه يقول لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حوينا من المنطق وملكناه من القيام واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده وأطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه. فأحجم القوم وأطرقوا فقال ابن الفرات: والله إن فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما ذهب إليه وإني

أعدّكم في العلم بحاراً وللدين وأهله أنصاراً وللحق وطلابه مناراً. فما هذا التغامز والتلامز اللذان تجلون عنهما. فرفع أبو سعيد السيرافي رأسه وقال: اعذر أيها الوزير فإن العلم المصون في الصدور غير العلم المعروف في هذا المجلس على الأسماع المصيخة والعيون المحدقة والعقول الجامدة والألباب الناقدة لأن هذا يستصحب الهيبة والهيبة مكسرة ويجتلب الحياة والحيا مغلبة وليس البراز في معركة غاصّة كالصراع في بقعة خاصة.

فقال ابن الفرات: أنت لها يا أبا سعيد فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك والانتصار لنفسك راجح على الجماعة بفضلك. فقال أبو سعيد: مخالفة الوزير فيما يأمره هجنة والاحتجاج عن رأيه إخلال إلى التقصير ونعوذ بالله من زلة القدم وإياه نسأل حسن التوفيق في الحرب والسلم ثم واجه متى فقال: حدثني عن المنطق ما تعني به فإننا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطأه على سنن مرضية وعلى طريقة معروفة. قال متى: أعني به أنه آلة من الآلات يعرف به صحيح الكلام من سقيمه وفساد المعنى من صالحه كالميزان فإنني أعرف به الرّجحان من النقصان والشائل من الجانح.

فقال له أبو سعيد: لأخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالعقل إن كنا نبحث بالعقل هبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن، من لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه أو رصاص وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك وفي تحقيقه كان اجتهادك إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد وبقيت عليك وجوه فأنت كما قال الأول:

وبعد فقد ذهب عليك شيءٌ ها هنا ليس كل ما لدينا في الدنيا يوزن بل فيها ما يوزن وفيها ما يكال وفيها ما يذرع وفيها ما يمسح وفيها ما يحزر وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المرئية فإنه أيضاً على ذلك في المعقولات المقروءة، والإحساس ظلال العقول وهي تحكيها بالتبعيد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة. ودع هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه وأن يتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكروه رفضوه. قال متى: إنما يلزم ذلك لأن المنطق بحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة وتصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس في المعقولات سواء. ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم وكذلك ما أشبهه. قال أبو سعيد: لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البيّنة في أربعة وأربعة إنهما ثمانية زال الاختلاف وحضر الاتفاق ولكن ليس الأمر هكذا ولقد موّهت بهذا المثال ولكم عادة في مثل هذا التمويه. ولكن ندع هذا أيضاً إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد لزمّت الحاجة إلى معرفة اللغة؟ قال: نعم. قال أخطأت: قل في هذا الموضع بلى. قال متى: بل أنا أقلّدك مثل هذا. قال أبو سعيد: فأنت إذاً لست تدعونا إلى علم المنطق بل إلى علم تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة يونان فكيف صرت تدعو إلى لغة لا تفي بها وقد عفت منذ زمان طويل وباد

أهلها وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها على أنك تنقل من السريانية فما تقول في معان متهولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية. قال متى: يونان وإن بادت مع لغتها فإن الترجمة قد حفظت الأغراض وأدّت المعاني وأخلصت الحقائق. قال أبو سعيد: إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت وقوّمت وما حرّفت ووزنت وما جزفت ولا نقصت ولا زادت ولا قدّمت ولا أخرت ولا أخلّت بمعنى الخاص والعام ولا بأخصّ الخاص ولا بأعمّ العام وإن كان هذا لا يكون وليس في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني، فكأنك تقول بعد هذا لا حجة إلى عقول يونان ولا برهان إلا ما وصفوه ولا حقيقة إلا ما أبرزوه. قال متى: لا ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه وعن كل ما يتّصل به ويفصل عنه وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصناعة ولم نجد هذا عند غيرهم. قال أبو سعيد: أخطأت وتعصّبت وملت مع الهوى فإن العلم مبثوث في العالم ولهذا قال القائل:

العلم في العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث
وكذلك الصناعات مفوضة على جميع من على جديد الأرض ولهذا
غلب علم في مكان دون مكان وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة وهذا
واضح والزيادة عليه مشغلة، ومع هذا فإنما كان يصح قولك ويسلم دعواك
لو كانت يونان معروفة بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة والفطرة الظاهرة
والبينة المخالفة وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا ما قدروا ولو قصدوا أن يكذبوا
ما استطاعوا وأن السكينة نزلت عليهم والحق تكفّل بهم والخطأ تبرأ منهم

والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم والردائل بعدت عن جواهرهم وعروقتهم، وهذا جهل ممن يظن بهم وعناد ممن يدعيه عليهم بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء ويصدقون في أمور ويكذبون في أمور ويحسنون في أحوال ويسئون في أحوال. وليس واضح المنطق يونان بأسرها إنما هو رجل منهم وقد أخذ عنمن قبله كما أخذ عنه من بعده وليس هو حجة على هذا الخلق الكثير والجّم الغفير وله مخالفون منهم ومن غيرهم، ومع هذا فالاختلاف في الرأي والنظر والبحث في المسألة والجواب سنخ وطبيعة فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف أو يحله أو يؤثر فيه؟ هيهات هذا محال. ولقد بقي العالم بعد منطقته على ما كان قبل منطقته وامسح وجهك بالسלוّة عن شيء لا يستطيع لأنه مفتقد بالفطرة والطباع وأنت فلو فرغت بالك وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللغة التي تحاورنا بها وتجارينا فيها وتدرس أصحابك بمفهوم أهلها وتدرس كتب يونان بعادة أصحابها لعلمت أنك غني عن معاني يونان كما أنك غني عن لغة يونان وها هنا مسألة: أقول أن الناس عقولهم مختلفة وأنصباؤهم منها متفاوتة. قال: بالطبيعة. قال: فكيف يجوز أن يكون ها هنا شيء يرتفع به الاختلاف الطبيعي والتفاوت الأصلي؟ قال متى: هذا قد مرّ في جملة كلامك آنفاً. قال أبو سعيد: فهل وصلته بجواب قاطع وبيان ناصع دع عنك هذا أسألك عن حرف واحد هو دائر في كلام العرب ومعانيه متميزة عند أهل العقل فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطاطاليس الذي تدلّ به وتباهي بتفخيمه وهو الواو وما أحكامه وكيف مواقعه وهل هو على وجه واحد أو وجوه؟. فبهت متى وقال: هذا نحو والنحو لم أنظر فيه لأن لا حاجة بالمنطقي إلى النحو وبالنحوي حاجة إلى

المنطق، لأن المنطق يبحث عن المعنى والمنطق يبحث عن اللفظ فإن مر المنطقي باللفظ فبالعرض، وإن عبر النحوي بالمعنى فبالعرض والمعنى أشرف من اللفظ واللفظ أوضح من المعنى. قال أبو سعيد: أخطأت لأن المنطق والنحو واللفظ والإفصاح والإعراب والأنباء والحديث والأخبار والاستخبار والعرض والتمني والحض والدعاء والنداء والطلب كلها من وادٍ واحد بالمشاكلة والمماثلة. ألا ترى أن رجلاً لو قال نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق وتكلم بالفحش، ولكن ما قال الفحش وأعرب عن نفسه، ولكن ما أفصح وأبان المراد، ولكن ما أوضح أو فاه بحاجته، ولكن ما لفظ أو أخبر، ولكن ما أنبأ لكان في جميع هذا مخرفاً ومناقضاً وواضعاً للكلام في غير حقه ومستعملاً للفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره. والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى وإن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي، ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان يقفوا أثر الطبيعة بأثر آخر من الطبيعة، ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان لأن مستعملي المعنى عقل والعقل إلهي ومادة اللفظ طينية، وكل طيني متهافت وقد بقيت أنت بلا اسم لصناعتك التي تنتحلها وآلتك التي تزهى بها إلا أن تستعير من العربية لها اسماً فتعار ويسلم لك بمقدار وإن لم يكن لك من بد من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة، فلا بد لك من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثقة والتوقي من الخلّة اللاحقة بك. قال متى: يكفيني من لغتك هذا الاسم والفعل والحرف فأني أتبلغ بهذا القدر إلى إغراض قد هذبها لي يونان. قال أبو سعيد: أخطأت لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها، وكذلك أنت محتاج بعد هذا

إلى حركات كهذه الأسماء والأفعال والحروف فإن أخطأت والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحركات. وهذا باب أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة على أن ها هنا سرّاً ما علق بك ولا أسفر لعقلك وهو أن تعلم أنّ لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها وتشديدّها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها وغير ذلك مما يطول ذكره، وما أظن أحداً يدفع هذا الحكم أو يسأل في صوابه ممن يرجع إلى مسكة من عقل أو نصيب من إنصاف. فمن أين يجب أن نثق بشيء تُرجم لك على هذا الوصف بل أنت إلى أن تعرف اللغة العربية أحوج منك إلى أن تعرف المعاني اليونانية، على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية كما أن اللغات لا تكون فارسية ولا عربية وتركية. ومع هذا فإنك تزعم أن المعاني حاصلة بالعقل والفحص والفكر فلم يبقَ إلا أحكام اللغة فلم تزري على اللغة العربية وأنت تشرح كتب أرسطاطليس بها من جهلك بحقيقتها. وحدّثني عن قائل قال لك: حالي في معرفة الحقائق والتصفح لها والبحث عنها حال قوم كانوا قبل واضع المنطق أنظرُ كما نظروا وأتدبّرُ كما تدبروا، لأن اللغة قد عرفتها بالمنشأ والوراثه والمعاني نقرت عنها بالنظر والرأي والاعتقاب والاجتهاد ما تقول له؟ لا يصحّ له هذا الحكم ولا يستتب هذا الأمر لأنه لم يعرف هذه الموجودات من الطريقة التي عرفتها أنت؟ ولعلك تفرح بتقليدك وإن كان على باطل أكثر مما يفرح باستبداده وإن كان على حق، وهذا هو الجهل المبين والحكم غير المستبين. ومع هذا حدّثني عن الواو وما حكمه فإني أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئاً. وإن تجهل حرفاً

واحداً من اللغة التي تدعو بها إلى الحكمة اليونانية ومن جهل حرفاً واحداً
أمكن أن يجهل اللغة بكاملها. وإن كان لا يجهلها كلها ولكن يجهل بعضها
فلعله يجهل ما يحتاج إليه ولا ينفعه فيه علم بما لا يحتاج وهذه رتبة العامة
أو هي رتبة فوق العامة بقدر يسير فلم يتأبى على هذا وينكر ويتوهم أنه من
الخاصة وخاصة الخاصة وأنه يعرف سر الكلام وغامض الحكمة وخفيّ
القياس وصحيح البرهان. وإنما سألتك عن معاني حرف واحد فكيف لو
نثرت عليك الحروف كلها وطالبتك بمعانيها ومواقعها التي لها بالحق
والتي لها بالتجاوز وسمعتكم تقولون «في» لا يعلم النحويون مواقعها وإنما
يقولون هي للوعاء كما يقولون أن الباء للإلصاق وإن في تقال على وجوه
يقال الشيء في الوعاء والإناء والمكان والسائس في السياسة والسياسة
في السائس. ألا ترى هذا الشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها
ولا يجوز أن يعقل هذا بعقول الهند والترك والعرب فهذا جهل من كل
من يدعيه وخطئ من القول الذي أفاض النحوي إذ قال «في الوعاء» فقد
أفصح في الجملة عن المعنى الصحيح وكفى مع ذلك عن الوجوه التي
تظهر بالتفصيل ومثل هذا كثير وهو كاف في موضع السكيت. فقال ابن
الفرات أيها الشيخ الموفق أجبه بالبيان عن مواقع الواو حتى تكون أشدّ
في إفحامه وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ومع ذلك فهو متشيع به.
فقال أبو سعيد: للواو وجوه ومواقع منها معنى العطف في قولك أكرمت
زيداً وعمراً ومنها القسم في قولك والله لقد كان كذا وكذا ومنها الائتناف
كقولك خرجت وزيداً قائم لأن الكلام بعد ابتداء وخبر، ومنها معنى رُبّ
التي هي للتقليل نحو قوله:

وقاتم الأعماق خاوي المخترقن

ومنا أن تكون أصلية في الاسم كقولك واقد واصل وافد، وفي الفعل كقولك وجل يوجل، ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله تعالى فلما استلما وتله للجبين وناديناه أي نادينا ومثله قول الشاعر:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل
المعنى انتحي بنا ومعنى الحال في قوله عز وجل: ويكلم الناس في المهد وكهلاً، أي يكلم الناس حال صغره بكلام الكهل في حال كهولته. ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر كقولك استوى الماء والخشبة أي مع الخشبة. فقال ابن فرات لمتى: يا أبا بشر أكان هذا في نحوك؟ ثم قال أبو سعيد: دع هذا هنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي أكثر من علاقتها بالشكل اللفظي، ما تقول في قول القائل زيد أفضل الأخوة. قال: صحيح: قال: فما تقول إن قال زيد أفضل أخوته. قال: صحيح قال: فما الفرق بينهما مع الصحة فبلح وجنح وعصب ريقه. فقال أبو سعيد: أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة، المسألة الأولى جوابك عنها صحيح وإن كنت غافلاً عن وجه صحتها، والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وإن كنت أيضاً ذاهباً عن وجه بطلانها. قال متى: يبين ما هذا التهجين. قال أبو سعيد: إذا حضرت المختلفة استفدت ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس مع من عادته التمويه والتشبيه والجماعة تعلم أنك أخطأت فلم تدعي أن النحوي إنما ينظر في اللفظ لا في المعنى والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ؟ هذا كان يصح لو أن المنطقي يسكت ويجيل فكره في المعاني ويرتب ما يريد في الوهم السيّاح والخاطر العارض والحدس الطارئ. وأما وهو يريد أن يبرز ما صح له الاعتبار والتصفح إلى المتعلم والمناظر فلا بد له من اللفظ الذي يشمل على مراده ويكون طباقاً لغرضه وموافقاً لقصده.

قال ابن الفرات يا ابا سعيد تَمَمَ لنا كلامك في شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس والتبكيث عاملاً في نفس أبي البشر. فقال ما أكره من إيضاح الجواب عن هذه المسألة إلا ملل الوزير فإن الكلام إذا طال ملّ. فقال ابن الفرات ما رغبت في سماع كلامك وبينني وبين الملل علاقة فأما الجماعة فحرصها على ذلك ظاهر. فقال ابو سعيد: إذا قلت زيد أفضل أخوته لم يجز وإذا قلت زيد أفضل الأخوة جاز والفصل بينهما أن أخوة زيد هم غير زيد وزيد خارج من جملتهم، ولك دليل أنه لو سأل سائل فقال من أخوة زيد لم يجز أن تقول زيد وعمرو وبكر وخالد وإنما تقول عمرو وخالد ولا يدخل زيد في جملتهم. فإذا كان زيد خارجاً عن أخوته صار غيرهم فلم يجز أن يكون أفضل إخوته كما لم يجز أن يكون حمارك أفضل البغال لأن الحمار غير البغال كما أن زيدا غير أخوته فلم تجز زيدا غير أخوته فإذا قلت زيد أفضل الأخوة ألا ترى أنه لو قيل من الأخوة عدته فيهم فقلت زيد وعمرو وبكر وخالد فيكون بمنزلة قولك حمارك أفره الحمير فلما كان على ما وصفناه جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس كما دل الرجال وكما في عشرين درهماً ومائة درهم. فقال ابن الفرات: ما بعد هذا البيان مزيد ولقد جلّ علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الانقياد. فقال أبو سعيد: معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك، وإن زاع شيءٌ عن النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر والتأويل البعيد أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم. فأما ما يتعلق باختلاف لغات القبائل فذلك شيءٌ مسلمٌ لهم ومأخوذٌ عليهم وكل ذلك

محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطرد على الأصل المعروف من غير تحريف. وإنما دخل العجب على المنطقيين لِظَنِّهِمْ أَنَّ المعاني لَا تُعْرَف وَلَا تستوضح إِلَّا بطريقتهم ونظرهم وتكلفهم، فترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون بترجمة أخرى هم فيها ضعفاء ناقصون وجعلوا تلك الترجمة صناعة وادعوا على النحويين أَنَّهُمْ مع اللفظ لا مع المعنى. ثم أقبل أبو سعيد على مَتَّى فقال: أَلَا تعلم يا أبا بَشر أَنَّ الكلام اسم وقع على أشياء قد ائْتُلفت بمراتب، مثال ذلك أَنَّك تقول هذا ثوب والثوب يقع على أشياء بها صار ثوباً ثم به نسج بعد أن غزله فسداته لا تكفي دون لحمته ولحمته لا تكفي وزن سداته ثم تأليفه كنسجه وبلاغته كقصارته ودقة سلكه كرقّ لفظه وغلظ غزله ككثافة حروفه ومجموع هذا كله ثوب ولكن يعدّ تقدمة كل ما يحتاج إليه فيه. قال ابن الفرات: سلّه يا أبا سعيد عن مسألة أخرى فإن هذا كلما توالي عييه بأن انقطاعه وانخفاض ارتفاعه في المنطق الذي ينصره والحق الذي لا ينصره. قال أبو سعيد: ما تقول في رجل قال لهذا عليّ درهم غير قيراط؟ قال مَتَّى: ما لي عِلْمُ بهذا النمط. قال: لست نازعاً عنك حتى يصح عند الحاضرين أَنَّك صاحب مخرقة وزرق ها هنا ما هو أخف من هذا. قال رجل لصاحبه: بكم الثوبان المصبوغان وقال آخر: بكم ثوبان مصبوغان وقال آخر: بكم ثوبان مصبوغين بيّن هذه المعاني التي تضمنها لفظ لفظ. قال مَتَّى: لو نثرت أنا عليك من مسائل المنطق شيئاً لكن حالك كحالي. قال أبو سعيد: أخطأت لأنك إذا سألتني عن شيء أنظر فيه فإن كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظه على العادة الجارية أجبت ثم لا أبالي أن يكون موافقاً أو مخالفاً، وإن كان غير متعلق بالمعنى رددته عليك، وإن كان متصلاً باللفظ ولكن على موضع لكم في الفساد على ما حشوتكم به كتبكم

رددته أيضاً. لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة مقررة بين أهلها وبين ما وجدنا
 لكم إلا ما استعرتم من لغة العرب كالسبب وإلا والموضوع والمحمول
 والكون الفساد والمهمل والمخصوص وأمثلة لا تنفع ولا تجدي وهي إلى
 العيِّ أقرب منها إلى الفهاهة. اذهب ثم أنتم هؤلاء في منطقتكم على نقض
 ظاهر لأنكم لا تفنون بالكتب ولا هي مشروحة وتدعون الشعر ولا تعرفونه
 وتدعون الخطابة وأنتم عنها في منقطع التراب. وقد سمعت قائلكم يقول
 الحاجة ماسة إلى كتاب البرهان فإن كان كما قال فلم قطع الزمان بمن
 قبله من الكتب؟ وإن كانت الحاجة قد مسّت إلى ما قبل البرهان فهي أيضاً
 مآسة إلى ما بعد البرهان، وإلا فلما صنف مالا يحتاج إليه ويستغني عنه
 هذا كله تخطيط وزرق وتهويل ورعد وبرق، وإنما بودكم أن تشغلوا جاهلاً
 وتستذلوا عزيزاً وغابتكم أن تهولوا بالجنس والنوع والخاصة والفصل
 والعرض والشخص وتقولوا الهلية والأينية والماهية والكيفية والكمية
 والذاتية والعرضية والجوهرية والهيولية والصورية والإنسية والكسبية
 والنفسية ثم تنمطون وتقولون جئنا بالسحر في قولنا * لا أفي شيء من
 باء وواو وجيم في بعض باء وفاء في بعض جيم وإلا في كل ب وج في كل
 ب فإذا لا في كل ج وهذا بطريق الحلف وهذا بطريق الاختصاص وهذه
 كلها جزافات وترهات ومغالق وشبكات ومن جاد عقله وحسن تمييزه
 ولطف نظره وثقب رأيه وإنارات نفسه واستغنى عن هذا كله بعون اله
 وفضله وجودة العقل وحسن التمييز ولطف النظر وثقوب الرأي وإنارة
 النفس منائح الله الهية ومواهبه السنية يختص بها من يشاء من عباده وما
 عرف لاستطالتكم بالمنطق وجهاً من هذا الناشيء أبو العباس قد نقض
 عليكم، وتتبع طريقكم، وبين خطأكم، وأبرز ضعفكم، ولم تقدروا إلى

اليوم أن تردوا عليه كلمة واحدة مما قال، وما زدتكم على قولكم: لم يعرف أغراضنا، ولا وقف على مرادنا، وإنما تكلم على وهم، وهذا منكم لاجابة ونكول، ورضيَّ بالعجز والكلول، وكل ما ذكرتم في الموجودات فعليكم فيه اعتراض.

هذا قولكم في فعل وينفعل، ولم تستوضحوا فيهما مراتبهما ومواقعهما، ولم تقفوا على مقاسمهما، لأنكم قنعتم فيهما بوقوع الفعل من يفعل، وقبول الفعل من ينفعل، ومن وراء ذلك غايات خفيت عليكم، ومعارف ذهبت عنكم، وهذا حالكم في الإضافة.

فأما البدل ووجوهه، والمعرفة وأقسامها، والنكرة ومراتبها، وغير ذلك مما يطول ذكره، فليس لكم فيه مقال ولا مجال، وأنت إذا قلت لإنسان: كن منطقيًا فإنما تريد: كن عقليًا أو عاقلًا، أو اعقل ما تقول، لأن أصحابك يزعمون أن المنطق هو العقل، وهذا قول مدخول، لأن المنطق على وجوه أنتم منها في سهو.

وإذا قال لك آخر: كن نحوياً لغوياً فصيحاً، فإنما يريد: افهم عن نفسك ما تقول، ثم رم أن يفهم عنك غيرك، وقدّر اللفظ على المعنى فلا ينقص عنه. هذا إذا كنت في تحقيق شيء على ما هو به، فأما إذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد، فاجلِ اللفظ بالروادف الموضحة، والأشياء المقربة، والاستعارات الممتعة، وسدد المعاني بالبلاغة، أعني لَوْح منها شيئاً حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشوق إليها، لأن المطلوب إذا ظفر به عليها الوجه، عز وجل، وكرم وعلا، وشرح منها شيئاً حتى لا يمكن أن يمتري فيه، أو يُتعب في فهمه، أو ينزح عنه لاغتماضه، فهذا المعنى يكون جامعاً لحقائق الأشياء ولأشياء الحقائق، وهذا باب إن استقصيته خرج عن نمط ما

نحن عليه في هذا المجلس، على أنني لا أدري، أيؤثر ما أقول أم لا؟ ثم قال: حدثنا، هل فصلتم قط بالمنطق بين مختلفين، أم رفعتم الخلاف بين اثنين؟ أترك بقوة المنطق وبرهانه اعتقدت أن الله ثالث ثلاثة، وأن الواحد أكثر من واحد، وأن الذي هو أكثر من واحد هو واحد، وأن الشرع ما تذهب إليه، والحق ما تقوله؟ هيهات، ههنا أمور ترفع عن دعوى أصحابك وهذياهم، وتديق عن عقولهم وأذهانهم، ودع هذا. ههنا مسألة قد أوقعت خلافاً، فارفع ذلك الخلاف بمنطقتك. قال قائل: لفلان من الحائط إلى الحائط. ما الحكم فيه وما قدر المشهود به لفلان؟ فقد قال ناس: له الحائطان معاً وما بينهما. وقال آخرون:

له النصف من كل منهما. وقال آخر: له أحدهما. هات الآن آيتك الباهرة، ومعجزتك القاهرة، وأني لك بهما؟ وهذا قد بان بغير نظرك ونظر أصحابك. ودع هذا أيضاً. قال قائل: من الكلام ما هو مستقيم حسن، ومنه ما هو مستقيم كذب، ومنه ما هو خطأ، فسر هذه الجملة. واعترض عليه عالم آخر فاحكم أنت بين القائل والمعترض، وأرنا قوة صناعتك التي تميز بها بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل. فإن قلت: كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعت مقالته، والآخر لم أحصل على اعتراضه؟ قيل لك: استخرج بنظرك الاعتراض إن كان ما قاله محتملاً له، ثم أوضح الحق منهما، لأن الأصل مسموع لك حاصل عندك. وما يصح به أو يطرد عليه يجب أن يظهر منك، فلا تتعاسر علينا، فإن هذا لا يخفى على أحد من الجماعة، فقد بان الآن أن مركب اللفظ لا يجوز مبسوط العقل. والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامة، وليس في قوة اللفظ من أي لغة كان، أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به وينصب عليه سوراً، ولا يدع شيئاً من داخله أن يخرج، ولا شيئاً

من خارجه أن يدخل، خوفًا من الاختلاط الجالب للفساد، أعني أن ذلك يخلط الحق بالباطل، ويشبه الباطل بالحق، وهذا الذي وقع الصحيح منه في الأول قبل وضع المنطق، وقد عاد ذلك الصحيح في الثاني بهذا المنطق، وأنت لو عرفت العلماء والفقهاء ومسائلهم، ووقفت على غورهم في فكرهم، وغوصهم في استنباطهم، وحسن تأويلهم لما يرد عليهم، وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة، والكنائيات المفيدة، والجهات القريبة والبعيدة، لحقّرت نفسك، وازدريت أصحابك، ولكان ما ذهبوا إليه وتتبعوا عليه، أقلّ في عينك من السها عند القمر، ومن الحصا عند الجبل. أليس الكندي وهو علم من أصحابكم، يقول في جواب مسألة: هذا من باب عدة. فعد الوجوه بحسب الاستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم بلا ترتيب، حتى وضعوا له مسائل من هذا، وغالطوه بها، وأروه من الفلسفة الداخلة، فذهب عليه ذلك الوضع، فاعتقد أنه مريض العقل، فاسد المزاج، حائل الغريزة، مشوش اللبّ، قالوا له:

أخبرنا عن اصطكاك الأجرام وتضاغط الأركان، هل يدخل في باب وجوب الإمكان، أو يخرج من باب فقدان إلى ما يخفى عن الأذهان؟.

وقالوا له أيضًا: وهل هي ملابسة للكيان في حدود النظر ما تشبيه الحركات الطبيعية إلى الصور الهيولانية؟

وهل هي ملابسة للكيان في حدود النظر البيان، أو مزايلة له على غاية الإحكام؟ ما تأثير فقدان الوجدان في عدم الإمكان، عند امتناع الواجب من وجوبه، في ظاهر ما لا وجوب له لاستحالاته في إمكان أصله. وعلى هذا، فقد حفظ جوابه عن جميع هذا على غاية الركافة، والضعف والفساد، والفسالة والسخف، ولولا التوقي من التطويل، لسردت ذلك كله.

ولقد مر بي في خطة التفاوت في تلاشي الأشياء غير محاط به، لأنه يلاقي الاختلاف في الأصول، والاتفاق في الفروع. وكل ما يكون على هذا النهج، فالنكرة تزاحم عليه المعرفة، والمعرفة تناقض النكرة، على أن النكرة والمعرفة من باب الألسنة العارية من ملابس الأسرار الإلهية، لا من باب الإلهية العارضة في أحوال السرية. ولقد حدثني أصحابنا الصابئون عنه بما يضحك الثكلى، ويشمت العدو، ويغم الصديق، وما ورث هذا كله إلا من بركات اليونان وفوائد الفلسفة والمنطق. ونسأل الله عصمة وتوفيقاً نهتدي بهما إلى القول الراجع إلى التحصيل، والفعل الجاري على التعديل - إنه سميع مجيب -.

قال علي بن عيسى: وتقوض المجلس، وأهله يتعجبون من جأش أبي سعيد ولسانه المتصرف، ووجهه المتهلل، وفوائده المتتابعة. وقال له الوزير ابن الفرات: عين الله عليك أيها الشيخ، فقد نديت أكباداً، وأقررت عيوناً، وبيّضت وجوهاً، وحكت طرازاً لا تبليه الأزمان، ولا يتطرقة الحدثان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكلمات الدخيلة

منذ أخذت الصحف تصدر في العربية أي منذ زهاء ثمانين سنة شعر الكتاب والمترجمون بالحاجة إلى ترجمة بعض الألفاظ الأفرنجية إلى العربية، فبدأ بذلك الشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ووضع بعض الألفاظ العربية لمدلولات أفرنجية شاعت اليوم حتى عدت كأنها من متن اللغة الأصلي ثم تبعه من جاء بعده ولا سيما المترجمون في مصر وسورية ومن جملتهم الشيخ ابراهيم اليازجي صاحب الطيب والبيان والضيء الذي عرّب بعض الألفاظ وغيرهم من اللغويين المعاصرين.

وفي سنة 1310 عقد في مصر مؤتمر لغوي مؤلف من بعض العلماء واللغويين تليت فيه بعض الكلمات لبعض الألفاظ الشائعة مثل مرعى لكلمة برافو وبرعى على النقيض من الأولى ومدره للمحامي والمسرة للتلفون وعمّ صباحاً لبونجور وعمّ مساء لبونسوار والبهو للصالون والقفاز للجواني أو الكفوف والنمرة للنومر والوشاح للكوردون والطنف للبالكون والحراقة لمركب التوربيد والجديلة للمودة والمرب للكلوب والحذاقة لشهادة البكالوريا والعاطف أو المعطف للباطو وحصب الأرض بالحصباء للمكادام والمشجب للشماعة أو بورتمانتو.

ثم انفرط عقد ذاك المجتمع وكان عبد الله أفندي البستاني من لغويي بيروت وضع لفظة (آنسة) لمداموازيل وعقيلة لمدام ثم وضع أحمد بك

تيمور ثلاثين كلمة وهي ملة القلم المدة بضم أوله وهي ما يعلق بالقلم من المداد بعد غمسه في الدواة.

بوية الجزم أو طلاء الأحذية اليزندج أو الأرندج بفتحيتين وهو السواد يسود به الخف.

صحبة الورد الطاقة وهي الحزمة من الرياحان ونحوه ولعلها أقرب لفظة لمعنى الصحبة وقد اصطلاح الكتاب على تسميتها بالباقة وهو خطأ لأن الباقة خاصة بحزمة البقل.

نشان التعليم الدريئة بفتح فكسر وهي الحلقة يتعلم الرامي عليها. الكشك أصله بالفارسية كوشك وهو القصر الصغير وقد عربوه بالجوسق.

العطفة الرذب بفتح الراء وسكون الدال وهو الطريق الذي لا ينفذ. العديل السلف أو الظأب من المظآبة وهي أن يتزوج إنسان بامرأة ويتزوج آخر بأختها، أما التجاب بتشديد الباء من باب التفاعل فهو أن يتزوج كل من الرجلين بأخت الآخر.

قشرة الجرح الجلبة بضم فسكون وهي القشرة تعلو الجرح عند البرء. الطاقة السكبة بفتح فسكون وهي خرقة تقور للرأس كالشبكة. ناظر العمارة أو مقدم الفعلة الوهين كامير وهو الرجل يكون مع الأجير يحثه على العمل.

اليشمق اللقام بكسر أوله وهو النقاب يكون على طرف الأنف فإن كان على الفم فهو اللثام.

السردين الصير بكسر أوله وهو كما في القاموس السميكات المملوحة يعمل منها الصحناء وفسر الصحناء بأنه أدام يتخذ من السمك الصغار مشه مصلح للمعدة، فعلى هذا يجوز إطلاق الصحناء على كل ما يقدم أمام الطعام من المشهيات كالصير ونحوه المسمى عند الأعاجم HORS D'OEUVRE يمكن أن يسمى السردين أيضاً بالطريخ كسكين وهو سمك صغار تعالج بالملح وتؤكل.

العزبة كأنها محرّفة عن العزوبة بالفتح وهي الأرض البعيدة المضرب إلى الكلاً وصوابها الضيعة أو هي الأرض المغلة وقد استعملت قديماً بمعنى: العزبة وأظنها مستعملة إلى الآن بهذا المعنى بالبلاد الشامية.

مضرب الكورة الطبطابة بفتح فسكون وهي خشبة عريضة يلعب بها بالكرة ويقال لها أيضاً الميجار بكسر أوله وهو كما في المخصص الصولجان الذي تضرب به الكرة.

المزة النقل بالفتح أو بالتحريك وهو ما يعبث به الشارب أو يتنقل به على شرابه من فاكهة ونحوها، والعامّة تقول نقل بضم فسكون وهو خطأ قديم نبه عليه أئمة اللغة.

اللباس الرسمي السواد وهو لون اتّخذه بنو العباس شعاراً لهم ثم أطلق عندهم على لباس أسود خاص بالأمرء والعلماء وذوي الأخطار وكان الرجل إذا أراد الذهاب إلى ديوانه أو مقابلة خليفته قال لغلامه عليّ بسوادي وسيفي.

ثياب الحزن السلاب بكسر أوله وهي ثياب سود تلبسها النساء في المأتم واحدها سلبة بفتحتين وتسلبت المرأة وسلبت بتشديد اللام إذا

لبستها وهو مثل أحدث إلا أن الإحداد يكون على الزوج خاصة والتسلب على الزوج وغيره.

الحبل الحاجز في الطريق عند إصلاحها أو في احتفال كبير، الماصر وهو كما في مختصر العين للزبيدي حبل على طريق أو نهر تحبس به السفن أو السابلة، واقتصر في اللسان على أنه الحبل يلقي في الماء لمنع السفن عن السير.

المعدية المعبر كمنبر وهو المركب الذي يعبر به.

عقدة وشنيطة الأنشطة بضم فسكون وهي عقدة يسهل انحلالها إذا مددت بأحد طرفيها انحلت، وتقول نشطت الأنشطة من باب نصر إذا عقدتها وأنشطتها إذا حللتها.

الحصان البوني المكبون والأثنى المكبونة وهو الفرس القصير القوائم الرحيب الجوف الشخت العظام ولا يكون المكبون أقعس ومعنى الأقعس في الخيل المطمئن الصهوة المرتفع القطة.

الشال الطيلسان وقد فسرهُ اللغويون بأنه ضرب من الأكسية واقتصروا على ذلك إلا أن الشيخ إبراهيم السجيني فسره في كتابه المسمى بالعمى الأكبر في عين من أنكر لبس الأصفر بأنه ثوب طويل عريض كالرداء يُجعل على الرأس فوق نحو عمامة ويغطي أكثر الوجه ثم يدار طرفه تحت الحنك إلى أن يحيط بالرقبة ثم يُلقى طرفاه على الكتفين وهو كما ترى قريب جداً من معنى الشال.

رخو الكرباج الشيب بكسر أوله وهو سير السوط، وفي اللسان وشيا السوط سيران في رأسه وشيب السوط معروف عربي فصيح.

الجرسون أو السفرجي لم أقف على لفظ مفرد يدل دلالة تامة على الجرسون وقد ذكر اللغويون النُّدْلَ بضمّتين وفسّره بخدم الدعوة قالوا سمّوا نُدْلاً لأنهم ينقلون الطعام إلى من حضر الدعوة وأصله من ندل يندل إذا تناول، إلا أنهم لم يذكروا مفردة فأرجو ممن وقف على لفظة أخرى أو على مفرد الندل أن يتفصّل بنشره إفادة للجُمهور، على أني رأيت بهامش اللسان أن هذا اللفظ وُجد مضبوطاً بخط الصاغانى بفتحّتين وعليه فلا يبعد أن يكون اسم جمع لنادل كخادم وخَدَم إلا أن مثل هذا لا ينبغي الحكم فيه إلا بالنص الصريح.

القطن الزهر اصطلاح المصريون على تسمية القطن قبل حلجه بالزهر وعربيته الفصيحة المكمل بصيغة اسم المفعول وهو كما في القاموس القطن ما دام في الحَب والقطن الحليج كأمر هو ما استخرج حَبّه ويسميه المصريون بالشعر، أما شجرة القطن فتسمى الزعبل بفتح أوله وثالثه وسكون ثانيه.

السنارة الشص بفتح أوله أو كسره وهي حديدة عقفاء يصاد بها السمك وأما الصنارة بكسر الصاد المهملة وتخفيف النون ومنع في اللسان تشديدها فهي الحديدة الدقيقة المعقفة التي في رأس المغزل فاستعارتها العامة لمصيدة السمك وأبدلوا صاها سينا ولا داعي للاستعارة متى وجدت الكلمة الموضوعة.

الجاكية اصطلاح الكتاب على تسمية الباطو بالمعطف ومن المعلوم أن الجاكيتة كالباطو الصغير فلا حرج إذا سمّيناها بالعطيف تصغير ترخيم للمعطف. البيرة السوداء البيرة خمر الشعير وعربيتها الجعة وزن هبة فيجوز أن

يقال الجعة السوداء إلا أن العرب سمّت الخمر السوداء بأَم ليلي فما المانع من إطلاقها على هذا النوع من البيرة.

عمود الغاز المائلة وهي منارة المسرحة كما في القاموس

البونية الجمع بضم فسكون وهو من الكف حين تقبضها قال طرفة بن العبد:
بطيء عن الجلى سريع إلى الخنا ذلول بإجماع الرجال ملهد
ويقال فيه أيضاً الصقب بفتح فسكون وصقبه أي ضربه بجمع كفه.

وبقيت الحال على هذا المنوال تشتد الحاجة إلى مفردات عربية كلما
كثر المترجمون وكان لبعض المجلات عمل مهم في هذا الشأن فوضع
أربابها ومؤازروها ألفاظاً كثيرة منها ما شاع ومنها ما لم يرزق الحظوة من
الشيوع بين الكتاب إلى أن قام في السنة الماضية أعضاء نادي دار العلوم
في القاهرة وهم من الغيورين على خدمة اللغة لأن معظمهم ممن أحكموا
كتابتها وقواعدها وبيانها إحكاماً يكاد لا يكون وراءه غاية، وهم الحلقة
الموصلة بين أهل التربية الحديثة وأهل التربية القديمة بل هم مثال التربية
العربية العصرية، فرأوا نفع الله بهم العربية أن يختاروا بعض الأكفاء منهم
يؤلفون لجنة علمية تتوفر على هذا الغرض من وضع الألفاظ العربية
للمفردات العامة أو الأجنبية التي سرت إلى لغتنا من لغات أوروبا أو من
اللغتين الفارسية والتركية فوضعوا حتى الآن طائفة صالحة من هذه الألفاظ
وها نحن نثبتها فيما يلي إيداناً بفضل أولئك العاملين وبياناً للمشتغلين
باللغة من أهل الأقطار العربية الأخرى عسى أن ينظروا فيها نظرة ثانية أو
أن يقرروا اللجنة على ما وضعت وإن كان المصريون هم في الحقيقة أئمة
اللغة والقائمون على تعهدها أكثر من غيرهم من الشعوب.

وهاك ما قررته اللجنة حتى الآن من الألفاظ:

استمارة يرى أعضاء النادي استعمال استمارة وقد وُجدت هذه الكلمة في الكتب القديمة بلفظ استيمار بالتسهيل وحذف التاء ولكنهم رأوا إثبات التاء لالتزامها في الاستعمال الحاضر وعدم المانع منه والكلمة مرة من استأمر أي أخذ أمره.

أنفيتياترو ترجمت بلفظ مدرج منذ زمان وقد كاد اختيار الأعضاء يجمع عليها.

بلوك نوت تعريبها اضمامة ومعناها الأوراق منضمة.

بويه نظرت اللجنة فيما يستعمل للتلوين فوجدته على نوعين: نوع يتخلل أجزاء الأجسام فاختارت له كلمة صبغ كصبغ الثياب والورق وما أشبه، ونوع يعلو السطوح فاختارت له كلمة طلاء كطلاء المباني والأواني وغير ذلك.

تخته بوش وهو ما يسميه الافرنج VERANDA وتعريبه نجيرة فقد جاء في لسان العرب أن النجيرة سقيفة من خشب ليس فيها نصب ولا غيره.

تربيذه أو طاولة رأت اللجنة من هذا المسمى أنواعاً: فمنها ما هو للأكل وهذا خوان ويسمى حين وضع الأكل عليه مائدة، ومنها ما توضع عليه الأشياء المختلفة وهذا منضدة مشتقة من النضد وهو جعل المتاع بعضه فوق بعض ويخصصه بعض اللغويين بحر المتاع وخياره، ومنها ما هو للكتابة خاصة وهذا يطلق عليه كلمة مكتب المستعملة.

ترسينه إن ما يخرج عن البناء منه ما هو مغطى وهذا يسمّى كنه ومنه ما هو مكشوف وهذا طنّف والكلمتان في العربية موضوعتان لما يخرج من

الأجنحة في الدار، على أن هناك لفظة تؤدّي المعنى وهي شرفة وقد كثر استعمالها وورد في الأغاني بهذا المعنى كلمة مستشرف

جول اختارت لها اللجنة لفظة مرمى على أن كلمة محج الشائعة في سورية تؤدي نفس المعنى

خارطة وصحيحها خريطة

دوسيه تعريبها ملف

شماعة أو تعليقة وجدت اللجنة لما تعلق عليه الملابس نوعين أولهما ذو عمود متوسط وشعبات بارزة فاخترت له كلمة غدان وهو في اللغة قضيب تعلق عليه الثياب والثاني يثبت في الحائط فاخترت له لفظة شجاب.

طابور الكلمة عربية حرّفت وصحيحها تابور

كارت فيزيت سبق اختيار بطاقة الزيارة ولا مانع من الاستغناء عن المضاف إليه فيقال بطاقة كما يقول الافرنج كارت.

وقد رأت اللجنة أيضاً استبدال سينماتوغراف بكلمة خيالة وهي كل ما تراءى لك من الصور وفونوغراف بالحاكي وميموغراف بمطبعة النضح وتيب ريتير بمطبعة الأزرار لأنها اتخذت قاعدة عامة في قسمة المطابع وهي أن تستعمل كلمة مركبة من مطبعة مضافة إلى أكبر مميز لتلك المطبعة، على أن كلمة الآلة الكاتبة أو الكاتبة فقط أقرب من مطبعة الأزرار.

استباليه قالت اللجنة: كان من الممكن أن نجاري المتقدمين في اختيارهم كلمة بيمارستان ولكن رأينا أن كلمة مستشفى مع أدائها المعنى تماماً أسهل نطقاً من الكلمة الأولى وأكثر دوراناً على الألسنة والأفلام.

ونرى أن كلمة مستوصف أولى بالتعبير عن الكلينيك

وبوفيه اختارت اللجنة لهذا المعنى كلمة مقصف - وقد سبق استعمالها لأن معنى القصوف في اللغة الإقامة في الأكل والشرب وهذا هو معنى بوفيه أما استعمال القصف في اللهو فغير عربي.

أما خزانة الطعام والشراب فقد استعمل لها المتقدمون كلمة سكردان بريمة بزال tire - bouchon ومعناه في اللغة: حديدة يفتح بها الدن وهو قريب من البريمة الحالية ففي هذا الإطلاق توسع.

تلغراف استحسنت اللجنة الكلمة المستعملة برق ورسالة برقية

تباشير الكلمة عربية محرفة وصحيحها طباشير

ديبلوم شهادة عالية وقالت لم توافق اللجنة على الشهادة النهائية ولا على الشهادة العليا لأن الديبلوم ليست كذلك بل بعدها ما هو أعلى منها، أما شهادة الحذاقة التي أشار إليها أحمد تيمور بك فربما وضعت بعد لما هو أرقى من تلك الشهادة.

عفارم اختارت اللجنة كلمة مرchy وهي كلمة تقولها العرب للإصابة في الرمي فيمكن التوسع فيها.

قوميسيون استنسبت كلمة لجنة المستعملة لأن معنى اللجنة الجماعة يجتمعون في الأمر ويرضونه وذلك معنى القوميسيون.

اتومبيل سيارة كلمة استعملت وتعارفها الكتاب فوافقت اللجنة على استعمالها.

اكسبرس قطار سريع مع كثرة الاستعمال يستغني عن الموصوف

ويكتفى بالسريع كالمعتاد، بدرة غمّة، في القاموس الغمّة الاسفيداج والغمرة تطلي بها المرأة وجهها وهو موافق لمسمى بدرة. بزرميط هجين، لمن أبوه خير من أمه، مقرف، لمن أمه خير من أبيه، مخلط، إذا لم تلاحظ الخيرية في إحدى الجهتين، بنطلون سروالة ترتوار طوار، في القاموس طوار الدار ويكسر ما كان ممتداً معها وهذا ممتد مع الشارع، تمرجي ممرّض كلمة عربية مستعملة في معنى التمرجي تملي دائمي، جهجون جزاف استعملها الفقهاء للبيع من غير كيل أو وزن ولم تر اللجنة بأساً بالتوسع فيها، دونانمة أسطول، كلمة استعملها المتقدمون من المؤرخين في معنى الدونانمة، روماتيزم رثية في القاموس الرثية وجع المفاصل واليدين والرجلين.

زنبلك دورة، في القاموس يقال لكل ما لم يتحرك ولم يدر دواة وفوارة بفتحهما فإذا تحرك ودار فهو دواة وفوارة والزنبلك متحرك فرأت اللجنة أن الدواة أقرب الكلمات العربية إلى معنى الزنبلك، صالون بهو، استعمل الكتاب كلمة بهو في الصالون والمعنيان متقاربان، صندوق القمامة صندوق القمامة، قشلاق ثكنة، في القاموس الثكنة مركز الأجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم وإن لم يكن هناك لواء ولا علم جمعه ثكن كصرد، يمكنانة حواطه، لمحل الأكل، مطعم، للوكاندة الأكل، برجل دواة، فرجار، بركار، في القاموس الدواة الفرجار وقد ارتضتها اللجنة لأنها عربية محضة والكلمتان الأخريان من تعريب علماء الهندسة المتقدمين وقد استعملتا كثيراً في كتبهم فرأينا أن نبقي عليهما، كروكي رسم تقريبي، قد اختير ترجمة الكلمة غير العربية بما يؤدي معناها لعدم اتصال علم اللجنة بكلمة عربية تؤدي هذا المعنى. هدوم ملابس. أصل

الهدم الثوب البالي أو المرقع أو الخاص بكساء الصوف جمعه أهدام
وهدام فاستعمل العامة مفردة بغير ما وضع له وجمعه على غير وجهه.
وكلمة ملابس تؤدي المعنى المراد. ناموسية كلة. في القاموس الكلة غشاء
رقيق يتوقى به من البعوض وهي الناموسية بعينها، أما الحجلة فلم ترضاها
اللجنة لأنها خاصة بما تجلى فيه العروس.

(نوته) مذكرة، كناشة ج كناشات اشتق كلمة مذكرة من الفعل المقصود
من هذا الاسم وهو التذكير وهذا ما اختارته اللجنة وأما كناشة فقد اختارها
الأستاذ الشيخ حمزة وقد قال صاحب شرح القاموس ومنه الكناشة
لأوراق تجعل كالدفتر يقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط هكذا يستعمله
المغاربة واستعمله شيخنا في حاشيته على هذا الكتاب كثيراً وترى اللجنة
أنها تستعمل لما قاله صاحب شرح القاموس (أجنده)

(قماش) نسيج أصل القماش ما على وجه الأرض من فتات الأشياء
حتى يقال لرذاله قماش وليس هذا المعنى هو المراد بكلمة قماش وإنما
يريدون بها المنسوجات فكلمة نسيج طبقه، (قومندان) قائد أصل الكلمة
أعجمية وكلمتها العربية قائد يقال قائد الجيش وقائد الفرقة وقائد الفرسان
وقائد المشاة. (قواص) حاجب استعملت حاجب لتؤدي معنى قواص
وهي موافقة، (طرحه) خمار الخمار النضيف وهي ما تغطي به المرأة
رأسها وقد كانت الطرحة مستعملة قديماً في الطيلسان وقد يقولون الطراحة
فالخمار أقرب إلى المعنى المقصود من الطرحة، (حزورة - فزورة)
أحجية قال في القاموس كلمة محجبة مخالفة المعنى للفظ وهي الأحجية،
(شنطة) عيبة قال في اللسان العيبة وعاء من ادم يكون فيها المتاع، شادوف
شادوف جميع الكلمات التي وردت للجنة ليس فيها ما يدل على مسمى

شادوف مع استعمالها في معان أخرى وهذه الكلمات هي دالية وهي المنجنون والناعورة والمنجنون الدولار يستقى عليه أو المحالة يسنى عليها والمحالة البكرة العظيمة وكل هذا بعيد عن معنى الشادوف السانية وهي الغرب وأداته والناقة يسقى عليها والغرب الدلو العظيمة.

لهذا رأت اللجنة أن تستقي كلمة شادوف بإزاء ذلك المعنى المعروف وخصوصاً أن الصيغة عربية كثيرة الورد وقال الأستاذ الشيخ حمزة أنها كلمة مصرية معروفة عند العرب، فنار منار المنار موضع النور ويظهر أن كلمة فنار مخلطة من الكلمة العربية منار والكلمة اليونانية فار، فرشة فرجون محسة من وضع الأستاذ الشيخ حمزة قال في القاموس: الفرجون كبرذون المحسة وقال في مادة حس: الحس نفص التراب عن الدابة بالمحسنة للفرجون (كماشة) كماشة قال في القاموس الكمش ضرب من صرار الإبل وصرار الإبل شد ضرعها صرّها يصرّها صراً وهو نوع من القبض الذي يراد به التمكن من الشيء فرأت اللجنة أن هذا من التجوز الذي يتسع مثله ولا حاجة بعد إلى تغيير كلمة مثل هذه والذهاب إلى الكلمات العامة مثل ملقط ومقبض وما شاكل ذلك.

كالون قفل وغلق اختير الغلق لذلك الذي تسميه العامة كالون والقفل يستعمل عند العامة في مسمى معروف فيبقى دالاً على ذلك المسمى وهو المنفصل عن الباب ويستعمل له عروتان يربطهما القفل بلسانه، برميل برميل ورد للجنة تسع كلمات لم تر واحدة منها صالحة لأن تطلق على مسمى البرميل وهي (1) الزبيل ومعناها كما في القاموس القفة أو الجراب أو الوعاء والقفة والجراب مسماها مخالف لمسمى البرميل شكلاً ومادة والوعاء عام (2) الزكرة زق للخمر والخل والزق السقاء أو جلد يجز ولا

ينتف للشراب وغيره وليس معنى البرميل هذا (3) فنتاس ومعناه حوض السفينة يجتمع فيه نشافة مائها وسقاية لها من الألواح يحمل فيها الماء العذب للشرب ولا تزال الكلمة مستعملة في معناها مع التوسع (4) مخزن وهي عامة لكل ما يخزن فيه الشيء أي يحرز (5) المقلد وهو الوعاء فهو عام (6) العس وهو القدح العظيم (7) الحب ومعناه الجرة والضخمة منها أو الخشبات الأربع توضع عليها الجرة ذات العروتين (8) الدن وهو الراقود العظيم أو أطول من الحب أو أصغر وله عسعس لا يقعد إلا أن يحفر له وهو المعروف بالزلعة أو الخابية (9) الراقود وهو مثل الدن.

رأت اللجنة بعد نظرها هذه الكلمات أن تقر على استعمال كلمة برميل لأنها أدل على مسماها ولم يوجد من الكلم العربية أمامها ما يقوم مقامها وقد قال الأستاذ الشيخ حمزة أن برملاً بكسر الباء عربية صحيحة، حرمة إتب ومثبة حرمة، في القاموس الاتب والمثبة كمكنسة برد يشق فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين وهو قريب من معنى الحرمة، وقد بحثت اللجنة عن أصل هذه الكلمة وكيف استعملها الناس مع الطلاوة العربية فوجدت أن الحرملة شجرة تنشق جراؤها عن ألين قطن ويحشى به مخاد الملوك لخفته ونعومته فلا يبعد أن هذه الحرملة كانت تحشى بهذا القطن للتدفئة فسميت باسم شجرتها وكبر اسمها ولذلك أبقتهما اللجنة، البشورة الطلاسة، في القاموس الطلاسة خرقة يمسح بها اللوح، شخير النائم غطيط، غط النائم صات.

الدورية الليلية عسس، عس طاف بالليل وهو نفص الليل عن أهل الريبة وهو عاس جمعه عسس، الرغاوي الرغاوى - الزبد، وضعت اللجنة كلمة الزبد وقال الأستاذ الشيخ حمزة الرغاوى أي الرغوة أي الزبد والجمع

رغاوى كل ذلك عربي صحيح، طازه طازج، طازج تعريب طازه وكان من عادة العرب في التعريب أن يلحقوا بالكلمات المنتهية بمثل هذه الهاء جيماً كما قالوا فالزوج ونموذج وغير ذلك، الدش الرشاش، الرش نفض الماء والرشاش مشتق منه.

عفش أثاث، الأثاث متاع البيت، (حجر الحمام) نسفة، في القاموس النسفة حجارة سود ذات نخاريب يحك بها الرجل سمي به لانتسافه الوسخ من الرجل.

(طاولة اللعب) نرد، (غماص) غمص أن سال، رمص أن جمد، الغمص ما سال من الرمص غمصت العين كفرح فهو أغمص والرمص وسخ أبيض، يجتمع في الموق رمصت عينه كفرح فهو أرمص والتقييد من وضع الأستاذ الشيخ حمزة.

عود الفرن محش، المحش حديدة تحشّ بها النار أي تحرك كالمحشة مصلحة الفرن المطردة، المطردة خرقة تبل ويمسح بها التنور ومثلها الطريدة.

(هلب السفينة) انجر كلوب، الانجر مرساة السفينة وهو خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة إذا رست معرب لنكر، والكلوب من وضع الأستاذ الشيخ حمزة قال في شرح القاموس ومن المجاز كلاليب الباز مخالفه جمع كلوب.

(هلب البئر) حصرم، الحصرم الحديدية يخرج بها الدلو من البئر.

(هباب اللمة) سناج، السناج أثر دخان السراج في الحائط.

(مضرب الكرة) طبطابة، الطبطابة خشبة عريضة يلعب بها الكرة.

(فارة النجار) مسح، المسحج المبرة يبرى بها الخشب، (تصيرة) لمجة، اللمجة ما يتعلل به قبل الغداء، (أبعدية) ضيعة، الضيعة العقار والأرض المغلة.

(قزان) مرجل، المرجل القدر من الحجارة والنحاس مذكر.

(اضبش) غطمش، الغطمش الكليل البصر أما الضبش فلم نره، (الرمش) الهدب - الهدب شعر أشفار العينين وهو ما تريده العامة برمش، (دوخة) دوار الدوار شبه الدوران يأخذ في الرأس، (فلينة - سداد الزجاجة) صمام صمام القارورة سدادها.

(مصفاة نجو إبريق الشاي) فدام الفدام المصفاة وإبريق مفدّم عليه مصفاة.

(البريثون) الثرب في القاموس الثرب شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء جمعه ثروب وأثرب وتعرفه العامة بهذا الاسم ولكنهم يبدلون الثاء تاء فيقولون ترب.

(أوزي) حمل في القاموس من معاني الحمل الجذع من أولاد الضأن فما دونه والجمع حملان وأحمال، (قشرة البيض الخارجة) قيض في القاموس القيض القشرة العليا اليابسة على البيضة، (القشرة الداخلة) غرقىء في القاموس الغرقىء القشرة الملتزقة ببياض البيض، (بياض البيض) الزلال، (صفار البيض) المَحّ في القاموس من معاني المح صفرة البيض، (المضيقة) الثوي في القاموس الثوي كغني البيت المهيأ له أي للضيف، (شبشب) كوث في القاموس الكوث القفش الذي يلبس في

الرجل والقفش الخف القصير، (موضة) بدع - بدئ في القاموس البدئ الأمر المبدع والبدع الأمر الذي يكون أولاً جمعه إبداع، (انتبكة) عادي في القاموس العادي الشيء القديم - كأنه منسوب إلى عاد، (خريطة البحر) راهنامج في القاموس الراهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب يسلك به الربابنة البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها (طقة واحدة) وجبة القاموس الوجبة الأكلة في اليوم والليلة أو أكلة في اليوم إلى مثلها من الغد، (وش الفرش) ظهارة الظهر نقيض البطانة وظاهر بينهما طابق.

(سيخ الشواء) سفود في القاموس السفود حديدة يشوى بها وتسفيد اللحم نظمه فيها.

(مونة البناء) ملاط الملاط الطين يجعل بين ساقى البناء ويملط به الحائط أي يطلى والساف كل عرق من الحائط والعرق كل صف من اللبن والآجر في الحائط والساف المدماك، (تقاوي) بذر البذر ما عزل للزراعة من الحبوب جمعه بذور وبذار.

(الوجاق) الوطيس الوطيس التنور، (الصنفرة) السفن من معاني السفن قطعة خشناء من جلد ضب أو سمكة يسحج بها القدح حتى تذهب عنه آثار المبرة.

(الدربةكة) الكوبة - الكوبة الطبل الصغير المخصر، (الطهارة) الختان. (الاستراد) المنصة - المنصة في الأصل ما ترفع عليه العروس واستعير لذلك المكان المرتفع الذي يصعد إليه بدرج لإلقاء درس مثلاً، (الدربزين) الدربزين ورد ذكر الدربزين في القاموس تفسيراً للجلفق واختيرت الكلمة لاستعمالها وغرابة الأخرى.

(النجفة) الثريا أصل الثريا علم لمجموعة من النجوم متضامة استعيرت لهذا المعنى لما بينهما من التشابه في التضام والإنارة، (ضيان) متين المتانة الصلابة والكلمة العامية تستعمل في الشيء ذي الصلابة والتحمل فهو معنى متين، (النفير) البوق - البوق بالضم الذي ينفخ فيه ويزمر، (سباطه) قنوق الكباش جمع أقناء وقنوان والكباش بالكسر العذق والعذق هو ما تعبر عنه العامة بالسباطة أما معنى السباطة لغة فهي الكناسة تطرح بأفنية البيوت، (المقشّة) المقشّة قش الرجل أكل من ههنا وههنا ولف ما قدر عليه من الخوان والشيء جمعه وكله مناسب لما تصنعه تلك الأداة والقشيش والقشاش اللقطة، (معية) حاشية الحاشية أصل الرجل وخاصته والأخير نص في المعنى المراد بمعية، (بدلة) حلّة الحلّة ما تتركب من ثوبين إزار ورداء وكذلك البدلة دائماً.

ياقة القميص زيق - زيق القميص بالكسر ما حاط بالعنق منه، سوارى فرسان، الأسيتك النوط معلق كل شيء، (شلتة) حشية - الحشية الفراش المحشو.

الفروق

للعرب كتب كثيرة في الفروق وأفردوها في التأليف، وقد ذكر منها صاحب كشف الطنون رسالة في فروق الأصول وأخرى في فروق فروع الحنفية للكرائسي النيسابوري المتوفي سنة، 774 وغيرها للشيخ الكرائسي السمرقندي المتوفي سنة 322 وثانية اسمها فروق الكرائسي المسمى بتلقيح المحبوب، ورابعة في فروق فروع الشافعية لابن سريج، وأخرى للجويني وابن النقاش وللترمزي (255) وللأرموي (772). قال ذَكَرَ الأسنوي في مطالع الدقائق أن المطارحة بالمسائل ذوات المأخذ الفؤتلفة المتفقة والأجوبة المختلفة المفترقة من مآثر وأفكار العلماء، وقال قد رأيت لأصحابنا في هذا المعنى تصانيف منها ما هو موضوع لهذا المعنى بخصوصه ومنها ما هو مشتمل على أعم، منه فمن الأول كتاب الجمع والفروق للشيخ أبي محمد الجويني ومنه كتاب الوسائل في فروق المسائل مجلد ضخمة لأبي الخير سلامة بن اسمعيل بن جماعة المقدسي، ومن الثاني كتاب المطارحات لأبي عبد الله القطان ظفر به الرافعي ونقل عنه في كتاب الغصب. ومنه المسكت بالسين المهملة والتاء المثناة لابن عبد الله الزبيري ومنها المعاياة لأبي العباس الجرجاني وهذا الباب واسع جداً اشتمل على الغثِّ والسمين.

ومن جملة المخطوطات التي حوتها خزانة كتب السيد عبد الباقي

الحسيني مخطوط فيه أربع رسائل وسمى أولها بكتاب المتوكل يذكرفيه ما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية وغير ذلك لجلال الدين السيوطي. والثانية الأحاديث الثمانية المنتخبة من نواذر الأصول العالية لأبي الضيا البوتيجي ويليه حسن النسيم بدار النعيم للطبلاوي ويليه المنتخب من كتاب الفروق لأبي هلال العسكري. وليس على المجموع كناية يعرف منها تاريخ كتابته إلا أن الظاهر من خطّه وورقه أنه حديث وربما كانت الرسالة الأخيرة منه في الفروق أقدم من الثلاث الأولى لأنها مكتوبة بخط مختلف عن الخط الأول ولم يذكر فيه اسم صاحبها والغالب أنه تركي كتب على حاشية الصفحة الأولى ما نصه: الفرق بين الاسامة والأسد اسم للجنس والاسامة علم للجنس. والفرق بين علم الجنس واسم الجنس أن علم الجنس موضوع للماهية المشتركة واسم الجنس موضوع للأفراد - جلبي. وقال على الحاشية الإنسان والفرس والبقر فإنها علم للحقيقة المشتركة بين المذكر والمؤنث شرح وفي آخر رسالة تمت (?) الكتاب بعون الملك الوهاب. وبذلك يستدل على أعجمية الكاتب والمختصر وإليك الرسالة برمتها:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين أما بعد حمد الله والصلوة والسلام على رسول الله ﷺ محمد وعلى سائر رسل الله وملائكته المقربين والرضى عن الصحابة والتابعين فهذه شذرة علقتها من كتاب الفروق لأبي هلال العسكري رحمه الله.

الفرق بين الاختصار والإيجاز أن الاختصار هو إلقاء الألفاظ من كلام مؤلف سبق حدوثه من غير إخلال بمعانيه والإيجاز هو الكلام على قلة اللفظ وكثرة المعاني.

الفرق بين الإطناب والإسهاب أن الإطناب بسط الكلام لتكثير الفائدة والإسهاب بسطه مع قلتها فالإطناب بلاغة والإسهاب عيٌّ.

الفرق بين المحال والممتنع على ما قاله بعض العلماء أن المحال ما لا يجوز كونه ولا يتصور مثل قولك الجسم أسود أبيض في حالة واحدة والممتنع ما لا يجوز كونه ويجوز تصوره في أهم مثل قولك للإنسان عش أبداً.

الفرق بين الإنكار والجحد أن الجحد أخص من الإنكار لأن الجحد إنكار الشيء الظاهر لقوله تعالى بآياتنا يجحدون والإنكار لشيء خفي لقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها لأن النعمة قد تكون خافية ويجوز أن يقال الجحد وإنكار الشيء مع العلم به لقوله تعالى وجحدوا بها والإنكار لا يكون مع العلم.

الفرق بين الزور والكذب والبهتان أن الزور هو كذب قد حُسن في الظاهر ليُحسب أنه صدق بخلاف الكذب وأما البهتان فهو مواجهة الإنسان بما يكرهه.

الفرق بين الافتراء والاختلاق أن المفتري يقطع بالكذب ويخبر به والمختلق يبتدئ كذباً ويخبر به.

الفرق بين الإقرار والاعتراف أن الإقرار فيما قاله أداء معاني أخبار عن شيء ماض وهو في الشريعة جهة ملزمة للحكم وقال بعضهم الاعتراف كالإقرار وقال أبو هلال يجوز أن يقرّ بالشيء وهو لا يعرف أنه أقرّ به ويجوز أن يقرّ بالباطل الذي لا أصل له ولا يقال لذلك اعتراف إنما الاعتراف هو الإقرار الذي صحبته المعرفة بما أقرّ به مع التزام له، ولهذا يقال اعتراف بالنعمة ولا يقال إقرار بها فكل اعتراف إقرار وليس كل إقرار

اعترافاً ولهذا اختار أصحاب الشروط الإقرار لأنه أعمّ ونقيض الاعتراف الجحد ونقيض الإقرار الإنكار.

الفرق بين الشكر والحمد أن الشكر هو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعّم والحمد هو الذكر الجميل على جهة التعظيم ويجوز أن يحمد الإنسان نفسه على أمور جميلة يأتيها ولا يجوز أن يشكرها فالاعتماد في الشكر على توجيه النعمة وفي الحمد على ما توجه الحكمة ونقيض الحمد الذم ونقيض الشكر الكفار ولا يجوز أن يطلق الحمد إلا لله تعالى.

الفرق بين الحمد والمدح أن الحمد لا يكون إلا على إحسان بخلاف المدح.

الفرق بين الجزاء والمكافأة والمقابلة أن الجزاء لا يلزم فيه المساواة بخلاف المكافأة والمقابلة وعورض بقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الآية.

الفرق بين الثناء والنشأ على ما قال بعضهم أن الثناء بتقديم الثناء يكون في الخير والشر والنشأ بتقديم النون لا يكون إلا في الشر والصحيح أن الثناء وهو الأول لا يكون إلا في الخير وربما استعمل في الشر والنشأ وهو الثاني يكون في الخير والشر.

الفرق بين السب والشتم أن الشتم تقبيح أمر المشتوم بالقول والسب هو الإطّباب في الشتم والإطالة فيه.

الفرق بين الشتم والسفه أن الشتم قد يكون حسناً إذا كان المشتوم يستحق الشتم والسفه لا يكون إلا قبيحاً.

الفرق بين الذمّ واللوم أن اللوم على الفعل الحسن والذم لا يكون إلا على القبيح.

الفرق بين العتاب واللوم أن العتاب هو يكون على تضييع حقوق المودة والصدقة بخلاف اللوم.

الفرق بين المستقيم والصحيح والصواب أن كل مستقيم صحيح وليس كل صواب صحيح مستقيماً.

الفرق بين المستقيم والصواب أن الصواب إطلاق الاستقامة على الحسن والمستقيم هو الجاري على سنن وإن كان قبيحاً.

الفرق بين الخطأ والغلط أن المخطئ من يقصد الشيء فيصيب غيره وأما الغلط فهو وضع الشيء في غير موضعه.

الفرق بين اللحن والخطأ أن اللحن في القول فقط والخطأ في القول والعمل. الفرق بين العقد والعهد أن العقد أبلغ من العهد.

الفرق بين العهد والميثاق أن الميثاق توكيد العهد وقال بعضهم العهد بين اثنين والميثاق من أحدهما.

الفرق بين الوعد والعهد أن العهد ما كان بشرط قال الله ولقد عهدنا إلى آدم الآية أن لا يخرج من الجنة ما لم يأكل من الشجرة بخلاف الوعد ويقال نقض العهد وأخلف الوعد.

الفرق بين التفسير والتأويل قيل أن التفسير هو الإخبار عن أفراد آحاد الجملة والتأويل الإخبار بمعنى الكلام جملة وقيل التفسير أفراد ما ينظمه ظاهر التنزيل والتأويل إخبار بغرض المتكلم وقيل التأويل استخراج معنى الكلام لا على ظاهره بل على وجه مجاز أو حقيقة.

الفرق بين الشرح والتفصيل أن الشرح بيان المشروح وإخراجه من

وجه الإشكال إلى التجلي والظهور ولهذا لا يستعمل الشرح في القرآن والتفصيل هو ذكر ما تضمّنته الجملة على سبيل الأفراد ولهذا قال الله تعالى ثم فُصِّلَتْ من لدنٍ حكيمٍ ولم يقل شرحت.

الفرق بين التقسيم والتفصيل أن في التفصيل معنى البيان عن كل قسم بما يريد ذكره فقط والتقسيم يحتمل الأمرين والتقسيم يفتح المعنى والتفصيل يتم بيانه.

الفرق بين القرآن والفرقان أن القرآن أعمّ والفرقان هو الفارق بين الحق والباطل والمؤمن والكافر.

الفرق بين السلام والتحية أن التحية أعمّ من السلام.

الفرق بين العام والمبهم أن العام يشتمل على أشياء والمبهم يتناول واحد الأشياء بعينه.

الفرق بين فحوى الخطاب ودليل الخطاب أن فحوى الخطاب باللفظ كقوله تعالى ولا تقل لهما أفّ ودليل الخطاب هو ما تعلّق بصفة الشيء أو عدده أو حاله أو غايته ونحوها.

الفرق بين البيان والفائدة أن البيان لمعرفة غيره والمعرفة لنفسه (؟)

الفرق بين القراءة والتلاوة أن التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعداً والقراءة تكون لكلمة واحدة.

الفرق بين المنازعة والمطالبة أن المطالبة تكون بما يعترف به المطلوب والمنازعة لا تكون إلا فيما ينكره المطلوب.

الفرق بين المسألة والفتيا أن المسألة عامة في كل شيء والفتيا سؤال عن حادثة.

الفرق بين بلى ونعم أن بلى لا تكون إلا جواباً لما تقدم جحوده كقوله تعالى: أأست برىكم قالوا بلى أما نعم فلا تكون إلا للاستفهام بلا جحود وكقوله تعالى: فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قالوا: نعم.

الفرق بين الوسوسة والفرع أن الفرع الإغواء بالوسوسة وأكثر ما يكون عند الغضب.

الفرق بين الدلالة والامارة أن الدلالة ما يؤدي النظر فيه إلى العلم والامارة ما يؤدي النظر فيه إلى الظن.

الفرق بين الاستدلال والدلالة أن الدلالة ما يمكن الاستدلال به والاستدلال فعل المستدل.

الفرق بين النظر والاستدلال أن الاستدلال طلب معرفة الشيء من جهة غيره والنظر طلب معرفته من جهته ومن جهة غيره.

الفرق بين النظر والتأمل أن النظر هو ما ذكرناه والتأمل هو النظر المؤمل به معرفة ما يُطلب ولا يكون إلا في مدة فكل تأمل نظر وليس كل تأمل نظراً.

الفرق بين النظر والبديهة أن البديهة أول النظر يقال عرفته على البديهة أي في أول أحوال النظر.

الفرق بين البديهة والرؤية أن الرؤية على ما قال بعضهم آخر النظر والبديهة أوله.

الفرق بين النظر والفكر أن النظر يكون فكراً ويكون بداهة والفكر ما عدا البديهة.

الفرق بين التفكير والتدبر أن التدبر صرف القلب بالنظر في العواقب والتفكير تصرف للقلب بالنظر في الدلائل.

الفرق بين الانتظار والترجي أن الترجي انتظار الخير خاصة ولا يكون إلا مع الشك وأما الانتظار والتوقع فهو طلب ما يقدر إيقاعه.

الفرق بين الانتظار والتربّص أن التربّص طول الانتظار.

الفرق بين خاطر والنظر أن خاطر مرور معنى بالقلب بمنزلة خطاب مخاطب وعند بعضهم أنه كلام يحدثه الله تعالى أو الملك في سمع الإنسان فإذا كان من الشيطان سمي وسواساً وعورض بالأخرس فإن له خاطراً ولا كلام له.

الفرق بين الذكر والخطر أن خاطر يكون ابتداء ويكون عن عزوب والذكر لا يكون إلا عن عزوب.

الفرق بين العلم والمعرفة أن المعرفة أخص من العلم لأنها لا تكون إلا مفصلة والعلم يكون مجملاً ومفصلاً قال بعضهم: ولا يوصف الله بأنه عارف قال المؤلف وليس كما قاله.

الفرق بين العلم واليقين أن العلم معرفة شيء على ما هو به أو اعتقاده واليقين هو سكون النفس بما علم وبهذا لا يجوز أن يوصف الله باليقين ويقال اليقين لا يزال بالشك وقُلَّ أن يُقال العلم لا يزال بالشك.

الفرق بين الشعور والعلم أن الشعور النظر الدقيق الموصل للعلم والعلم أعم.

الفرق بين المعرفة الضرورية والإلهام أن الإلهام ما يبدو في القلب من المعارف بطريق الخير فيفعل وبطريق الشر فيترك والمعارف الضرورية أربعة عند المشاهدة وعند التجربة وعند الإخبار وعند أوائل العقل.

الفرق بين العالم والمحقق أن المحقق هو المتطلب حق المعنى حتى يدركه ولهذا لا يقال أن الله محقق وقيل التحقيق لا يكون إلا بعد الشك بخلاف العلم.

الفرق بين العلم والعقل أن العقل هو العلم الأول الزاجر عن القبيح وكل من كان زاجره أقوى كان أعقل ولهذا لا يوصف الله تعالى به وقال بعضهم العقل الحفظ يقال عقلت الدرهم أي حفظتها ومن هذا الوجه يجوز أن يقال الله تعالى عاقل أي حافظ إلا أنه لم يستعمل.

الفرق بين الذهن والعقل أن الذهن هو نقيض سوء الفهم وهو عبارة عن وجود الحفظ لما يتعلمه ولا يوصف الله تعالى به والعقل ما تقدم.

الفرق بين الفطنة والذهن أن الفطنة هي التنبه على المعنى وضدها الغفلة ويجوز أن يقال أن الفطنة ابتداء المعرفة من وجه غامض وكل فطنة علم لا كل علم فطنة والذهن ما تقدم.

الفرق بين الفطنة والذكاء أن الذكاء تمام الفطنة وفي الذكاء معنى زائد عن الفطنة.

الفرق بين الفطنة والحذاقة أن الحذاقة هي سرعة الحركة في الأمور وأصلها الحدة والتناهي فلما كان الله تعالى لا تتناهى معلوماته لم يجز أن يوصف بالحذاقة والفطنة ما تقدم.

الفرق بين الألمعي واللودعي أن اللودعي هو الخفيف الظريف مأخوذ من لدع النار وهو سرعة أخذها من الشيء والألمعي هو الفطن الذكي الذي تبين له عواقب الأمور بأدنى لمعة أي لوح له.

الفرق بين القريحة والطبيعة أن الطبيعة ما طبع عليه الإنسان أي خلق والقريحة فيما قال المبرد ما خرج من الطبيعة من غير تكلف وقولهم ماء قراح أي لم يخالطه شيء وللأرض التي لا تنبت قرواح والشجرة إذا جاوزت الدهر قرواحة والفرس القارح القديم السنّ وأما القرّح في الجلد والقرحة شبيهه.

الفرق بين العلم والفقه أن الفقه هو العلم بمقتضى الكلام على ما تأمله بخلاف العلم ولهذا لا يقال أن الله تعالى تفقّه لأنه لا يوصف بالتأمل. الفرق بين السمع والإصغاء أن السمع هو إدراك المسموع والإصغاء طلب إدراكه.

الفرق بين السمع والاستماع هو الإصغاء للمسموع ليفهم بخلاف السمع ولهذا لا يقال أن الله تعالى يستمع.

الفرق بين العلم والإدراك أن الإدراك موقوف على أشياء مخصوصة وليس العلم كذلك والإدراك يتناول الشيء على أخصّ أوصافه وعلى الجملة فالعلم يقع بالمعدوم ولا يدرك إلا الموجود والإدراك طريق من طريق العلم ولهذا العلم قوّته ضعفه بالمدرّك والدراية هي الفهم.

الفرق بين الإحساس والإدراك على ما قاله بعضهم أنه يجوز أن يدرك الإنسان الشيء وإن لم يحس به كما يدركه ببصره ويغفل عنه فلان فلا يعرفه وقال أهل اللغة لما أشعرت به أحسست به أي أدركته بحسك وفي القرآن: فلما أحسوا بأسنا وفيه: فتحسسوا من يوسف وأخيه أي تعرفوا بإحساسهم وقال بعضهم الحس هو أول العلم ومنه قوله تعالى فلما أحس عيسى منهم بالكفر أي علمه من أول وهلة ولا يجوز أن يقال الإنسان يحس بوجود نفسه.

الفرق بين العلم والاعتقاد أن العلم أعمّ فلا يلزم من العلم الاعتقاد بخلاف عكسه.

الفرق بين العلم والحفظ أن الحفظ هو العلم بالمسموعات دون غيرها من المعلومات ألا ترى لا يقال حفظت أن زيداً في البيت ولا يقال للعلم بالمشاهدات حفظ ويجوز أن الحفظ هو العلم بالشيء حالاً بعد حال من غير تخلل جهل أو نسيان ولهذا سمي حفظ القرآن حفظاً ولا يوصف الله بالحفظ لذلك.

الفرق بين الذكر والتنبيه أن الذكر هو العلم بالحادث بعد النسيان بخلاف التنبيه.

الفرق بين العلم والإحاطة أن الإحاطة كالدائرة من كل وجه تجيء بمعنى العام وبمعنى القدرة وقد جاءت لفظة الإحاطة في القرآن كثيراً منه قوله تعالى وكان الله بكل شيء محيطاً وقد أحاط بكل شيء علماً والله محيط بالكافرين والعلم ما تقدم.

الفرق بين المعروف والمشهور أن المشهور هو المعروف عند جماعة كثيرة والمعروف هو المعروف ولو عن واحد.

الفرق بين العلم والشهادة أن العلم أعمّ والشهادة أخصّ.

الفرق بين الشاهد والمشاهد أن المشاهد للشيء هو المدرك له رؤية وقيل رؤية أو سمعاً وهو في الرؤية أشهر ولا يقال أن الله لم يزل مشاهداً لأنه يقتضي إدراكاً بجلّه والشاهد هو يقتضي ذلك.

الفرق بين الشاهد والحاضر أن الشاهد للشيء يقتضي العلم بخلاف

الحاضر ألا ترى أنه يقال حضره الموت لا شاهده الموت ولا يصح وصف الموت بالعلم.

الفرق بين الإعلام والإخبار أن الإعلام التعريض بما علم به والإخبار إظهار الخبر علم به أو لم يعلم.

الفرق بين العلم والتقليد أن العلم معرفة الشيء واعتقاده على ما هو به على سبيل الثقة والتقليد قبول الأمر ممن لا يؤمن عليه الغلط بلا حجة.

الفرق بين النسيان والسهو أن النسيان إنما يكون عما كان والسهو يكون عما لم يكن يقال نسيت ما عرفته وبهذا يقال سهوت عن السجود الذي لم يكن ويقال النسيان عن ذكر والسهو عن ذكر وعن غيره.

الفرق بين السهو والغفلة أن الغفلة تكون عما لا يكون والسهو عما يكون وفرق آخر وهو أن الغفلة تكون عن فعل الغير ولا يجوز أن يسهى عن فعل الغير.

الفرق بين النوم والإغماء أن الإغماء سهو من مرض فقط والنوم سهو بمحدث من فتور جسم.

الفرق بين الظن والحسبان على قول بعضهم أن الظن ضرب من الاعتقاد والحسبان ليس بالاعتقاد.

الفرق بين الريبة والتهمة وكلاهما مذمومتان أن الريبة في الإنسان تورث شكاً في صلاحه مثلاً والتهمة تورث مقالاً فيه فكل مرتاب متهم وكل متهم ليس بمرتاب.

الفرق بين التصور والتخيّل أن التصور لا يثبت على حال وقيل التخيّل

تصور الشيء على أوصافه والتخيل والتصور منافيان العلم كما أن الظن والشك ينافيانه.

الفرق بين الحماقة والرقاعة أن الرقاعة على ما قال بعضهم حمق مع رفعة وعلو رتبة ولا يقال أحمق إذا كان سيذاً أو رئيساً أو ذا مالٍ أو جاه.

الفرق بين الحياة والعيش أن العيش سبب الحياة من أكل وشرب ونحوهما.

الفرق بين الحياة والروح أن الروح من قرائن الحياة والحياة عرض والروح جسم رقيق من جنس الريح وقيل هي جسم رقيق حساس وزعم الأطباء أن موضعها في الصدر من الحجاب والقلب، وذهب بعضهم إلى أنها مبسوطة في جميع البدن وفيه خلاف كثير وسمي جبرائيل عليه السلام روحاً لأن الناس ينتفعون به في دينهم كانتفاعهم بالروح وبهذا المعنى سمي القرآن روحاً.

الفرق بين الروح والمهجة والنفس والذات أن الروح ما تقدم والمهجة خالص دم الإنسان الذي إذا خرج خرجت روحه وهو دم القلب والنفس مشتركة يقع على الروح والذات.

الفرق بين الإهلاك والإعدام أن الإهلاك أعم من الإعدام فكل إعدام إهلاك وليس كل إهلاك إعداماً.

الفرق بين القدرة والقهر أن القدرة تكون على صغير المقدور وكبيره والقهر يدل على كبير المقدور.

الفرق بين الغلبة والقدرة أن الغلبة من فعل الغالب وليست القدرة من فعل القادر.

الفرق بين القهر والغلبة أن الغلبة من نتاج القدرة.

الفرق بين القادر والقوي أن القوة أخصّ والقوة أعمّ فكل قوي قادر لا كلّ قادر قويّ.

الفرق بين القوة والشدة أن الشدة ليست من قبيل القدرة قال الله تعالى: أشدّ منهم قوة أي أقوى منهم وفي القرآن: ذو القوة المتين أي العظيم الشأن في القوة.

الفرق بين الشدة والصعوبة أن الشدة ما ذكرناه والصعوبة تكون في الأفعال دون غيرها.

الفرق بين الصحة والعافية أن الصحة أعمّ والعافية أخصّ.

الفرق بين الصحة والسلامة أن السلامة نقيض الهلاك والصحة نقيض السقم.

الفرق بين القدرة والطاقة أن الطاقة غاية مقدرة القادر واستفراغ وسعه في المقدور ولا يقال تعالى مطيق.

الفرق بين القدرة والاستطاعة أن القدرة أعمّ والاستطاعة أخصّ وكل مستطيع قادر لا كل قادر مستطيع.

الفرق بين القادر والتمكّن قال بعضهم معناهما واحد وبعضهم فرق والاستطاعة والتمكن من صفات المخلوقين.

الفرق بين الدوام والخلود أن الدوام هو استمرار البقاء في جميع الأوقات والخلود هو استمرار البقاء من وقت المبدأ والله تعالى موصوف بالدوام لا بالخلود.

الفرق بين الدائم والسرمد أن السرمد هو الذي لا فصل فيه بل أتباع الشيء بالشيء.

الفرق بين الخلود والبقاء أن الخلود استمرار البقاء من وقت له مبدأ وأصل الخلود اللزوم.

الفرق بين القديم والباقي أن الباقي هو الموجود لا عن حدوث والقديم ما لم يزل كائناً موجوداً والقديم على الحقيقة هو الذي لا أول لوجوده.

الفرق بين الأول والسابق أن السابق يقتضي أن يكون ثم مسبوق والأول لا يقتضي ثانياً ألا ترى أنك تقول هذا أول موجود ولد لفلان وإن لم يولد له غيره وأول عبد يملكه حيّ وإن لم يملك غيره وبهذا يبطل قول الملحدين أن الأول لا يسمى أول إلا بالإضافة إلى الثاني.

الفرق بين الحب والود أن الحب فيما يكون يوجهه ميل الطباع والود من جهة ميل الطباع فقط.

الفرق بين الإرادة والرضا أن الإرادة تكون الطاعة قبلها والرضا بها يكون بعدها أو معها والرضا نقيض السخط والسخط من الله تعالى إرادة العقاب فينبغي أن يكون الرضا منه إرادة الثواب.

الفرق بين الإرادة والمشئة أن الإرادة لما يتراخى وقته ولما لا يتراخى والمشئة لما يتراخى وقتها فقط.

الفرق بين المشئة والعزم أن المشئة تقدم والعزم إرادة يقطع بها المرید رؤيته في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه ويختص بإرادة المرید لفعل نفسه لأنه لا يجوز أن يعزم على فعل غيره.

الفرق بين العزم والنية أن النية إرادة متقدمة لتفعل بأوقات والعزم قد يكون متقدماً للمعزوم عليه بأوقات أو توقت ولا يوصف الله تعالى بالنية ولا بالعزم.

الفرق بين الإرادة والاختيار أن الاختيار إرادة الشيء بدلاً من غيره بخلاف الإرادة.

الفرق بين القصد والإرادة أن قصد القاصد مختص بفعله دون فعل غيره والإرادة غير مختصة بأحد الفعلين دون الآخر والقصد أيضاً إرادة الفعل في حال اتحاده فقط إذا تقدمته بأوقات لم يسم قصداً إلا أنه لا يقال قصدت أن أزورك غداً.

الفرق بين الهم والإرادة إن الهم إجراء العزيمة عند موافقة الفعل وقيل الهم تعلق خاطر بشيء له قدر في الشدة والمهمات الشدائد.

الفرق بين الهمة والقصد أن الهمة اتساع الهم وقوته فتقول فلان ذو همة وذو عزيمة.

الفرق بين الغضب والغیظ أن الغیظ يكون من نفسه ولا يجوز أن يغضب على نفسه لأن الغضب إرادة الضرر للمغضوب عليه ولا يجوز أن يريد الإنسان الضرر لنفسه.

الفرق بين الهم والحزن أن الحزن على ما فات والهم على ما هو آت فقلته من غير الكتاب المذكور.

الفرق بين الغضب والسخط أن الغضب يكون من الصغير على الكبير ومن الكبير على الصغير والسخط لا يكون إلا من الكبير فقط.

الفرق بين العداوة والشنآن أن العداوة إرادة السوء لمن تعاديه والشنآن على قول بعضهم طلب العتب على فعل الغير لما سبق من عداوته.

الفرق بين المعادة والمخاصمة أن المخاصمة من قبل القول والمعادة من أفعال القلوب ويجوز أن يخاصم غيره من غير معادة وأن يعادي غيره من غير مخاصمة.

الفرق بين الاختراع والابتداع أن الابتداع إيجاد ما لم يسبق إلى مثله بخلاف الاختراع.

الفرق بين الفعل والإنشاء أن الإنشاء هو إحداث الشيء حالاً بعد حال من غير ابتداء على مثال بخلاف الفعل وقال بعضهم أن الإنشاء الابتداء والإيجاد من غير سبب والفعل يكون عن سبب قال آخرون الفعل إيجاد بعد أن لم يكن بسبب وبغير سبب والإنشاء ما يكون بغير سبب والوجه الأول أجود.

الفرق بين المبدئ والمبتدئ للفعل هو المحدث له ولا يقدر عليه إلا الله تعالى والمبتدئ بالفعل هو الفاعل لفعله من غير تميمه.

الفرق بين العمل والفعل أن العمل إيجاد الأثر في الشيء بخلاف الفعل.

الفرق بين العمل والصنع أن الصنع ترتيب العمل وإحكامه دون العمل.

الفرق بين الجعل والعمل أن العمل إيجاد الأثر في الشيء والجعل بغير صورته.

الفرق بين الأخذ والتناول أن تناول أخذ الشيء للنفس خاصة والأخذ لنفسه ولغيره فهو أعم ويجوز أن يقال تناول يقتضي تسليم شيء بخلاف الأخذ قال الله تعالى وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم.

الفرق بين الواحد والفرد أن الواحد يقتضي الانفراد بالذات أو بالصفة والفرد نقيض الزوج.

الفرق بين الانفراد والاختصاص أن الانفراد ما تقدم والاختصاص انفراد بعض الأشياء بمعنى دون غيره.

الفرق بين الواحد والأوحد أن الأوحد من فارق غيره ممن يشاركه في فنّ من الفنون بخلاف الواحد.

الفرق بين الفرد والواحد أن الفرد يفيد التقليل دون التوحيد ولهذا لا يقال لله تعالى فريد كما يقال له فرد.

الفرق بين الواحد والمنفرد أن المنفرد يقتضي التخلي والانقطاع عن الغرباء ولهذا لا يقال لله تعالى المنفرد بالنون كما يقال يتفرد بالتاء المتخصّص بتدبير الخلق وغير ذلك مما يختصّ به من صفاته وأفعاله سبحانه وتعالى.

الفرق بين الواحد والوحيد والفريد أن الوحيد والفريد يقتضي التخلي عن الأنيس ولا يوصف به إلا الله تعالى بخلاف الواحد.

الفرق بين التفرد والتوحيد أن التفرد بالفضل والنبل والتوحيد التخلي. الفرق بين الوحدانية والوحدة أن الوحدة التخلي والوحدانية تقتضي نفي الأشكال والنظراء ولا يستعمل في غير الله تعالى واحد من طريق العدد.

الفرق بين الواحد والأحد أن الواحد لا ثاني له والأحد لا يقبل التجزيء والواحد يختصّ بالصفات والأحد بالذات.

الفرق بين الكل والجمع أن الكل عند بعضهم هو الإحاطة بالأجزاء والجمع الإحاطة بالأبعاض.

الفرق بين البعض والجزء أن الجزء لا ينقسم وأن البعض ينقسم ويقتضي كلاً والجزء يقتضي جمعاً.

الفرق بين الجزء والسهم أن الجزء من جملة ما أقسمت عليه والاثنا عشر من العشرة والثلاثة ليست بجزء منها لأنها لا تنقسم عليه وكل ذلك يسمى سهماً كما قال بعضهم.

الفرق بين الشبيه والمشبّه أن الشبيه أعمّ والمشبّه أخصّ.

الفرق بين المثل والنظير أن المثلين ما تكافأ في الذات والنظير ما قل نظيره في حسن أفعاله.

الفرق بين الصفة والهيئة من قبيل الأسماء واستعمالها في المسميات وليست الهيئة كذلك.

الفرق بين الجنس والنوع أن الجنس أعم من النوع والصفة.

الفرق بين الحظ والقسم أن كل قسم حظ وليس كل حظ قسماً.

الفرق بين النصيب والحظ أن النصيب يكون في المحبوب والمكروه والحظ لا يكون إلا في المحبوب.

الفرق بين الرزق والغذاء أن الرزق اسم لما يملك صاحبه الانتفاع به فليس كل ما يتغذى به الإنسان رزقاً كالمسروق وليس هو رزقاً للشارق إذ لو كان رزقاً له لما ذم عليه والرزق ما ينتفع به ليدخل الحرام والإلزام أنه لو عاش عمره بالحرام لم يكن له رزق وأما الذم عليه فأمر آخر.

الفرق بين البر والصلة أن البر يكون بسعة الفضل وبلين الكلام وبالملقة بجهل (؟) القول والفعل والصلة بالمواصلة بالفضل.

الفرق بين البرّ والخير أن البرّ لا يكون إلا عن قصد والخير عن قصد وسهو.

الفرق بين الغنيمة والفِيء أن الغنيمة اسم لما أخذناه من أموال المشركين بقتال والفِيء ما أخذناه من أموالهم بغير قتال إذ سبب أخذه الكفر.

الفرق بين القرض والدين أن القرض يستعمل في الدين والنقد بخلاف الدين فكل قرض دين ولا كل دين قرض.

الفرق بين السخاء والجود أن الجود كثرة العطاء من غير سؤال والسخاء أن يلين عند السؤال.

الفرق بين الكرم والجود أن الجود ما ذكرنا والكرم على وجوه فيقال الله تعالى كريم أي عزيز وهو من صفات ذاته ومنه قوله تعالى ما غرّك بربك الكريم أي العزيز الذي لا يغلب والكريم الحسن في قوله تعالى من كل زوج كريم ومثله وقل لهما قولاً كريماً أي حسناً والكرم بالفضل في قوله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم أي أفضلكم ومنه قوله تعالى ولقد كرّمنا بني آدم أي فضلناهم والكريم أيضاً السعيد في قوله عليه الصلاة والسلام إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه أي سيد قوم ويجوز أن يقال الكرم إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلاً كان أو كثيراً هذا كلام من الكتاب وفي كتب الفقه أشياء غير ذلك فلتراجع.

الفرق بين الكرم والإيثار أن الإيثار بذل الشيء مع الحاجة إليه بخلاف الكرم والجود والسخاء.

الفرق بين الشحّ والبخل أن الشحّ الحرص على منع الخير والبخل منع الحق.

الفرق بين الصمد والسيد أن السيد المالك والصمد يقتضي القوة على الأصوب.

الفرق بين سيد القوم وأكبرهم أن سيدهم هو الذي يلي تدبيرهم وكبيرهم هو الذي يفضلهم في العلم والسنّ والشرف.

الفرق بين مالك ومالك أن مالك يفيد مملوكاً ومالك لا يفيد ذلك لكنه الأمر بسعة القدرة على أن المالك بيان أوسع من الملك لأنك تقول الله مالك الملائكة والأنس والجن.

الفرق بين مالك ومليك أن المليك يقتضي المبالغة مثل سميع وعليم ولا يقتضي مملوكاً.

الفرق بين العظيم والكبير أن الكبير الذي ليس فوقه أحد وقد يكون من جهة الكثرة ومن غير جهة الكثرة ولذلك جاز بأن يوصف الله تعالى بأنه عظيم ولم يوصف سبحانه بأنه كبير فقط وقد يعظم الشيء من جهة الحسن ومن جهة الثقيف وفرّق بعضهم بين الجليل والكبير بأن قال الجليل في أسماء الله تعالى هو العظيم الشأن الذي يستحق الحمد والكبير من يستحق صفة الحمد والأجل من ليس فوقه من هو أجل منه.

الفرق بين الإله والمعبود أن الإله هو الذي يحقّ له العبادة فلا إله إلا الله وليس كل معبود يحق له العبادة ألا ترى أن الأصنام معبودة والمسيح معبود ولا يحق لها ولا له العبادة.

الفرق بين قولنا الله وبين قولنا إله أن قولنا الله اسم لم يسمّ به غير الله تعالى إلهاً على جهة الخطأ وأما قول الناس لا معبود إلا الله أي لا يستحق العبادة إلا الله.

الفرق بين قولنا يحق له العبادة وقوله يستحق العبادة أن قولنا يحق له العبادة يفيد على أنه صفة يصحّ أنه منعم وقولنا يستحق يفيد أنه قد أنعم واستحق.

الفرق بين الله وقولنا اللهم أن قولنا الله اسم وقولنا اللهم نداءً أي يا امه.

الفرق بين النصير والولي أن الولاية قد تكون بإخلاص المودة والنصرة تكون بالمعونة والتقوية ولا تمكن النصرة مع الولاء.

الفرق بين الحكم والقضاء والقدر والتقدير أن الحكم إلزام قد يكون عن خصومة وقد فصل الأمر على الأحكام مما يقتضيه الشرع والعقل والقضاء والفصل الأمر التمام (؟) وأما المقدّر فهو على ما قاله بعضهم وجود القول على مقدار ما أَراده ولا يستعمل إلا في أفعال الله تعالى وأما التقدير فيستعمل في أفعاله وأفعال عباده.

الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة أبلغ من الرحمة.

الفرق بين الضرّ والبؤس أن الضرّ يكون من حيث لا يعلم المقصود به والبؤس لا يكون إلا من حيث يعلم.

الفرق بين المضرة والإساءة أن الإساءة قبيحة والمضرة قد تكون حسنة نحو المضرة بالضرب للتأديب والتعليم.

الفرق بين الإمهال والإنظار أن الإنظار مقرون فيما يقع فيه النظر والإمهال فيه (؟) وقيل الإنظار تأخير العبد للنظر في أمره والإمهال تأخيرته لتسهيل ما يتكلفه من عمله.

الفرق بين السرعة والعجلة أن السرعة التقدم فيما ينبغي أن يتقدم فيه وهي محمودة ونقيضها مذموم وهو الإبطاء والعجلة التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة ونقيضها محمود وهي الأناة وأما قوله تعالى: وعجلت إليك رب لترضى فإنه بمعنى أسرع.

الفرق بين الهداية والإرشاد أن الإرشاد إلى الشيء هو التطريق إليه والتسنن له والهداية هي التمكن من الوصول إليه.

الفرق بين الخير والصلاح أن الصلاح هو الاستقامة على ما تدعو له الحكمة في الضرّ والنفع والخير أعمّ وأفعال الله كلها خير.

الفرق بين الصلاح والفلاح أن الصلاح ما يتمكن به من الخير أو يتخلص به من الشر والفلاح نيل الخير والنفع الباقي.

الفرق بين الفساد والقيح أن الفساد هو التغيير عما تدعو إليه الحكمة والقيح ما يزجر عن الحكمة.

الفرق بين الدين والملة أن الملة اسم لجملة الشريعة والدين اسم لما عليه كل واحد من أهلها.

الفرق بين بين العباد والطاعة أن العباد غاية الخضوع ولا تكون إلا لله والطاعة الفعل الواقع على حسب الإرادة ويكون للخالق والمخلوق.

الفرق بين الدين والشريعة أن الشريعة هي الطريق والدين ما يطاع به المعبود ولكل منا دين وليس لكل منا شريعة.

الفرق بين الإجابة والقبول أن القبول يكون للأعمال والإجابة للأدعية.

الفرق بين الحلال والمباح أن الحلال هو المباح بالشرع والمباح لا يعتبر فيه ذلك الشيء في السوق (؟) مباح لإحلال الحلال خلاف الحرام والمباح خلاف المحظور.

الفرق بين الإسلام والإيمان أن الإيمان طاعة الله الذي يأمن بها العقاب على ضدها والإسلام طاعة الله التي يسلم بها من عقاب الله هذا

كلامه في هذا الكتاب وليس فيه فرق بينهما والفرق مشهور في مآله في كلام القائلين بالفرق.

الفرق بين الفسق والفجور أن الفسق هو الخروج من طاعة الله بكبيرة والفجور الانبعاث من المعاصي فلا يقال لصاحب الصغير فاجر.

الفرق بين الظلم والجور أن الجور خلاف الاستقامة في الحكم والظلم قيل ضرر من حاكم أو غيره فهو أعم وقيل وضع الشيء في غير محله وقيل نقصان الحق والجور والعدول عن الحق.

الفرق بين القبيح والفاحش أن الفاحش الشديد القبح ويستعمل في الصورة فيقال الفرد قبيح الصورة لا فاحش الصورة ويقال فاحش القبح فاحش الطول أي جاوز الاعتدال مجاوزة حد الاعتدال مجاوزة فاحشة والقبيح ليس كذلك.

الفرق بين الحرام والسحت إن السحت مبالغة في حقيقة الحرام فيقال حرام سحت لا سحت حرام وقيل السحت الحرام الظاهر لأن كل سحت حرام لا كل حرام سحت ويجوز أن يقال السحت الحرام الذي لا بركة له. الفرق بين الإثم والخطيئة أن الخطيئة قد تكون من غير تعمّد ولا يكون الإثم إلا تعمّداً.

الفرق بين الإثم والذنب أن الإثم لغة التقصير والذنب ما يتبعه الذم وقولهم للصبي أذنب مجاز.

الفرق بين الوزر والذنب أن الوزر ما يثقل صاحبه ومنه قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك والذنب ما تقدم.

الفرق بين العدل والقسط أن القسط هو العدل الظاهر البيّن والعدل قد يخفى.

الفرق بين الندم والتوبة أن التوبة أخصّ من الندم فكل توبة ندم ولا كل ندم توبة أما الحديث الندم توبة أي معظمها كالحج عرفة.

الفرق بين الاستغفار والتوبة أن الاستغفار طلب المغفرة والتوبة الندم على الخطيئة والإقلاع عنها والعزم على ترك العود ولا يجوز الاستغفار مع الإصرار.

الفرق بين التأسف والندم أن التأسف يكون على الفائت من فعلك وفعل غيرك والندم من أفعال القلوب يتعلّق بفعل النادم وغيره.

الفرق بين العفو والغفران أن الغفران يقتضي إسقاط العقاب ونيل الثواب ولا يستحقه إلا المؤمن ولا يستعمل إلا في الله تعالى ويستعمل في غيره شاذّاً قليلاً والعفو يقتضي إسقاط اللوم والذم ولا يقتضي نيل الثواب ويستعمل في العبد والمراد من العفو والغفران محو الذنوب.

الفرق بين الغفران والستر أن الغفران أخصّ فيجوز أن يستر عنه ولا يغفره.

الفرق بين الصفح والغفران أن الغفران ما ذكرناه والصفح التجاوز عن الذنب.

الفرق بين الإحباط والتكفير أن الإحباط يطال الحسنات بالسيئات والتكفير ضده.

الفرق بين الثواب والعوض أن عوض يكون على فعل المعوّض والثواب لا يكون على فعل المثيب والثواب يقع مكافأة على الحقوق والعرض يقع على جهة المسامحة.

الفرق بين الثواب والأجر أن الأجر قد يكون قبل الفعل المأجور عليه

بخلاف الثواب والثواب قد اشتهر في الجزاء على الحسنات والأجر يقال كذلك ويقال على معنى الأجرة على الانتفاع.

الفرق بين العذاب والألم أن العذاب أخصّ من الألم فإن العذاب هو الألم المستمر والألم مستمر أو غير مستمر.

الفرق بين الألم والوجع أن الوجع أهمّ من الألم.

الفرق بين العذاب والعقاب أن العقاب ينبئ عن استحقاق والعذاب يجوز أن يكون باستحقاق وبغير استحقاق.

الفرق بين البلاء والنقمة أن البلاء يكون ضرراً ويكون نفعاً والنقمة لا تكون إلا عقوبة وشدة وتسمى النقمة والبلاء لا يسمى نقمة.

الفرق بين الخوف والخشية أن الخوف يتعلق بالمكروه ومنزله والخشية تتعلق بمنزلة المكروه ولا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية.

الفرق بين التخويف والإنذار أن الإنذار تخويف مع إعلام موضع المخافة وإن لم يعلم لم يكن أنذره.

الفرق بين الخوف والفرع أن الخوف ما ذكرناه والفرع ما فاجأ الخوف عند هجوم عارض أو صوت ونحوهما وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل.

الفرق بين الخوف والوجل أن الخوف يكون من متعدٍ والوجل من غير متعدٍ ومنه قوله تعالى: الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم.

الفرق بين الخجل والحياء أن الخجل معنى يظهر في الوجه ارتداً بقوة ويجوز أن يكون الخجل عما كان والحياء عما يكون.

الفرق بين الرجاء والطمع أن الرجاء هو الظن لوقوع الخير كالأمل

والخشية والخوف ضدّهما والرجاء لا يكون إلا من سبب والطمع ما يكون من غير سبب ولهذا مُدح الرجاء ودُمّ الطمع.

الفرق بين اليأس والقنوط أن القنوط أشدّ مبالغة من اليأس.

الفرق بين الكبر والجبروت أن الجبروت أبلغ من الكبر.

الفرق بين العجب والكبر أن العجب بالشيء شدة السرور به والكبر إظهار عظم الشأن وهي العزة والسلطنة.

الفرق بين الخشوع والخضوع أن الخضوع فعل يرى فاعله وأن الخضوع له فوقه وأعظم منه والخشوع يكون في الكلام خاصة لقوله تعالى: وخشعت الأصوات للرحمن وقيل هما من أفعال القلوب.

الفرق بين التواضع والتذلل أن التذلل إظهار العجز عن مقاومة من يتذلل له والتواضع إظهار قدرة من يتواضع له سواء كان ذا قدرة على المتواضع أم لا.

الفرق بين التذلل والذلّ أن التذلل فعل المتصف به وهو إدخال نفسه في الحكم والذليل المفعول به من قبل غيره.

الفرق بين الخضوع والذلّ أن الخضوع ما ذكرناه والذلّ الانقياد كرهاً ونقيضه العزّ.

الفرق بين الذلّ والإهانة أن الذلّ ما ذكرناه والإهانة أن يجعل كالصغير لا يبالى به.

الفرق بين الذليل والمهين أن الذليل ما ذكرناه والمهين هو المستضعف.

الفرق بين الحقير والصغير أن الحقير من نقص عن مقداره المعهود والصغير يكون بالإضافة إلى من هو أكبر منه.

الفرق بين اليسر والقليل أن القليل يقتضي نقصان العدد واليسير ما يشتد تحصيله أو طلبه ولا يقتضي نقصان العدد.

الفرق بين الكثير والوافر أن الكثرة زيادة العدد والوفور إجماع أجزاء العدد حتى يكمل حجمه.

الفرق بين الجَمّ والكثير أن الجَمّ هو الكثير المجتمع والكثير قد يكون عن مجتمع.

الفرق بين العبث واللعب واللهو أن العبث ما خلا عن الإدارة والإرادة حدوثه واللهو واللعب يتناولها غير إرادة حدوثهما وقيل اللعب عمل للذة لا يراعى فيه داعي الحكم كعمل الصبي واللهو للعب واللعب قد يكون ليس باللهو.

الفرق بين المزاح والاستهزاء أن المزاح لا يقتضي تحقير من تمازحه بل إيناسه والاستهزاء يقتضي تحقير من يستهزأ به.

الفرق بين الاستهزاء والسخرية أن السخرية تدل على فعل شيء يشتق منه السخرية بخلاف الاستهزاء.

الفرق بين المزاح والهزل أن الهزل يقتضي تواضع الهازل لمن يهزل بين يديه بخلاف المزاح.

الفرق بين المزاح والمجون أن المزاح ما ذكرناه والمجون صلابة الوجه وقلة الحياء.

الفرق بين الحيلة والتدبير أن الحيلة ما أحيل به عن وجهه فيجلب به نفع أو يدفع به ضرر والتدبير هو إصلاح أمره أو أمر من يلوذ به وقد لا يكون حيلة.

الفرق بين الكيد والمكر أن المكر كالكيد إلا أنه لا يكون إلا مع الفكر والكيد أقوى من المكر.

الفرق بين الحيلة والمكر أن من الحيلة ما ليس بمكر.

الفرق بين الغرور والخداع أن الخداع يستر عنه وجه الصواب ليوطنه في مكروه والخطر ركوب المخاوف رجاء بلوغ المراد.

الفرق بين الحسن والبهجة أن البهجة حسن الفرح تفرح به القلوب والحسن لا يقتضي ذلك.

الفرق بين الحسن والجمال أن الجمال ما يحمد من الأفعال والأخلاق وكثرة المال وليس هو من الحسن في شيء.

الفرق بين الجمال والبهاء أن البهاء بهارة المنظر بخلاف الحسن.

الفرق بين التمام والكمال أن التمام اسم للجزء والبعض الذي يتم به الموصوف بأنه تام والكمال اسم لأجماع أبعاض الموصوف.

الفرق بين البشاشة وطلاقة الوجه أن البشاشة إطلاق السرور عند اللقاء سواء كان أولاً وآخرأ وطلاقة الوجه خلاف العبوس تكره الوجه عند اللقاء.

الفرق بين الطهارة والنظافة أن الطهارة تكون في الخلقة والمعاني والنظافة لا تكون إلا في الخلقة واللباس لا في المعاني.

الفرق بين القبيح والوحش أن الوحش الهزيل والقبيح في المنظر ويجوز أن يقال الوحش هو المتناهي في القباحة.

الفرق بين السرور والفرح أن السرور لا يكون إلا بما هو نفع أو لذة على الحقيقة وقد يكون الفرح ما ليس بنفع ولا لذة كفرح الصبي بالرقص مثلاً.

الفرق بين الغمّ والهَمّ أن الهَمّ هو الفكر في إزالة المكروه واجتلاب المحبوب والغمّ معنى لتنعّص القلب معه لوقوع ضرر كان أو يكون أو لتوهمه.

الفرق بين الهبوط والنزول أن الهبوط نزول يعقبه إقامة بخلاف النزول. الفرق بين المحض والخالص أن المحض الذي لم يخالطه شيء والخالص هو المختار من الجملة كالذهب المصفى.

الفرق بين إخماد النار وإطفائها أن الإخماد يستعمل في الكثير والإطفاء في القليل.

الفرق بين النجم والكوكب أن الكوكب اسم للكبير من النجوم والنجم على علم الثريا في صغيرها وكبيرها.

الفرق بين الزلزلة والرجفة أن الرجفة الزلزلة العظيمة الشديدة ولهذا سميت زلزلة الساعة رجفة.

الفرق بين الرجوع والإياب أن الإياب هو الرجوع إلى منتهى القصد والرجوع يكون لذلك أو لغيره.

الفرق بين المحق والإذهاب أن المحق يكون للأشياء الكثيرة ولا يكون في الشيء الواحد بخلاف الإذهاب ومن قوله تعالى: يمحّ الله الرّبا يمحّ ثواب عامله لقوله تعالى: ويربي الصدقات أي ثوابها.

الفرق بين العكوف والإقامة أن العكوف هو الإقبال على الشيء والإحساس فيه ومنه الاعتكاف والإقامة لا تقتضي ذلك.

الفرق بين الدنو والقرب أن الدنو لا يكون في مسافة بين شيئين والقرب

عام في ذلك وفي غيره فيقال قلوبنا أن تتقارب ولا يقال تتداني ويقال قرب بقلبه وإن كان بعيداً.

الفرق بين الوسط والبين أن الوسط يضاف إلى الشيء الواحد وبين يضاف إلى شيئين فصاعداً تقول قعدت وسط الدار لا قعدت بين الدار وبين القوم والوسط يقتضي اعتدال الأطراف ولهذا قيل الوسط العدل في قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً الآية.

الفرق بين الذوق والطعم أن الذوق ملابسة يحس بها الطعم وإدراك الطعم يتبين من ذلك الوجه يقال ذقته فلم أجده طعماً.

الفرق بين الركون والسكون أن الركون السكون إلى الشيء بالجملة والاتصاف والسكون خلاف الحركة وإنما يستعمل في غيره مجازاً.

الفرق بين التابع والتالي أن التالي فيما قال بعضهم هو الثاني وإن لم يتدبر بتدبير الأول والتابع إنما هو المتدبر بتدبير الأول.

الفرق بين قوله ما لك لا تفعل كذا وبين قوله لم لا تفعل كذا إن لم لا تفعل كذا أهم لأنه قد يكون بحال إلى غيره وما لك لا تفعل بحال يرجع إليه.

الفرق بين النار والسعير والحريق والجحيم أن السعير هو النار الملتهبة والحريق النار الملهبة المحرقة والجحيم ناراً على نار وجمر على جمر.

الفرق بين النور والضياء أن الضياء ما يتخيل آخر النور.

الفرق بين النطفة والمنى أن النطفة تفيد أنه ماء قليل والمنى يفيد أنه مستقذر.

الفرق بين الصبّ والسكب أن السكب هو الصبّ المتتابع والصبّ يكون دفعة واحدة.

الفرق بين التبديل والإبدال أن التبديل على ما قال بعضهم تغيير الشيء عن حاله والإبدال جعل شيء مكان شيء.

الفرق بين الخوان والمائدة أن الخوان لا يسمى مائدة إلا إذا كان الطعام عليها وإن لم يكن عليها طعام فهو خوان.

هذا آخر ما علّقناه من هذا الكتاب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وفي غيره الفرق بين البشارة والتهنئة أن البشارة الإعلام بما يسرّ والتهنئة الدعاء بالخير للمرء بعد ما علم به ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه ذهب إليه البشير فبشّره فلما دخل المسجد جاء الناس فهنّؤوه. الفرق بين الحياء والإغضاء أن الحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته أو ما يكون تركه خيراً من فعله والإغضاء التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته.

مكتبة

t.me/soramnqraa

جزاء العلماء والأدباء

البشر سائر نحو الديمقراطية اليوم بعد اليوم في جميع ما فيه قوام الحياة المادية والمعنوية، والعلم اليوم من جملة ما يخرج من قيود الارستقراطية والتيوقراطية والالغارشية إلى ساحة الديمقراطية الفسيحة لأنه أحق كل الأوضاع بان لا يكون عبداً أو مستعبداً لأحد.

كانت العرب على عهد حكوماتهم الراقية تحسن إلى العلماء والأدباء إحساناً لا يحتاج معه العالم والأديب إلى بذل ماء الوجه ليعيش، فالوظائف كانت للعلماء وكم من قاضي أو عامل أو وزير خلف وهو في وظيفته مصنفات كثيرة ساعدته على البحث فيها وتوفير المواد النافعة لها. ومنهم من لم يحبوا أن يشغلوا أوقاتهم في النظر في شؤون الناس وأحبوا الانقطاع إلى العلم بته ومع هذا لم تفتأ الأمة تتعهدهم بما يصلح من شأنهم ليتوفروا على الانصراف إلى ما اخذوا النفس به وما تقرأوه في تضاعيف الكتب من أفضال بعض الملوك والأمراء والأغنياء على الشعراء ليس الباعث إليه حب المديح فقط بل تشجيع الأدب والأدباء، ولذلك نرى كثيرين وقفوا في أبواب الكبراء ولكن لم نسمع بالعطايا الباهظة تقدم إلا للمجيدين في شعرهم المبرزين بأدبهم على الأغلب أما المتوسطون من العلماء والأدباء فكانوا يرزقون على نسبة عقولهم رجاء أن يكون من صفوفهم نوابغ يخلفون السابقين المبرزين.

اختلفت طرق إكرام العلماء فكان العظيم في دولة بني العباس يعطي العظيم من العلماء مبلغاً قد يستغني به أو يمنحه ضيعة أو يقوم بجميع نفقته طول العمر ويغنيه عن السؤال من أحد أو يرزقه من عدة طرق كما وقع للزجاج، وقد طلب منه المعتضد شرح كتاب جامع المنطق فعمل البتاني فاستحسنه المعتضد وأمر له بثلاثمائة دينار. قال ابن النديم وتقدم إليه بتفسيره كله ولم يخرج لما عمله الزجاج نسخة إلى أحد إلا إلى خزنة المعتضد، وصار للزجاج بهذا السبب منزلة عظيمة وجعل له رزق في الندماء ورزق في الفقهاء ورزق في العلماء ثلاثمائة دينار. قلنا ومن العلماء من كانوا يرزقون عدة أرزاق لعلمهم ولإرادة الملوك ترفيهم وغناهم أي أن يأخذ رزقاً أو راتباً في المهندسين ورزقاً مع الفقهاء وآخر مع الأطباء وأخر مع الندماء.

ولما أنشأت المدرستان النظامية ثم المستنصرية (المقتبس م 1 ص 268 و 571) في بغداد وكثرت المدارس في مصر والشام على عهد الدولتين الأيوبية والجرسية أخذ الواقفون يجعلون على تدريس تلك المدارس طبقة مختارة في الجملة من العلماء.

ومن العلماء من كانوا يقيمون على المدارس ومنهم القيمون على خزائن الكتب ومنهم على المستشفيات والزوايا والمساجد والأوقاف والضياع السلطانية ومنهم القائمون على الأرصاد والمراصد والسفراء إلى الملوك المجاورة وكل هؤلاء كان يوسَّع عليهم في مشاهرتهم وإداراتهم.

أما الإفرنج في القرون الوسطى فكان المفضل على علمائهم باباواتهم وكرادلتهم وبطارقتهم وأسقافهم وقسوسهم ثم بعض المنورين من ملوكهم وأعيانهم فلما جاء الدور الحديث وأنشئت في الغرب المجامع

العلمية والجمعيات المتنوعة والكليات والمدارس العليا أصبح العلماء يأملون العز من اللحاق ببعض هذه الأوضاع وكثير من جمعياتهم جعلت لها مبلغاً سنوياً خصته بمكافأة المجيد في فنه والواضع فيه كتاباً أو المخترع فيه اختراعاً وبعد أن كان أهل الخير في القرون الماضية يحبسون الأموال ويقفون الضياع والعقار على إقامة البيع والكنائس أصبحوا الآن يجعلونها على الجمعيات والنقابات والجامعات وقد كان لأغنياء أميركا الشمالية في ذلك القدرح المعلى فأنشئوا بثرواتهم الطائلة يفضلون على المعاهد الخيرية لتتعهد هي الأفراد المستحقين من العلماء والباحثين المخترعين.

ومعظم العلماء والأدباء اليوم في الغرب يتكلمون في جلب معاشهم على قوتين ديمقراطيتين التأليف والتمثيل، ساعد عليهما قوتان مهمتان انتشار الطباعة وكثرة المسارح، وهاتان القوتان قائمتان ولا شك بإقبال الجمهور المتعلم. فمن وفق إلى أن يصادف كتابه ومقالته أو قصيدته أو قصته إقبالاً من الناس يشتهر ومتى اشتهر فهناك المجد الأثيل والمال الجزيل، وأنت ترى أن المجتمع العربي كان محروماً من قوتين: الطباعة والتمثيل، ولذلك كان المتعلمون فيه أقل مما هم في المجتمع الغربي لعهدنا وكانت قوة الظهر عند العلماء الأمراء والأغنياء والنابعة منهم كان على ثقة من أنه يحيا بتأليفه في حياته ومماته حياة مادية ومعنوية.

قال ميمون بن هارون: قلت للجاحظ ألك بالبصرة ضيعة فتبسم وقال: (إنما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار. أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات). فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف

دينار فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد وكان أبو عبيد القاسم بن سلام إذا ألف كتاباً حمّله إلى عبد الله بن طاهر فيعطيه مالاً خطيراً فلما صنف غريب الحديث إهداءً إليه فقال: إن عقلاً بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب لتحقيق ألا يحوج إلى طلب الم، عاش وأجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم. وروى انه قال عملت كتاب غريب المصنف في ثلاثين سنة وجئت به إلى عبد الله بن طاهر فأمر لي بألف دينار. وسير أبو دلف القاسم بن عيسى إلى عبد الله ابن طاهر يستهدي منه أبا عبيد مدة شهرين فأنفذه فلما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها وقال: أنا في جنبه رجل لا يحوجني إلى غيره، فلما عاد أمر له ابن طاهر بثلاثين ألف دينار فاشترى بها سلاحاً وجعله للثغر.

قال أبو العباس احمد بن يحيى قدم طاهر بن عبد الله بن طاهر من خراسان وهو حدث في حياة أبيه يريد الحج فنزل في دار اسحق بن إبراهيم فوجه اسحق إلى العلماء فأحضرهم ليراهم طاهر ويقرأ عليهم، فحضر أصحاب الحديث والفقه واحضر ابن الإعرابي وأبو نصر صاحب الأصمعي ووجه إلى أبي عبيد القاسم بن سلام في الحضور فأبى أن يحضر وقال: العلم يقصد فغضب اسحق من قوله ورسالته، وكان عبد الله بن طاهر يجري له في الشهر ألفي درهم فقطع عنه الرزق وكتب إلى عبد الله بالخبر فكتب إليه عبد الله قد صدق أبو عبيد في قوله وقد أضعفت له الرزق من اجل فعله فأعطه فائته وادر عليه بعد ذلك ما يستحقه.

ولقد نزل أبو الجيش الموفق مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد بن أبي عامر أمير الأندلس بعد الفتنة الجزائرية التي شرقي الأندلس وهي دانية ومنورقة فغلب عليها وحماها، وقصد سردانية وكان من الكرماء

على العلماء كما قال ياقوت يبذل لهم الرغائب خصوصاً على القراء حتى صارت دانية معدن القراء بالغرب. وهو الذي بذل لأبي غالب تمام بن غالب ألف دينار ليزيد اسمه في ديوانه كتابه فلم يفعل. قال ياقوت (معجم الأدباء) ولتمام تلقى كتاب العين في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وله فيه قصة تدل على فضله، وذلك أن الأمير أبا الجيش مجاهد بن عبد الله العامري وهو أحد المتغلبين على تلك النواحي وجه إلى أبي غالب هذا أيام غلبته على مرسية وأبو غالب ساكن بها ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد فرد الدنانير ولم يفعل وقال: والله لو بذل لي مال الدنيا ما فعلت ولا استجزت الكذب فاني لم اجمعه له خاصة لكن لكل طالب عامة. قال الحميدي فأعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها. قال المقرئ إن مجاهد ملك دالية بذل لأبي الغالب اللغوي هذا ألف دينار ومركوباً وكساء على أن يجعل الكتاب باسمه فلم يقبل ذلك أبو الغالب وقال: كتاب ألفته ليتفع به الناس واخلد فيه همتي اجعل في صدره اسم غيري واصرف الفخر له لا افعل ذلك فلما بلغ هذا مجاهداً استحسنت أنفته وهمته وأضعف له العطاء وقال هو في حل من أن يذكرني فيه لا نصده عن عرضه.

وهكذا كنت ترى كثيراً من العلماء يابون على ضيق ذات بدهم أن يأخذوا شيئاً على تأليفهم كما فعل أبو الريحان البيروني الفيلسوف، فانه لما صنف القانون المسعودي أجازه السلطان بحمل فيل من نقده الفضي فردّه إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة في الاستغناء به. أما الشيخ الرئيس ابن سينا الفيلسوف فما كان يستنكف على جلالة قدره

العلمي من أن يقدم احد كتبه لأحد أمراء عصره بل انه كان من جملة ندماء
علاء الدولة صاحب همدان.

ومن العلماء من كانت تبلغ بهم العفة درجة الغلو فقد حكا بعضهم عن
أبي العباس ابن الرومية النباتي الأندلسي انه كان جالساً في دكانه باشيلية
يبيع الحشائش وينسخ، فاجتاز الأمير أبو عبد الله بن هود سلطان الأندلس
فسلم عليه فرد عليه السلام، واشتغل بنسخه ولم يرفع إليه رأسه فبقى واقفاً
منتظراً أن يرفع إليه رأسه ساعة طويلة فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى.
قاله المقرئ في نفح الطيب.

ومثل ذلك ما وقع الفيلسوف الرياضي أبو علي ابن الهيثم فانه وّر في
البصرة لأول أمره، ثم أحب التجرد عن الشواغل التي تمنعه من النظر في
العلم. قال ابن أبي أصيبعة فاطهر خبالاً في عقله وتغيراً في تصوره وبقي
كذلك مدة حتى مكن من تبطيل الخدمة وصرف من النظر الذي كان في
يده، ثم انه سافر إلى ديار مصر وأقام بالقاهرة في الجامع الأزهر بها. وكان
يكتب في كل سنة إقليدس والمجسطي ويبيعهما ويقتات من ذلك الثمن
ولم تزل هذه حاله حتى توفي. وذكر يوسف الفاسي الإسرائيلي الحكيم
بحلب قال: سمعت أن ابن الهيثم يقول كان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب
في ضمن اشتغاله، وهي إقليدس والمتوسطات والمجسطي ويستكملها
في مدة السنة فذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً
مصرياً، وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج فيه إلى مواكسة ولا معاودة
قول فيجعلها مؤنة لسنته.

ولقد كنت تجد في كل صقع من أصقاع العرب ملوكاً وأقبالاً وأمراء
ووزراء أحيوا دولة العلم والأدب بحسناتهم مثل الوزيرين ابن عباد وابن

العميد في بغداد وبني عباد في الأندلس الذين يقول فيهم ابن حزم أن الأيام لم تزل بهم كأعياد وكان لهم من الحنو على الأدب ما لم يقيم به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم ووزراؤهم صدوراً في بلاعتي النظم والنثر مشاركين في فنون العلم وآثارهم مذكورة وأخبارهم مشهورة.

نعم تساوت في الرشد للعلماء دولة الشرق العباسية البغدادية ودولة الغرب الأموية الأندلسية. أراد الحكم الربضي ذات يوم في قرطبة أن يقدم شخصاً من الفقهاء يختص به للشهادة، فأخذ في ذلك مع يحيى بن يحيى وعبد الملك وغيرهما من أعلام العلماء فقالوا له هو أهل ولكنه شديد الفقر، ومن يكون في هذه الحالة لا تؤمنه على حقوق المسلمين لا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في الموارث والوصايا وأشباه ذلك. ولما شكاً إلى ولده عبد الرحمن قائلاً ألا ترى لهؤلاء الذين نقدمهم وننوه عند الناس بمكانهم حتى إذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شطط بل لا يعيبهم ولا هو مما يزرؤهم صدونا عنه وأغلقوا أبواب الشفاعة؟ وذكر له ما كان منهم قال لو الده: يا مولاي أنت أولى الناس بالإنصاف أن هؤلاء ما قدمتهم أنت ولا نوهت بهم، إنما قدمهم ونوه بهم علمهم أو كنت تأخذ قوماً جهالة فتضعهم مواضعهم قال: فأنصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة قال: صدقت. فلم يجد الخليفة بداً من إعطاء ذاك الفقيه ما يؤهله لتلك المرتبة من الغنى فنبه قدره بأن أعطاه من اصطبله مركوباً وكانت هذه أكرومة لا خفاء بعظمها** يفنى الزمان وما بنته مخلد.

ولو جئنا نعدد المؤلفين الذين أهدوا للعظماء تأليفهم فأجزل هؤلاء لهم العطايا لطال بنا نفس الكلام، فمنهم محمد بن يوسف الوراق ألف

للمستنصر في مسالك افريقية وممالكها ديواناً ضخماً، ومنهم الشريف الإدريسي الذي ألف لروجار صاحب صقلية كتابه في الجغرافية أيضاً، ومنهم ابن السيد البطليوسي ألف باسم عبد السلام الملقب بسحنون. وأهدى أبو علي القالي أماليه للحكم عبد الرحمن بن محمد وولي عهد المسلمين في الأندلس، وأهدى ابن خلدون تاريخه إلى أبي الحسن بن مرين من ملوك الأندلس. وألف أبو منصور الثعالبي كتاب فقه اللغة باسم أبي الفضل الميكالي وأهدى أبو الحسن بن رشيق كتاب العمدة لأبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب.

حكا (عن تاريخ الوزراء) محمد بن ناصح الالهوازي قال حدثني النضر بن شميل المازني قال: كنت ادخل على المأمون في سمرة فدخلت عليه ذات ليلة وعليّ قميص مرقوع فقال: يا نضر ما هذا القشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقة فقلت: يا أمير المؤمنين أنا شيخ ضعيف وحر ومر شديد فأتبرد بهذه الخلقة فقال: ولكنك قشف ثم أجرينا الحديث فأجرى هو ذكر النساء فقال: حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن العباس قال قال رسول الله ﷺ إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان سداد من عوز فأورده بفتح السين قال فقلت: صدق يا أمير المؤمنين هشيم حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد (بالكسر) من عوز قال وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال: يا نضر كيف قلت سداد قلت: نعم لان السداد: هنا لحن قال: أو تلحنني قلت: إنما لحن هشيم وكان لحناً. فتبع أمير المؤمنين لفظه قال: فما الفرق بينهما قلت: السداد بالفتح القصد في الدين والسبيل

والسِّداد بالكسر البلغة وكلما سددت به شيئاً فهو سِدَاد قال: أو تعرف العرب ذلك قلت: نعم هذا العرجي يقول:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِدادٍ ثغرٍ
فقال المأمون قبح الله تعالى من لا أدب له وأطرق ملياً ثم قال: مالك يا نضر قلت: أريضة لي بمرّو أتصابها وأتمزّزها أي اشرب صبابتها قال: أفلا أفيذك ما لا معها قلت: إني إلى ذلك لمحتاج قال: فاخذ القرطاس وأنا لا ادري ما يكتب ثم قال: كيف تقول إذا أمرت من أن يترب الكتاب قلت: أتربه قال: فهو ماذا قلت: فهو مترب قال: فمن الطين قلت: طنه. قال: فما هو قلت: مطين قال: هذه أحسن من الأولى ثم قال: يا غلام أتربه وطنه، ثم صلى بنا العشاء وقال: لخادمه تبلغ معه إلى الفضل بن سهل قال: فلما قرأ الفضل بن سهل الكتاب قال: يا نضر إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب فأخبرته ولم اكذب فقال: لحت أمير المؤمنين قلت: كلا إنما لحن هشيم وكان فتبع أمير المؤمنين لفظه وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار، ثم أمر لي الفضل من خاصته بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف استُفيد مني.

قال أبو بريد الوضاحي: أمر أمير المؤمنين المأمون الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ووكل بها جوارى وخدماً للقيام بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تشوف نفسه إلى شيء حتى أنهم كانوا يؤذّونونه بأوقات الصلوات وصير له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين. فكان الوراقون يكتبون حتى صنف الحدود وأمر المأمون بكتبه في الخزائن فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ يملّي كتاب المعاني، وكان وراقه سلمة وأبو نصر قال: فأردنا

أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعاني فلم تضبط فلما فرغ من إملاءه خزنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا به وقالوا: لا تخرجه إلى أحد إلا لمن أراد أن ننسخه له على أن كل خمس أوراق بدرهم. فشكا الناس إلى الفراء فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك: فقالوا: نحن إنما صحبتنا لنتفع بك وكلما صنعتة فليس بالناس إليه حاجة ما بهم إلى هذا الكتاب فدعنا نعيش به فقال: قاربوهم تنفعوا وتتفعوا فأبوا عليه فقال: سأريكم. وقال للناس: إني أريد أن أملئ كتاب معاني أتمّ شرحاً وابطسط قولاً من الذي أملت فجلس يملي وأملئ في الحمد مائة ورقة فجاء الوراقون إليه فقالوا نحن نبلغ الناس ما يحبون فنفسخ كل عشر أوراق بدرهم.

ومثل ذلك في اقتراح الملوك على العلماء تأليف يؤلفونها ما وقع لابن الصفار الأندلسي لما أراد الحكم المستنصر غزو الروم سنة 352 فتقدم إليه وكان مشهوراً بالعلم والأدب بالكون في صحبتة فاعتذر بضعف في جسمه. فقال المستنصر لأحمد بن نصر قل له: إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق وبالأندلس مثل كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيته من الغزاة فخرج أحمد بن نصر إليه بذلك فقال: افعل ذلك يا أمير المؤمنين إن شاء الله قال فقال المستنصر: إن شاء أن يكون تأليفه في منزله فذلك إليه وإن شاء أن يكون في دار الملك المطلة على النهر فذلك له قال: فسأل أن يكون ذلك في دار الملك وقال: أنا رجل مورد في منزلي وانفرادي في دار الملك لهذه الخدمة اقطع لكل شغل فأجيب إلى ذلك، وكمل الكتاب في مجلد صالح وخرج به أحمد بن نصر إلى الحكم المستنصر فلقبه بالمجلد بطليطلة فسر الحكم به. والله اعلم كم أعطاه مكافأة عن تعبته.

قال ابن المعتز في طبقات الشعراء: أجود ما قاله مروان بن أبي حفصة قصيدته الغراء اللامية التي فضل بها على شعراء زمانه يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني ويقال انه اخذ منه عليها مالا كثيراً لا يقدر قدره. ولم ينل احد من الشعراء الماضيين ما ناله مروان بشعره فمما ناله ضربة واحدة ثلاثمائة ألف درهم من بعض الخلفاء بسبب بيت واحد ويقرب من ذلك ما ناله أبو الطيب المتنبي من مكارم سيف الدولة بن حمدان فانه اغتنى بشعره ولا اغتناء زولا وروستاند وغيرهما من أدباء الفرنجة لعهدنا.

ليس رزق الفتى من حسن حيلته لكن جدوداً بأرزاقٍ وأقسام كالصيد يُحرمه الرامي المجيد وقد يرمي فيرزقه من ليس بالرّامي
حكا ابن جلجل أن أبا بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب صنف لمنصور بن اسحق ابن احمد بن نوح من ولد بهرام جور صاحب كرمان وخراسان كتاباً في إثبات صناعة الكيمياء وقصده به بغداد (وكان بنو سامان يحبون العلم ويكرمون العلماء) فدفع له الكتاب فأعجبه وشكره عليه وحباه بألف دينار. وقال له أردت أن تخرج هذا الذي ذكرته في الكتاب إلى الفعل فقال له الرازي: إن ذلك مما يتمنون له المؤمن ويحتاج إلى آلات وعقاقير صحيحة وإلى إحكام صنعه ذلك كله وكل ذلك كلفة فقال له منصور: كل ما احتجت إليه من الآلات ومما يليق بالصناعة احضره لك كاملاً حتى تخرج ما ضمنت كتابك إلى العمل. فلما حقق عليه ذلك كاع من مباشرة ذلك وعجز عن عمله فقال المنصور: وما اعتقدت أن حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها إلى الحكمة يشغل قلوب الناس بها ويتعبهم فيما لا يعود عليهم من ذلك منفعة. ثم قال له قد كافأناك على قصدك وتعبك بما صار إليك من الألف دينار ولا بد من معاقتك على

تخليد الكذب فحمل السوط على رأسه ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى ينقطع. ثم جهزه وسير به إلى بغداد فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء في عينه.

هذه أمثلة قليلة مما كانت عليه حالة العلماء والأدباء في عصور ارتقاء العرب على أن الحال لم تكن تخلو من بائسين ومفلوكين (راجع الفلاكة والمفلوكين للدلجي) من العالمين والمتأدبين. أما اليوم فان العالم الحقيقي الذي تعزف نفسه عن الدخول في سلك عمال الحكومة كالوظائف العلمية والإدارية والجندية والمالية إما أن يهلك جوعاً أو يتكسب بقلمه ما هو سداد عوز ويرضى بميسور العيش. وفي الغالب إن التأليف لا تعول صاحبها ولو مهما جودها وانفق السنين في تصنيفها ولا يرمج لجهل القوم من المصنفات إلا التافه الحقيقير ك بعض القصص والدواوين الشعرية البذيئة وغير ذلك من المعربات، فهل يأتي على الأمة العربية يوم يا ترى تكون فيها التأليف ديمقراطية صرفة لا تحتاج إلا إلى إقبال القراء عليها حتى تغني أبا عذرها وتربأ بنفسه عن الإسفاف للدنيا طمعاً في المال والنوال، فإننا في عصر لا يصح أن يعيش العلماء والأدباء مقترراً عليهم فإنهم كلما رزقوا حظاً من الرفاهية المعتدلة تجود تأليفهم وتصوراتهم ويزيد النفع ببنات أفكارهم.

سماع الألحان

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج في درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الأمم. ولقد كان له شأن وأي شأن عند الأمم الراقية في القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التي وجدت في النواويس المصرية والنقوش البارزة في قصور نمرود وخراساباد حيث الموسيقيين والمغنين وأدوات الطرب كالشبابة والبوق والصنج والعدو وغيرها، ومزامير داود مشهور مذكورة.

أجمعت الأمم من جميع الطبقات (الموسيقي الشرقي) على حب الألحان حسب عاداتهم واصطلاح بلادهم، ولكل أمة ألحان ونغمات يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم إلا تعود سماعها أو بمعرفة مواقع الطرب في أي لحن كان، ومن الدليل البين أن لها تأثيراً في النفوس كون الناس يستعملونها تارة عند الفرح واللذة والأعراس والولائم، وأخرى عند الحزن والغم والمصائب والمآتم، وطوراً في بيوت العبادات والأعياد وآونة في الأسواق والمنازل وفي الأسفار والحضر وعند الراحة والتعب، وفي مجالس الملوك ومنازل السوق، ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهلاء والصناع والتجار وجميع طبقات الناس.

قال ابن ساعدة: ومنفعة الموسيقى بسط الأرواح وتعديلها وتقويمها

وقبضها أيضاً، لأنه يحركها أما عن مبدئها فيحدث السرور واللذة يظهر الكرم والشجاعة ونحوها، وأما إلى مبدأها فيحدث الفكر في العواقب والاهتمام ونحوها، ولذلك يستعمل في الأفراح والحروب وعلاج المرضى تارة، ويستعمل في المآتم وبيوت العبادات أخرى.

قال أفلاطون: من حزنَ فليستمع الأصوات الطبية، فإن النفس إذا حزنت خمد منها نورها فإذا سمعت ما يطربها اشتعل منها ما خمد. وقال إن هذا العلم لم تضعه الحكماء للتسلية واللهو، بل للمنافع الذاتية ولذة الروح الروحانية وبسط النفس وترويق الدم. أما من ليس له دراية في ذلك فيعتقد أنه ما وشع إلا للهو والترغيب في لذة شهوات الدنيا وغرور بآمانيتها.

قال الغزالي في الأحياء: لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى أنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً، فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس، ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في الأوتار حتى قيل من لا يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج. وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيرها مشاهد في الصبي في مهده فإنه يسكته الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه. والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً تستخف معه الأحمال الثقيلة لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولعه، فترى الجمال إذا طالت عليها البوادي واعتراها الأعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادي الحداء تمد أعناقها وتصغي إلى الحادي ناصية آذانها في سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها

ومحاملها وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها.

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقمي رضي الله عنه قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خبائه فرأيت في الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ورأيت جمالاً قد ماتت بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه، فقال الغلام: أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاي فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا فعساه يحل القيد عني قال: فلما احضروا الطعام امتنعت وقلت: لا أكل ما لم أشفع في هذا العبد فقال: إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي فقلت: ماذا فعل فقال: إن له صوتاً طيباً وأني كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالاً ثقالاً وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك قال: فأحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك فما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي فما أظن أنني سمعت قط صوتاً أطيّب منه.

قال الغزالي بعد إيراد ما تقدم: فإذا تأثير السماع في القلب محسوس، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلط الطبع، وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته. ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم،

بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النعمات فحكمه حكم ما في القلب.

قال حجة الإسلام: إن الغناء اجتمعت فيه معان أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب، فالوصف الأهم أنه صوت طيب ثم الطيب ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات. أما سماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به، وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك وفي مدركات الحاسة ما يستلذ فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة، وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة. وللشم الروائح الطيبة وهي مقابلة الإنتان المستكرهة، وللذوق الطعوم اللذيذة كالذسومة والحلاوة والحموضة وفي مقابلة المرارة المستبشعة، وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهي في مقابلة الخشونة والضراسة، وللعقل لذة العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها، فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها.

ونقل الغزالي أيضاً عن أبي طالب المكي إباحة السماع عن جماعة فقال: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح من صحابيٍّ وتابعيٍّ بإحسان وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون

السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا مروان القاصي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية قال: وكان لعطاء جاريثان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون؟ فقال: وكيف أنكر السماع وقد أجازوه وسمعه من هو خير مني، فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وأنا أنكر اللهو واللعب في السماع. مكتبة سر من قرأ

هذا ما قاله الغزالي ونقله في السماع، وفوائده والمحرّم منه في الإسلام ما كان مانعاً عن العمل والعبادة محرّكاً للشهوات البهيمية. كما أن آلات الطرب يكون حكمها حكم السماع والتلحين وفي هذه المسألة مرادات واختلافات بين العلماء في القديم والحديث ولكن العقلاء منهم اختاروا التوسط، والتوسط محمود في كل حال فإنهم لم يقبلوا أن يخرجوا بالناس عن الطبع والطبيعة لأنهم إذا منعوا ما هو ضروري من ضرورات الحياة لا يعود الناس يبالون ويسيرون بلا وازع، وعلى كل فإن الاعتدال هو غاية الغايات حتى في العبادة.

نحن في عصر أصبح فيه الغناء من الفنون ذات القواعد والروابط والأصول، ولذلك ترى المنشدين والمغنين والموسيقيين يختارون من الألحان ما يناسب الظرف الذي هم فيه وتراعى به حالة المستمعين، وقد ادعى بعضهم أن من النغمات ما يطيب في النوم ولا يطيب في آخر. وبعض الألحان قد يكون لها من التأثير ما لا يكون لغيرها، ولا شك أن للحالة النفسية التي يكون عليها المغني والمغنى له دخلاً في الطرب فقد وقع لنا

أن طربنا مرات بشباب الراعي في الجبال أكثر من سماع الناي والقيثارة وإن راقنا الغناء الطبيعي أكثر من المصنع الموقع على الألحان، وكثيراً ما يسمع المرء أمهر الموسيقاريين بين المنشدين فلا يرتاح كما يرتاح لسماع بدوي في البادية يحدو ويتغنى كأن النفس تميل إلى الطبيعي من الأشياء الخالي من الطلاء الصناعي.

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب والسناد والهزج، فأما النصب فغناء الركبان والقيينات، وأما السناد فالثقل والترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج فالخفيف كله وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم، وإنما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فأشياء وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع أسواق العرب. وكانت العرب تسمى القينة الكرنية والعود الكران والزهر أيضاً هو العود وهو البريط وكان أول من غنى في الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو علم ابن سريج والدلال ونؤمة الضحى. وقالوا غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً، وكانوا يقولون الغناء على ثلاثة أضرب فضرب منه مطرب محرك ويستخف وضرب ثان له شجى ورقة وضرب ثالث حكمة وإتقان صنعه.

الغناء مؤثر في البهائم فكيف لا يؤثر في الإنسان؟ هو يؤثر في الطيور والهوام ولطالما شوهده العصفور والشحرور يرفرفان أمام مغن مطرب وآلة موسيقية شجية وقد أخذهما الطرب فاقتربا يستمعان للأغاني ورنات المثلث والمثاني كما يقترب الطروب من الأناسي، وشوهد أن الأفاعي خرجت من أوكارها تستمع لنغمة شاد أو ضربة موسيقار بل شوهد أن من

الغناء ما تهتز له جوانب القصور وترتج رفوفها وحيطانها، ولعل ما قيل من أن صوت فلان يطرب الجماد له من الواقع ما يؤيده.

الألحان تصفي الأرواح وتبعث النشاط في النفوس فيها ما قد يجسر الجبان في ساحة الوغى ويكرم الشحيح ويرق الكثيف ويلين القاسي ويقوى الضعيف ويعدل الظالم ويعطف اللثيم. وخير الأغاني والأناشيد ما كانت ملحنة بالحن تناسبها مع الألفاظ جيدة المعاني، وما قيل من أنه ليس على المطرب أن يعرب ليس صحيحاً من أكثر وجوهه فإن لجودة اللفظ والمعنى تأثيراً لا ينكره إلا مريض الذوق بعيد عن مناحي الآداب سقيم الفهم.

كان الناس في القديم لا يعرفون غير العود والقانون والمزامير والشبابات والصلاصل والطارات والكوبة من آلات الطرب، واليوم أتى الإفرنج بالأرغن والبيانو وغيرهما من أدوات الطرب، ولكن جل الاعتماد اليوم على البيانو لا يكاد يخلو منه بيت ذي نغمة في الغرب يضرب به أولاده وزوجه وضيوفه ويوقعون عليه أنواع الأغاني والأناشيد وتعلمه فيما نحسب لسهل من تعلم العود المألوف في هذا الشرق الأقرب.

والتغيير هو الغناء بالطقطقة بالقضيب وإنما سمي تغييراً لأن محدثيه يسمون المغيرة والكوبة طبل طويل ضيق الوسط ذو رأسين وهو المعروف بالدربة في بلاد الشام.

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذكر عنده البربط فقال ليت شعري ما هو؟ فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنا أخبرك ما هو، هو محدودب الظهر أرسح البطن له أربعة أوتار إذا حركت لم يسمعها أحد إلا حرك أعطافه وهز رأسه.

وقد ورد في الكتاب والسنة وسيرة أعظم سلف الأمة إشارة إلى الغناء وإلى تجوزهم في سماعه، وهم ولا شك أحسن قدوة في هذا الباب. قال القرطبي من مخطوطات المكتبة الظاهرية ومن الاستدلال بالكتاب من ذلك أي على الغناء قوله تعالى ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة هو الغناء وقوله تعالى واستفزز من استطعت منهم بصوتك قال مجاهد أنه الغناء والمزامير وأنتم سامدون قال ابن عباس: هو الغناء. ومن السنة ما أخرجه الترمذي أن النبي ﷺ رجع من بعض مغازيه فجاءته جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى فقال لها: إن كنت نذرت فاضربي، فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل عليّ وهي تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها فقال النبي ﷺ: إن الشيطان ليخاف منك يا عمر. وفي حديث عائشة أن امرأة زفت إلى رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ يا عائشة أما كان معهم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو. واللهو هو الغناء.

وحكي أن رسول الله ﷺ قدم من سفر فصعدت النساء على السطوح يضربن بالدفوف ويقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ نِيَّاتِ الْوَدَاعِ
وَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لَهُ دَاغُ

روى ابن عبد ربه في العقد الفريد قال بعض أهل التفسير في قول الله يزيد في الخلق ما يشاء هو الصوت الحسن. وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري لما أعجبه صوته: لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود.

كان أبو يوسف القاضي ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل

مكان السرور به بكاءٍ كأنه يتذكر به نعيم الآخرة. وقال أحمد بن أبي دؤاد إن كنت لأسمع الغناء من مخارق عند المعتصم فيقع علي البكاء حتى أن البهائم لتحن إلى الصوت الحسن وتعرف فضله.

وكان صاحب الفلاحات يقول بأن النحل أطرب الحيوان كله إلى الغناء وإن أفرأخها لتستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن. قال في العقد وأردف النبي ﷺ الشريد فاستشهد من شعر أمية فأنشده مائة قافية وهو يقول: هيه استحسناناً لها فلماً أعياهم القدح في الشعر والقول فيه قالوا الشعر حسن ولا نرى إن يؤخذ بلحن حسن، وأجازوا ذلك في القرآن وفي الآذان فإن كانت الألحان مكروهة فالقرآن والآذان أحق بالتنزيه عنها، وإن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن وإخراجه عن حد الخبر. وما الفرق بين أن ينشد الرجل أتعرف رسماً كاطراد المذنب مرسلأ أو ليرفع بها صوته مرتجلاً وإنما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور.

واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة: أهديتم الفتاة إلى بعلها قالت نعم. قال فبعثتم معها من يغني قالت: لا قال: أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ألا بعثتم معها من يقول:

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيُّونَا نُحْيِيكُمْ
وَلَوْلَا الْحَبَّةُ السَّمْرَاءُ لَمْ نَحْلُلْ بِوَادِيكُمْ

واحتجوا بحديث عبد الله بن أويس بن عم مالك وكان من أفضل رجال الزهري قال مر النبي ﷺ بجارية بظل قارع وهي تغني:

هَلْ عَلَيَّ وَيْحُكُمْ إِنْ لَهَوْتُ مِنْ حَرْجٍ

فقال النبي ﷺ لا حرج إن شاء الله.

حدث عباس بن المفضل قاضي المدينة قال حدثني الزبير بن بكار قاضي مكة عن مصعب بن عبد الله قال: دخل الشعبي على بشر بن مروان وهو والي العراق لأخيه عبد الملك بن مروان وعنده جارية في حجرها عود فلما دخل الشعبي أمرها فوضعت العود فقال له الشعبي: لا للأمر أن يستحي من عبده قال: صدقت ثم قال للجارية هات ما عندك فأخذت العود وغنت:

وَمِمَّا شَجَانِي أَنَّهَا يَوْمَ وَدَّعَتْ تَوَلَّتْ وَمَاءُ الْعَيْنِ فِي الْجَفْنِ حَائِزُ
فَلَمَّا أَعَادَتْ مِنْ بَعِيدٍ بِنَظَرَةٍ إِلَيَّ الْإِفَاتَا أَسْلَمَتْهُ الْمَحَاجِرُ
فقال الشعبي: الصغير أكيسهما يريد الزبير ثم قال: يا هذه أرخي من يَمِّك وشدي من زيرك فقال له بشر: وما عملك قال: أظن العمل فيهما قال: صدقت ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه.

أرق معاوية ذات ليلة فقال لخادمه خديج: اذهب فانظر من عند عبد الله (بن جعفر وكان ضيفه أنزله في دار عياله بالشام) وأخبره بخروجه إليه، فذهب فأخبره فأقام كل من كان عنده. ثم جاء معاوية فلم ير في المجلس غير عبد الله فقال: مجلس من هذا قال: مجلس فلان قال معاوية: مره يرجع إلى مجلسه ثم قال من هذا قال: مجلس فلان قال مره يرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل، فقال من هذا قال مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين. قال له معاوية فإن أذني عليلة فمره فليرجع إلى موضعه، وكان موضع بديح المغنى فأمره ابن جعفر إلى موضعه فقال له معاوية داو أذني من علتها فتناول العود ثم غنى:

أَمِنْ أَوْفَى دِمْنَةٍ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدُّرَاجِ فَالْمُتَشَلِّمِ

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه فقال معاوية: لم حركت رأسك يا ابن جعفر قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لاقيت عندها لأبليت ولئن سئلت عندها لأعطيت، وكان معاوية قد خصب فقال ابن جعفر لبديح هات غير هذا وكانت عند معاوية جارية أعز جواريه عنده كانت متولية خضابه فغناه بديح:

أليس عندك شُكْرٌ لِّلَّتِي جَعَلْتُ ما ابْيَضَ من قَادِمَاتِ الرِّيشِ كَالْحُمَمِ
جَدَّتْ مِنْكَ مَا قَدْ كَانَ أَخْلَقَهُ رَيْبُ الزَّمَانِ وَصَرْفُ الدَّهْرِ وَالْقَدَمِ
فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله، فقال ابن جعفر يا أمير المؤمنين سألتني عن تحريك رأسي فأخبرتكَ وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال معاوية كل كريم طروب. ثم قام وقال: لا يبرح أحد منكم حتى يأتيه أذني فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاص ثيابه وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب.

روى المبرد في الكامل قال: حدثت أن معاوية استمع على يزيد ليلة فسمع من عنده غناءً أعجبه فلما قال ليزيد: من كان ملهيك البارحة فقال له يزيد: ذاك سائب خاثر قال: إذاً فاختر له من العطاء. وحدثت أن معاوية قال لعمره: أمض بنا إلى هذا الذي قد تشاغل باللهو وسعى في هدم مروءته حتى ننعي عليه، أي نعيب عليه فعله، يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فدخلا إليه وعنده سائب خاثر وهو يلقي على جوار لعبد الله فأمر عبد الله بتنحية الجواري لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فأجلسه إلى جانبه ثم قال لعبد الله: أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسي فألقيت وأخرج الجواري فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم:

دِيَارَ الَّتِي كَادَتْ وَتَحْنُ عَلَى مِنًى تَحُلُّ بِنَا لَوْلَا نَجَاءُ الرِّكَائِبِ
وَمِثْلِكَ قَدْ أَصَبَيْتُ لَيْسَتْ بِكِنَّةٍ وَلَا جَارَةٍ وَلَا حَلِيلَةٍ صَاحِبِ
ورده الجوّاري عليه فحرك معاوية يديه وتحرك في مجلسه، ثم مد
رجليه يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو: اتد يا أمير المؤمنين فإن
الذي جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقل حركة فقال معاوية: اسكت لا أبا
لك فإن كل كريم طروب.

وذكر ابن عميرة الضبي في ترجمة محمد ابن إسحاق بن سليم قاضي
الجماعة بقرطبة أنه كان من العدول المرضيين والفقهاء المشهورين، وله
عند أهل بلاده حالة مذكورة منزلة في العلم والفضل معروفة، وكان مع
هيئته ورياسته حسن العشرة والأنس كريم النفس مات سنة 367. حدث
القاضي أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث عرف بابن الصفار أن رجلاً
من أهل المشرق يعرف بالشيبياني دخل الأندلس فكان بقرطبة على شاطئ
الوادي بالعيون، فخرج قاضي الجماعة ابن سليم يوماً لحاجة فأصابه مطر
اضطره إلى أن يدخل بدابته في دهليز الشيبياني، فوافقه فيه فرحب بالقاضي
وسأله النزول فنزل وأدخله منزله وتفاوضا في الحديث فقال له: أصلح
الله القاضي عندي جارية مغنية لم يسمع بأطيب من صوتها، فإن أذنت
أسمعتك عشرًا من كتاب الله عز وجل وأبياتاً فقال له: افعل فأمر الجارية
فقرأت ثم أنشدت، فاستحسن ذلك القاضي وعجب منه، وكان على كفه
دنانير فأخرجها وجعلها تحت الفرش الذي جلس عليه، ولم يعلم بذلك
صاحب المنزل فلما ارتفع المطر ركب القاضي وودعه الشيبياني فدعا
القاضي له ولجاريته، ولا بأس هنا أن نختم هذا الفصل بأبيات في صنعه
الغناء نقلها الشريف المرتضى في أماليه قال: أخبرنا المرزباني قال: حدثنا

على بن هارون قال: حدثني أبي قال: من بارع شعر بشار قوله بصف جارية
مغنية قال علي: وما في الدنيا شيء لقديم ولا محدث من منشور ولا منظوم
في صفة العناء واستحسانه مثل هذه الأبيات:

وَرائِحَةُ اللَّعِينِ مِنْهَا مَخِيلَةٌ	إِذَا بَرَقَتْ لَمْ تَسْقِ بَطْنَ صَعِيدِ
مَنْ الْمُسْتَهْلَاتِ الْهُمُومَ عَلَى الْفَتَى	خَفَا بَرَقُهَا مِنْ عُصْفُرٍ وَعُقُودِ
حَسَدْتُ عَلَيْهَا كُلَّ شَيْءٍ يَمْسُهَا	وَمَا كُنْتُ لَوْلَا حُبُّهَا بِحُسُودِ
وَأَصْفَرَ مِثْلَ الزَّعْفَرَانِ شَرِبَتْهُ	عَلَى صَوْتِ صَفَرَاءِ التَّرَائِبِ رُودِ
كَأَنَّ أَمِيرًا جَالِسًا فِي حَجَابِهَا	تَوَمَّلُ رُؤْيَاهُ عُيُونُ وَفُودِ
مَنْ الْبَيْضَ لَمْ تَسْرَحْ عَلَى أَهْلِ غَنَّةٍ	سَوَامًا وَلَمْ تَرْفَعْ حَدَاجَ قَعُودِ
تُمِيتُ بِهَا أَلْبَابَنَا وَقُلُوضَ بَنَاءٍ	مِرَارًا وَتُحْيِيهِنَّ بَعْدَ هُمُودِ
إِذَا نَطَقْتَ صَحْنَا وَصَاحَ لَنَا الصَّدَى	صِيَاحَ جُنُودٍ وَجَّهَتْ لِجُنُودِ
ظَلَلْنَا بِذَاكَ الدَّيْدَنَ الْيَوْمَ كُلَّهُ	كَأَنَّا مِنَ الْفِرْدَوْسِ تَحْتَ خُلُودِ
وَلَا بَأْسَ إِلَّا أَنَّا عِنْدَ أَهْلِهَا	شُهُودٌ وَمَا أَلْبَابُنَا بِشُهُودِ

آداب العرب

من التناول على مقام الشعر العربي أن أحاول الإحاطة به في محاضرات ثلاث.

ولكنكم قد رأيتم جميعاً هذه الكتب الصغيرة الموجزة التي يستدل بها المسافرون في سياحاتهم، يفتح السائح دليله فيجد المؤلف قد تكفل بأن يريه باريس وعجائبها وما حوت من كنوز في خمسة أيام. ومصر ونيلها وأهرامها وقبورها ومعابدها ومسلاتها وما أبقت الأدهار فيها في اسبوع من الزمان. فيجري وراء دليله الصامت الناطق ويعمل برأيه فيعييه الجري ويتولاه التعب ويقطر العرق من جبينه، ولا يكون لديه مجال للتأمل والتفكير فيما يتجلى أمامه من العبر وما يقع عليه بصره من عظات القرون، ولكنه مع ذلك يرى من المشاهد ما يترك في ذهنه أثراً قديماً وما يكفي لتكوين فكر عام لديه وتتولد عنده من الأثر ويطيل الوقوف أمامها يسائلها عما مر بها في العصور الخوالي فكأنما سفرته الأولى تمهيد لسفرته الثانية.....

فغايتي الآن أن أطير معكم فوق ربوع الشعر العربي. نظير طيراناً مكتفين بالتحليق في سمائه دون أن تطأ أرجلنا أرضه، فنمتع النظر معاً بمرآها البهيج ونستنشق هواءها العليل البليل حاملاً أريج بلاد العرب وشذاها العطري. فهل لكم بعد هذا التطواف أن تجوسوا تلك الربوع الفائتات التي تمر أمام عيوننا مسرعة تجري كالريح فلم تروا منها سوى شواهدقها، وأن تشعروا

بالحنو عليها والرغبة في التجول فيها لتستريحوا في وديانها وتشربوا من عيونها وغدرانها وتقطفوا من يانع ثمارها وتترنحوا بشذا أزهارها العطرة وقد أسكرتكم محاسنها.

وأول سؤال يخطر على البال هو: ما هو الشعر العربي؟ قال بعضهم في تعريفه: إنه صورة ظاهرة وفي هذا التعريف من حلاوة التعبير وفي سمو المعاني ما فيه، لأن الشعر يكون إذ ذاك مظهراً لصور حساسة وعواطف حقيقية لا تصنع فيها ومجموع حقائق لا أكاذيب.

وعرفه غيرهم بصوت أحلى من ذلك وأليق بالشعر فقال:

إن الشعر أنقى كلام وأعلى نظام وأبعد مرقى في درجة البلاغة وأحسنه ذكراً عند الرواية والخطابة وأعلقه بالحفظ مسموعاً وأدله على الفضيلة الغريزية مصنوعاً، وحقاً لو كان الشعر جوهرًا لكان عقيانا، أو من النبات لكان ريحانا، ولو أمسى نجوماً لزاد ضياؤها أو عيوناً لما غار ماؤها. فهو اللطف من در الطل في أعين الزهر إذا تفتحت عيون الرياض غب المطر وأرق من أدمع المستهام ومن الراح رقرق بماء الغمام (من شرح ديوان المتنبي للواقدي).

فالشعر هو ريحانة النفوس ومزيل الهموم وديوان الحكمة ومصدر الخير والشعاع الساطع الذي يجذب الأنظار وتحوم حوله النفوس. بل هو عنوان المجد الخالد ورائد البلاغة وحجة اللغوي ومالك القلوب والدافع إلى جلائل الأعمال والمحرك للعزائم والرسول الذي يحمل أدق الرسائل وأرق العبارات.

وقد عرّف ابن خلدون الشعر بأنه الكلام المبني على الاستعارة

والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وما بعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة.

وهذا التعريف معمول من قديم الأزمان ومن واجبات كل شاعر حريص على هذا الفن أن يتحراه في نظمه ويعمل به وإلا زالت عنه صفة الشاعرية. وعلى ذلك فالشاعر لا يكون جديراً بهذا الاسم إلا إذا صاغ عبارة في قالب خيالي وراعى أحكام الوزن واتبع فوق ذلك القواعد التي وصفها الأقدمون لتنسيق الشعر وأحكامه. فكأنما الحرية والتلاعب والخروج عن المألوف لا مجال لها في هذه المملكة مملكة الشعر التي كلها خيال في خيال، والتي يهيج الفكر في أرجائها دون قيد ولا حرج. فإن صناعة الشعر خاضعة في شكلها بل وفي موضعها إلى حد ما لقواعد ثابتة لا بد من التقيد بها. يظهر لنا إذن كأنه آلة موسيقية متناسقة الأنغام والتواقيع ولكنها خيالية من التنوع أما الشعراء فهم كالبلبل المغرد يحلو تغريده ويرق صوته ولكن نغماته هي هي في الصباح وفي المساء...

وما دام هذا العيب هو العيب الوحيد في شعرنا فلنشهد أن شعراءنا عنوا على الدوام بالألفاظ والعبارات أكثر مما عنوا بالمعاني وهمهم أن يؤدوا المعنى الواحد بعبارات مختلفة متعددة رنانة بديعة الأسلوب. وقد شبهوا المعنى بالماء - وهل كان لهم أن يشبهوه بالخمير وهي من المحرمات - والشعر بالإناء وقالوا أن الماء ماء على الدوام ولكن العبرة بالإناء فكلما أجاد الصانع إتقان صنع هذا الإناء وحلّاه بالنقوش والزخاريف وأبدع في صناعته وأبرزه تحفة تلفت الأنظار كان أعظم شأواً في عالم النظم وأجود شعراً وأرفع مكانة. ولهذا ترى الشعراء على الدوام يسعون وراء الألفاظ

البديعة ويتنافسون في صوغ العبارات الساحرة النادرة ويتلاعبون بها كما تشاء أهواؤهم، وكما توحى إليهم مخيلاتهم وليس في الأرض أمة بلغت مبلغ العرب في سبك الألفاظ وصياغتها، فهم حقيقة صواغ الكلام والسحرة الصادقون الذين كانوا يسحرون الناس بحسن بيانهم. وهم أيضاً كانت تسحرهم الحروف التي كانت ترقص أمام عيونهم وتلاعب بهم. ما كانت العرب تقول ماذا يهمنا من الكأس إذا طاب الشرب ودب ديب الخمرة إلى النفوس بل كانوا من المولعين بفنهم الشغوفين به يسكرهم جمال الشكل وبسحرهم حلو الحديث، ويأخذ بمجامع قلوبهم الكلام الجزل والخيال الذي لا تلمسه الأيدي.

ألقي رينان محاضرة شهيرة في سنة 1883 عن الإسلام والعلوم انتقد فيها بشدة ما قيل عن المدينة الإسلامية وقال إن ما اتفق الناس على تسميته الحضارة الإسلامية لم يكن في الحقيقة سوى المدينة اليونانية نشرت من رسمها وهذبت تبعاً لما أظهرته الأيام، بل ولم يكن الفضل في نشرها للعرب وإنما كان الفضل في ذلك للسوريين والكردانيين وأهل الهند وفارس والأندلس الذين صاروا عرباً بحكم الفتح واتحاد اللغة.

قد يكون قول هذا العالم الكبير صحيحاً من بعض وجوهه، وعلى كل حال فإن مجال الأخذ والرد عليه فسيح وباب المساجلة واسع ولكن الأمر الذي لا مجال فيه للجدل هو أن العرب لم يأخذوا شعرهم من اليونان أو الرومان أو من أية أمة من الأمم. فالشعر العربي زهرة نبتت في أرض العرب وتفتحت أكمائها في بلاد العرب وأينعت في بلاد العرب دون أن تتلقح بلقاح غريب بل هي عذارى عربية ولدت في الصحارى العربية وشبت وترعرعت في البلاد العربية دون أن يلامسها غريب،

فيشوه محاسنها ودون أن تضيف إلى حسنها البدوي حسناً مستعاراً ما أغناه عنه.

ولاحظوا يا سادتي أن العرب نفوا إلى لغتهم كل أو جل ما يهمهم من المؤلفات والكتب التي تركتها الأمم التي سبقتهم في ميدان المدينة وأخذوا عن كل أمة أحسن وأثمن ما أخرجت قرائح أبنائها، فأخذوا عن اليونان الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى، وعن الفرس الفلك وآداب الاجتماع والموسيقى والروايات، وعن الكلدانيين الزراعة والتنجيم وعن المصريين الجراحة والكيمياء إلى غير ذلك مما أخذوه عن غيرهم. ولكنهم ما خطر في بالهم يوماً من الأيام أن يقبلوا من أمة أخرى بيتاً من الشعراء ومعنى من معاني الخيال أو أن يتحدثوا غيرهم في فن النظم. كانوا يعتقدون أن شعرهم أرقى وأسمى من شعر جميع الأمم فكانوا كلما ألقوا أنظارهم على ما أثمرت قرائح أبناء العرب طربوا ورقصوا وداخلتهم العزة وحق لهم أن يفخروا وأنفوا أن ينقلوا من غيرهم شيئاً في هذه الباب.

وفي الواقع فإنه لا توجد في العالم أمة وصلت آدابها إلى ما وصلت إليه آداب اللغة العربية لا في غناها وفي غزارة مادتها ولا في متانة أساليبها ولا في نوع شعرها الحماسي والغزلي وغيرهما من فنون الشعر الخيالي (فالشعر العربي يكاد يكون كله من الشعر الخيالي) ولم ينبغ في أمة من الأمم عدد من الشعراء يوازي أو يناهز عدد شعراء العرب وذلك راجع إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

السبب الأول - أن العربي حادّ الإحساس إلى درجة غريبة سريع التأثير كثير التحمس كريم النفس قريب الغضب والرضا على السواء. ومن طبائعه أنه مندفع في أمره. مفيض بما في خاطره. فلا يمكنه كتمان

ما في نفسه. ولذا تأبى طبيعته أن يظل ساكناً عما حوله من المؤثرات فكان من الطبيعي أن تغنى بما يشعر به وأن يكون غناؤه صدى حقيقياً لعواطفه شبيهاً بها في شدتها وتناسبها وتناسقها فيخرج كلامه مصوراً تصويراً خيالياً موزوناً هو الشعر.

السبب الثاني - أن اللغة العربية هي في ذاتها أصلح اللغات للشعر وهيات أن تقاربها لغة أخرى في غناها وفيها ما لا يحصى من المترادفات المتوافقة لفظاً وكثير منها متحد وزناً وهي وحدها تكفي لتصوير الخيال بدون الاحتياج إلى الاستعانة بغيرها فإن فيها العشرات بل المئات من الأسماء للدلالة على بعض المسميات سواء كانت من الحيوان كالأسد والثعبان والحمار ولناقة والثور والكلب والقط. أو من المأكول كاللبن والعسل والتمر أو من المشروب كالماء والخمر أو من السلاح كالسيف والقوس والسهم والرمح أو من الأوصاف كالطول والقصر والكبر والصغر والشجاعة والجبن والكرم والبخل. فللأسد خمسمائة اسم وللثعبان مائتان وللناقة مائتان وخمسون وللماء مائة وسبعون أما المصائب والأرزاء فأربعمائة اسم ولعمرى أنه عدد لا مبالغة فيه بل ربما كان أقل مما يلزم بالنسبة إليها...

على أن هذه الكثرة في مادة اللغة لم تمنعها من أن تكون دقيقة في معانيها محكمة في مبانيها فقد خصت كل ليلة من ليالي القمر باسم كما خصت كل ساعة من ساعات الليل والنهار. وكذلك سميت الريح بأسماء مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا وقعت بين ريحين فهي النكباء وإذا وقعت بين الجنوب والصبا فهي الجرياء وإذا هبت من جهات مختلفة فهي المتناوحة وإذا كانت لينة فهي الريدانية. وإذا جاءت بنفس ضعيف

فهي النسيم فإذا كان لها حنين كحنين الإبل فهي الحنون فإذا ابتدأت بشدة فهي النافجة وإذا كانت شديدة فهي العاصف. فإذا كانت شديدة ولها زقزقة فهي الزقزاقة الخ..

وربما كانت هذه الكثرة داعية إلى الاستغراب ولكن متى ظهر السبب بطل العجب. فقد كان العرب في جميع الأزمان من أكثر الأمم اشتغالاً بلغتهم ثم كانوا فوق ذلك مولعين بفطرتهم بتحليل كل ما تقع عليه أبصارهم ويدرس نزعات النفس وأحوالها. فدرسوا من كل شيء جسمه وشكله وروحه وأثبتوا أوصافه ومميزاته وأصله ومؤثراته وعيوبه وفضائله وخصوا كلاً من هذه الأوصاف والمميزات باسم يدل على الوصف وعلى الحالة التي يكون بها. فالخمر مثلاً سميت خمراً للدلالة على أن أصلها من الاختمار وراحاً للدلالة على ما تحدثه في نفس شاربها من الارتياح وحمياً للدلالة على ما تبعثه فيه من الانفعال الخ...

ثم إن الأمة العربية كانت مؤلفة من عدة قبائل، ولكل قبيلة منها لهجة خاصة ولغة تختلف بعض الاختلاف عن لغة غيرها. فلما توحدت هذه القبائل اندمجت ألفاظ كل قبيلة وعباراتها في صلب اللغة. وبعد ذلك جاء الفتح الإسلامي واختلط العرب بغيرهم من الأمم فرأوا من الأشياء والأدوات والحاصلات والعادات والصناعات ما لم يكن لهم له عهد من قبل، فاضطروا إلى إدخال الأسماء الأعجمية إلى اللغة العربية بعد أن نحتوها وهذبوها فأصبحت جزءاً منها.

ومن ذلك توجد لديكم فكرة عن مقدار غنى لغتنا العربية الذي لا يحيط به حصر ويقصر عن وصفه لسان. أضيفوا إلى ذلك تعدد الجناس وتفرقه وهي تفتح السبيل واسعاً للتورية والمجاز وغير ذلك من ضروب البيان

التي تأسر اللب فيجد منها الشعراء الفحول والكتاب البلغاء ما ييغون لكي يهيموا على عالم الخيال ما شاؤوا وشاءت لهم مقدرتهم، ويكون لهم منها ينبوع للفكاهات والتنكات ولما تسمونه أنتم معاشر الفرنسيين كلامبور. وبهذه المناسبة أذكر أن العلامة اللغوي الشهير لترية زعم أن تاريخها يرجع إلى القرن الثامن عشر للميلاد وأنها من وضع شريف أوجي. ولكني أميل إلى الاعتقاد بأنها أعرق من ذلك شرفاً ونسباً وأنها مؤلفة من كلمتين عربيتين هما كلام وبور أي كلام فارغ...

وللعرب قصائد بتمامها تنتهي كل أبياتها بكلمة واحدة يختلف معناها في كل بيت منها والآخر بسيط لا غرابة فيه فكلمة عين مثلاً لها 35 معنى وكلمة عجوز ستون الخ.

السبب الثالث - أن العربي فُطر على رقة الشعور وسعة الخيال والقناعة والتفكير والتمتع بالسير من حاجيات المعاش فساعده ذلك على الانصراف إلى التأمل والتفكير والتمتع لهذه الحياة التي ينشط منها الفكر من عقاله ويسرح في مسارح الخيال. فإذا انصرف عن القتال وانتهى من الغزو أحاط به السكون من كل جانب وشمله الهدوء ونظر إلى السماء فإذا هي زرقاء لامعة في النهار مرصعة بالنجوم في الليل، فدعاه السكون الذي حوله وجمال المناظر التي يرسل إليها بصره إلى فحص فؤاده وتعرف خبايا قلبه والإمعان في مصائب الناس وتصاريف الزمان وتقلبات الأيام. فإذا انقطع هذا السكوت فجأة واقبلت القبائل كعادتها تتقاتل وتتطاحن وجد في ضربات السيوف وفي ملاحمة الأقران ما يثير حماسه ويدعوه إلى الفخر والتغني بالبأس وشدة المراس. فكان من كل ذلك محرك للنفس العربية ولكل أوتارها ونغماتها.

فليس بغريب إذن أن يكثر شعراء العرب وأن تكون ثمرات قرائحهم قد بلغت حد الإعجاز مع وفرتها.

على أنني لا أرسل الكلام على عواهنه ولا أقصر على إرسال القول مبهماً، بل أقول لكم جميعاً افتحوا مؤلفاتنا القديمة والحديثة سواء كانت تبحث في الفلسفة أو الطب أو الفلك أو الكيمياء أو الفقه أو الرياضيات أو الموسيقى أو التاريخ. ثم أجيلوا النظر فيها تجدوا فيها حتماً كثيراً من الأشعار. ذلك أن الشعر امتلك لب العربي منذ بزغت شمس تاريخهم وصار له على نفسه السلطان المطلق. فلو تركنا الشعر جانباً وغضضنا الطرف عنه لما استطعنا معرفة تاريخ العرب ولا فهم أحوالهم وعاداتهم والأدوار التي مروا بها، فالشعر هو من عناصر الحياة العربية فهو بالنسبة لها كالهواء بالنسبة للحياة الإنسانية بل هو الحياة العربية نفسها بكل قوتها وشدتها ورقتها.

وقد كان الشعر فطرة عند العرب يرسلونه على البداة بلا أدنى صعوبة ولم يكن فقط مظهراً لسانحة تمر أو فكر يخطر على البال ثم ينمحي. بل كان مظهراً لكل معنى من المعاني العادية ووسيلة للتعبير عن كل المعارف الإنسانية حتى منها بل للتعبير عن أدق النظريات وأبعدها غوراً، فتجد بعض المؤلفات النحوية شعراً بل تجد من المؤلفات الخاصة بالتقوى والعبادة أو بالطب أو الكيمياء أو المنطق ما وضع شعراً. بل إنني أستطيع أن أقول دون أن أتعرض تعرضاً كبيراً للتكذيب، إن العرب لا بد أن يكونوا ضمنوا المعادلات الجبرية والهندسية بعض أبيات من أبياتهم حتى تعلق بالأذهان كما جرت عادتهم. بل إنه لا يكون من الإغراق في القول أن أقول بأن العرب كانوا يعبرون عن أفكارهم في غالب الأحيان وفي جميع الأزمان بطريق

النظم، فيكون الوزن قاعدة تعبيرهم كما كان قاعدة أفكارهم وحركاتهم وسكناتهم. ولا غرابة أن يكون ذلك من أقدم الأزمان فقد زعم بعضهم أن أول من نطق بالشعر العربي أبونا آدم عليه السلام وقد حفظ لنا التوراة الأشعار التي نطق بها. وما زال بعض المولعين بالمناقشات يتباحثون إلى اليوم إذا كان الأمر الذي لا نزاع فيه هو أنه إذا كان آدم شاعراً فإن العرب أحق الناس بالانتساب إليه وأجدرهم به لأنهم أمراء الشعر وسادة البيان. فإذا كان للملوك أسرفان للشعراء أيضاً أسراً آل إليها المجد ووالله لهؤلاء أكبر شرفاً وأحق بالفخر الصحيح والمجد الرفيع من أولئك. وأذكر هنا النعمان بن بشير الأنصاري فهو شاعر ابن شاعر وحفيد شاعر وابن شاعر ووالداً للشاعر الكبير زهير وجداً للشاعرين بن كعب بن زهير وبهير.

وهل أنسى سلالة حسان بن ثابت التي نبغ فيها عدد عظيم من الشعراء مدة قرون متوالية؟

وقد كان الحال كذلك بعد الإسلام أيضاً فإن الشاعر الكبير فارس كان أبوه وجده من الشعراء ومثلها أبنائه وأحفاده.

وما الفائدة من هذا المقدار وأي إنسان تبلغ به الدعوى مبلغاً يزعم معه أن في وسعه أن يخصي شعراء العرب وقد كان عددهم يتجاوز على قول أحدهم النجوم التي ترصع الزرقاء والأزهار التي يفوح عنبرها في الحقائق والمروج.

على أن كثيراً من الشعراء نعرف أسمائهم ولكن لم يصلنا شيء من منظمتهم وبعضهم لم يصلنا منهم إلا أبيات قليلة مع أنهم كانوا على ما أثبت التاريخ من كبار الشعراء. ولا غرابة في ذلك إذا علمنا كيف وصلت إلينا أشعار الجاهلية.

وكان يلتفت حول الشعراء في العادة جماعة من مريديه وتلاميذه فيحفظون ما يلقيه من الأشعار ويتناقلونها عنه وينشدونها أمام الأمراء أو المجاهدين السائرين إلى البلاد أو بين الجماعات مراعاة لمقتضى الحال متبعاً لما إذا كان الغرض من القصيدة المديح أو الفخر أو الغزل أو الحكمة، ثم تلا ذلك العصر كان الحفاظ أو الرواة يستظهرون عدة قصائد من فحول الشعراء مدفوعين إلى ذلك بعامل الإعجاب والتغني بها والمقارنة بينها. وقد كان هؤلاء الحفاظ هم الوسيلة الوحيدة لبقاء هذه الأشعار وتناقلها بالتواتر من جيل إلى جيل. ولكن عدداً عظيماً منهم لقي حتفه في الحروب التي قامت في صدر الإسلام فنزل معهم إلى القبر جزء عظيم من الأبيات البديعة التي كانت تحويها صدورهم والتي كانت مفخرة العرب فلم يعد أحد يتناقلها بعدهم.

ولم ينبته أحد إلى تدوين قصائد كبار شعراء الجاهلية في بطون الكتب لحفظها من الضياع إلا في آخر القرن الأول من الهجرة وعمدوا في هذا السبيل إلى جمعها من صدور كبار الرواة الذين كانوا يستظهرون الكثير منها، كحمّاد الذي كان يحفظ سبعة وعشرين ألف بيت من أشعار الجاهلية كل ألف منها تبدأ بحرف من الحروف الهجائية، وكالمفضل الضبي وخلف الأحمر وأبو ضمضم الذي كان ينشد أشعاراً لمائة شعر باسم عمرو، وكأبي تمام واضع كتاب الحماسة الذي كان يحفظ على ظهر قلبه أربعة عشر ألف بيت من الشعر كلها لفحول شعراء الجاهلية.

أما الأشعار التي قيلت بعد الإسلام فقد ضاع منها عدد عظيم بسبب الفتن والحروب التي قامت بين المسلمين أو بينهم وبين غيرهم من الأمم في جميع لأزمان وفي جميع البلاد التي خضعت للإسلام، ويكفي لمعرفة

ما ضاع منها أن نلقي نظرة على مؤلفات بعض أكابر الكتاب التي هي أشبه بالفهارس لالتزامها جانب الإيجاز لتبين منها أسماء الذين عاصورهم من الشعراء وما أُلّف في فنون النظم ثم نتساءل ما الذي بقي من كل ذلك؟ لم يبق إلا النزر اليسير الذي لا ينكر ولكن هذا النزر اليسير يكفي لرفع شأن أمة واحدة وهو يدل على مقدار نبوغ العرب في حلبة النظم وعلى ما كان لكبار الشعراء لديهم من المنزلة السامية والمقام الرفيع.

ويجرّنا هذا الحديث إلى البحث في منزلة الشعراء في العالم العربي ثم إلى ذكر كلمة في بيان مميزات الشعر العربي في أهم العصور في تاريخ العرب.

كان الشاعر في الجاهلية مهيباً موقراً يحيط به الإجلال وحف به الإكرام. فإنه كان عميد القبيلة وحامي ذمارها وراوي تاريخها والحافظ لأنسابها والمتغني بذكر مجدها فهو بهذا الاعتبار كان قريب الشبه بالكهنة في التاريخ القديم.

فهو الذي كان يفتخر بأجداده وبالوقائع والغزوات التي امتازت فيها قبيلته بالبسالة والأقدام وشدة البطش فيحفظ بذلك ذكرها في أبيات من الشعر، لأن الأشعار هي الأثر الوحيد الباقي في تاريخ العرب والوسيلة الوحيدة لمعرفة أحوالهم وتاريخهم. وهو الذي كان يهجو أعداء عشيرته ويدفع السباب بمثله. وكثيراً ما كانت كلمة عذبة حلوة من شاعر مجيد تسكن نائر العداوات وتطفئ نار الخصومات كما أنه ما كانت كلمة منه تستفز بغضاء القبائل وتشعل نار الحرب بينها.

ومن البديهي أن أمة هذه حالها وهذه طبائعها كانت تقابل ظهور شاعر بين ظهرانيها بالفرح والابتهاج وتعتبر شهرته من الحوادث ذات البال. فكانت

القبائل الموالية للقبيلة التي نبغ فيها شاعر تقدم إليها زرافات لمشاركتها في إعلان أفراحها فتقام الولائم وتنحر الذبائح وتوزع الأرزاق وتعلو أصوات النساء ويتسارع الأطفال إلى تقبيل طرف ثوب بطل الاحتفال، عسى ربة الشعر توحى إليهم في مستقبل الأيام ما أوحته إليه.

وكان العرب في كل يوم ينصرون عن القتال وتبطل بينهم الحروب ويتهادنون لأيام معدودة ويغدون من كل فج سحيق من أمراء وعلماء وتجار وشعراء إلى حيث يجتمعون في عكاظ يتفاخرون بالشعر ويتبارون في الإبداع فيه. وكان يضرب لذلك فسطاط فخم ويتولى الحكم بين المتسابقين أبعد الشعراء شهرة وأعلاهم كعباً فكان يسمع ما يتلى بين يديه من القصائد ثم يبدي حكمه. وتكتب أجمل القصائد على نسيج من الكتان أو ورقة من أوراق البدي وتعلق في الكعبة ومن هذا أطلق عليها اسم المعلقة وعددها سبع وهي من أمتن الشعر وأحسنه بل إن المعلقة - وشعر الجاهلية عامة - هي المثال الذي مازال الشعراء ينسجون على منواله وينسجون نحوه إلى اليوم إلا في ما ندر من الأحوال، تناقلها الناطقون بالضاد جيلاً بعد جيل وتغنوا بها وحفظوها وحاول شعراؤهم على ممر الأزمان، يتحدوها في معانيها ومبانيها وتصورات واصفيها وخيالاتهم. وما زال الشعراء إلى زماننا يتبعون في وضع أشعارهم القواعد والروابط التي وصفها شعراء الجاهلية فترى الشاعر يبدأ على الدوام ينصب المضارب والخيام ومنازل الأحباب كما كان يفعل شعراء العصر الجاهلي. ويطلب من صديقه أو من صديقه أن يقف معه ليبيكياً معاً على الطلل والمنزل الذي كان مرتعاً للبهجة والأنس ثم هجره الصفاء وأصبحت ذكره مصدرراً للألم ومثاراً للأشجان. ثم ينتقل إلى التغزل بمحاسن المحبوبة والتفاخر بقومه وبشجاعتهم وثباتهم في حومة

الوغي ومكارمهم ثم يتخلص من ذلك بيت يجب أن يكون غاية في الحسن والإبداع منتقلاً في تذكارات حبه وغرامه أن يرجعوا إلى المعاني القديمة والتخيلات البديعة التي سبقهم إليها سلفاؤهم مقتصرين على تغيير المبنى والتلاعب بالألفاظ وحسن السبك.

ثم جاء الإسلام فانصرف الناس عن الشعر زمناً فإن العرب وجدوا في القرآن ما تصبوا إليه نفوسهم من جيد القول. وجاءهم الكتاب المنزل بصورة جديدة من صور الكتابة لم يألّفوها من قبل فلا هي بشر ولا هي بنظم بل هي شيء أعلى من ذلك جاءهم بصورة إلهية سامية لا يعرف الواصف يصفها، خلبت ألبابهم ولعبت بعقولهم وهم الذين رضعوا الفصاحة من ثدي امهاتهم وتربوا على البلاغة من مهادهم وعرفوا غث الكلام من سمينه فاسرتهم هذه البلاغة العالية الخالدة وهذه الكلم الجوامع. وذهب المفسرون بعد ذلك إلى أن القرآن هو غاية الإعجاز في باب البلاغة والبيان وإلى أن الملائكة والناس يعجزون عن الاتيان بآية من آياته.

وقد نشأ من ذلك أن الشاعر سقط من شائق مجده ولم تعد له تلك المكانة الرفيعة التي كانت له في سالف الأزمان، لم يعد ذلك الكاهن القديم والمدافع عن قبيلته وحامي حمى قومه بل تغير رأي الناس فيه وصاروا ينظرون إليه شزراً. وزاد الطين بلة أن بعضهم ذهبوا - إن صواباً وإن خطأ - إلى أن الرسول يكره الشعر والشعراء واستدلوا على ذلك ببعض كلمات وردت في موضعين أو ثلاثة من القرآن يمكن تفسيرها بأنها لوم لبعض الشعراء، أضف إلى ذلك أن الحماسة الدينية بلغت أشدها عند ظهور الإسلام فانصرفت الأذهان عن الأشعار والفنون واشتغلت بطبيعة الحال وبحكم الانقلاب الجديد بالبحث في أصول دينهم وأحكامه

وتفاسيره وبالغزو والجهاد لنصر الدعوة إلى الإسلام. على أن الشعر رغباً من ذلك لم يمت تماماً فإن عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين أشار على المسلمين بأن يعلموا أولادهم الأمثال والشعر وكان الإمام علي ابن أبي طالب رابع الخلفاء من فطاحل الشعراء وأعلامهم كعباً في ميدان النظم.

ولما أمر الخليفة عثمان بن عفان بجمع القرآن من صدور الرجال ولم يكن قد جمع إلى عهده وتبين أنه يصعب تفسير بعض آياته وكلماته وإدخالها في أذهان الأمم الأجنبية كأهل مصر والشام وفارس الذين كانوا قد انتحلوا الإسلام وتألفت منهم غالبية أهله منذ القرن الأول للهجرة - رجع شارحوه ومفسروه إلى الأشعار القديمة للاستئناس بها والاستعانة بها على فهم ما أُغلق عليهم من معاني بعض الألفاظ القرآنية متبعين في ذلك قول ابن عباس إذا قرأتم شيئاً في كتاب الله فلم تعرفوه - فاطلبوه - في أشعار العرب فكان ذلك مشاهداً على نهضة الشعر والعناية بأمره بعد إهماله زمناً فبدأت تعدون إليه بهجة الأزمان الخوالي رويداً إلى أن بلغ أعظم شأو في أيام الأمويين وارتفعت منزلة ارتفاعاً كبيراً.

وهناك أسباب سياسية دعت إلى هذا التغيير، فإن موت الإمام علي أوقع الفتنة في بلاد العرب فانقسموا إلى قسمين متناظرين حزب على وحزب معاوية. وعادت القبائل إلى التطاحن والقتال بعد أن كان الإسلام قد جمع بينها ووحد كلمتها ومحا الضغائن التي تأصلت في نفوسها قروناً فبعثت العادة القديمة من الرمس وسار كل شاعر في طليعة قومه يحرضهم على القتال ويبعث الحمية في نفوسهم متوسلاً إلى ذلك بتذكيرهم بوقائعهم الباهر وأفعالهم المجيدة. وكان معاوية داهية حصيف الرأي فسعى بجميع الوسائل إلى زيادة عدد أنصاره فأفلح في ضم معظم القبائل إلى جانبه

بفضل دهائه وحكمته وسخائه، وكان من بين الوسائل التي عمد إليها أنه أغدق هباته على الشعراء فقابلوا الجميل بمثله وألفوا القصائد في مدحه والتحدث بكرمه ومروءته فكان ذلك من أكبر الأسباب في ميل القلوب إليه وتمهيد أسباب النصر له. وسار خلفاء معاوية على نهجه ففتحوا أبوابهم للشعراء لاكتساب مودتهم من جهة ولأن بعض الأمراء كانوا مولعين بالشعر من جهة أخرى. فأزهر عصر الشعر وبلغ درجة لم يبلغها من قبل. ولكن الشعراء نسوا مقامهم القديم ومكانتهم الأولى ولم يدركوا قدر اللآليء التي كانوا يجودون بها فانحط مقامهم ونزل قدرهم. وبعد أن كان الشاعر في الجاهلية أمير قبيلة وسيد قومه أصبح في عهد الأمويين رجلاً من أولئك الذين تتألف منهم بطانات الأمراء. كل همه أن يستدر هباتهم وأن يتزلف إليهم وينال الحظوة لديهم.

وفي عام 132 للهجرة حدث انقلاب جديد في العالم الإسلامي فإن أبا العباس ثار على الأمويين ونصره في ذلك أهل خراسان وفارس فتغلب عليهم ونزع الملك من بين أيديهم بعد أن نكل بهم تنكيلاً، وقد علا شأن الشعراء في عهد العباسيين من أول عهدهم إلى يوم زوال ملكهم حين استولى التتار على بغداد في عام 656 للهجرة. فكان الشاعر نديم الأمير وسميره جليسه فإن الخلفاء العباسيين قربوهم إليهم واستصفوهم وبالغوا في إكرامهم مراعاة لأسباب سياسية لا طعماً في استعمالهم وسيلة لكسب قلوب المسلمين بل لأن جلّهم كانوا من أهل العلم والأدب وكانوا لا يأنفون من قول الشعر.

وقد بلغ العرب في أيام العباسيين من العزة والسؤدد إلى غاية ما وراءها غاية، وأدركوا أكبر نصيب في ميدان التقدم والنجاح. بل إن عهد الدولة

العباسية كان العصر الذهبي للشعر وللشعراء أيضاً مدة خمسة قرون متوالية. ولم يعد الشاعر ذلك الكاهن القديم ذلك العهد قبائل وشيعاً بل كانوا أمة واحدة جمعت كلمتها وتمازجت عشائرها - من الوجهتين الدينية والاجتماعية - بل كان الشاعر صديق الأمير ومؤانسه ومسيره ورفيقه في ساعات لهوه وأوقات أنسه. فعلا شأنه وارتفع قدره ونبه ذكره وانهالت عليه النعم وكان الناس يجلبونه ويخشون بأسه وسطوته ويحسدونه على ما هو فيه من نعيم.

وكان الشاعر عالماً أن الفضل فيما ناله من الحظوة والخير يرجع إلى إبداعه في فنه، فكان يطلب المزيد كل يوم في الإجادة ويضرب في الإبداع بسهم أوفر حتى رقّ الشعر وسما وبلغ منزلة رفيعة لم يعرفها من قبل، بل صار هيكلًا مقدساً لا تصل إليه النفوس العالية والقلوب الرقيقة الحساسة. تدخله خاشعة متهيبة تحاذر الزلل. فيا له من عصر سعيد تحكم فيه الشعر في النفوس وملك الأفتدة ومهد السبيل لصاحبه ليصل إلى أرفع درجات الجدد وأعلى ذرى السؤدد. كان الشعر يغنى عن الحسب والنسب ويغنى الشعر عن التفاخر بغيره من الفضائل الحربية أو المزايا السياسية. حتى أن شاعراً مدح أبا العباس مؤسس دولة العباسيين فولاه ولاية. بل إن المأمون فعل ذلك مع ابن الجهم جزاءً له على قوله بيتاً من الشعر أعجبه وأطربه.

بل هل جاءكم نبأ الخليفة هارون الرشيد الذي بلغ من إكرامه للعلم والآداب أنه صب الماء لأبي معاوية الضرير ليغسل يديه. أو ابنه الأمين والمأمون اللذين تنازعا في أيهما يقدم لأستاذه حذائيه ثم اتفقا على أن يقدم له كل منهما واحداً.

وأذكر على سبيل الاستطراد أن مسلم بن الوليد عين لوظيفة سامية

هي وظيفة صاحب البريد بتقاضي رواتبها دون أن يشتغل فيها وكفى أنه كان يغتني بآبنة الكرم ومكارمها. وأن الطغرائي كان وزيراً لسلطان الموصل مسعود بن محمد السلجوقي وأن المتنبي كان يعامل معاملة الأمراء وتؤدي له التحية التي تؤدي لهم. في تلك الأيام السعيدة كانت القصيدة تكتب على قطعة من رخام فيجازى قائلها بثقلها ذهباً. وكان البيت الواحد يساوي من ألف درهم إلى ألف دينار. فبالك من زمن مضى وانقضى كان الشعراء فيه ملوكاً والملوك شعراء. نعم لقد كان الملوك شعراء لا مبالغة في ذلك ولا مجاز وفي طليعتهم الخليفة هارون الرشيد ومعظم الخلفاء العباسيين وأحسنهم وأبلغهم عبد الله بن المعتز الذي قضى في الخلافة يوماً وكأنما فيكتور هيجو شاعر الفرنسيين كان قد أخذ عنه حين قال في رواية روت ما معناه:

وفتحت «روت» عينها بين اليقظة والمنام وتساءلت أي أله في هذا الصيف الخالد ألقى وهو سائر هذا المنجل الذي صيغ من ذهب في الحقل الذي رصعته النجوم.

فإن عبد الله بن المعتز قال قبل ذلك بعشرة قرون:

أَنْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَلَالِ بَدَا يَهْتِكُ مِنْ أَنْوَارِهِ الْحِنْدَسَا
كَمَنْجَلٍ قَدْ صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ يَحْصُدُ مِنْ زُهْرِ الدُّجَى نَرْجِسَا
ولقد أطلت القول عن هذا العصر. لأنه أحسن العصور بالنسبة للشعر العربي حيث تجلى فيه جمال الشعر وإبداعه أكثر من كل عصر سواه. وثانياً لأن ذلك العصر الزاهر الأنوار أعقبه ليل بهيم كثيف الظلمات ما زلنا نتخبط في دياجيرها إلى اليوم، فلا تغيره إلا بعض نجوم قليلة تتألق فيه حيناً بعد آخر وبعض بروق تومض أحياناً ثم تختفي. أذكر ذلك العهد السعيد

لأنه منذ زال رحل الشعر معه وانحط شأن الشعراء فالناس تجهل أقدارهم
وتغمط أفضالهم وهم يتخبطون بين الحياة والموت.

وقبل أن أختم كلامي أقول كلمة عن مميزات الشعر العربي في كل
عصر من العصور التي أشير إليها.

كان الشعر في العصر الجاهلي مرآة حقيقية تنعكس فيها أخلاق العرب
وعاداتهم وأحوال معيشتهم. فكان الأعراب في ذلك الحين يضربون في
الصحراء لا يستقرون على حال وهم يعيشون من السطو والغزو وقطع
الطرقات وشن الغارة على القوافل. أما محاصيل الأرض فكانت ضعيفة
لا تكفي لسد حاجاتهم. فكان شعرهم - وهو مرآة أخلاقهم - بسطاً سلسلاً
سهلاً عليه أدلة الصدق مع مسحة من الخشونة، وهل كان لشعرهم سبيل
إلى أن يكون غير ذلك؟ وكانوا يقرّون بالخاطر يجول في مخيلتهم ويتجلى
لهم المنظر أمام عيونهم يدعو إلى السرور أو الأسى فيرسلونه شعراً للتعبير
عما في نفوسهم دون إغراق ولا موارد. فتجد فيه العبارات العنيفة
الوحشية للتغني بالقتل والقتال وسفك دماء الأعداء، وتجد فيه العبارات
اللينة التي تسيل رقة للتعبير عن غرام خالج الفؤاد ولعب بالقلب وأذل
تلك النفس العاتية. ليس في عباراتهم تكلف بل هي تسيل كالماء الذي
يجري من عين صافية دون جهد ولا عناء، بل كأن الشعر جاء عفواً دون
أن تستكد الشاعر ذهنه. لا يقيد شاعرهم بموضوع ولا بشعر ولا بقافية ولا
يحاول أن يأتي في أبياته بأنواع التشبيه والمجاز ولا بالغريب في الألفاظ
ولا يسعى في تزيين القول ليكون صورة ما في نفسه وما تكنه جوارحه. فإذا
لا قى ما يدخل السرور إلى قلبه هتف هتاف الفرح وإذا عرض له ما يدعو
إلى الأسى أنّ وناح. أو إذا أراد الفخر عبر عن أعماله وأعمال قومه بغاية

البساطة والسهولة لا فرق في ذلك بينه وهو في هذه الحالة الفطرية وبين الطير الذي ليس فيه من الرياء والتصنع فهو كالطبيعة بل هو كالجمال.

أما في أيام الأمويين فإن اللغة بعثت كما كانت ولكن الشعر لم يعد هذه العذراء الطاهرة التي لم يقربها رياء بل إن الشعراء الذين نزلوا إلى مصاف المملقين والمتزلفين شوهاوا محاسنها ومزقوا ثوب عفافها. فبينما كان الأقدمون يقولون مع حسان:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقاً
أصبح المتأخرون يزعمون أن أحسن الشعر أكذبه. أضف إلى ذلك أن فتوحات الإسلام امتدت فدخلت تحت حكم العرب كثير من الأمم الغربية عنهم التي تخلقت مشاربها عن مشاربهم، وإن هذه الأمم المغلوبة دانت بدين الفاتحين وتعلمت لغتهم فيم يعد الشعراء من العرب دون سواهم بل كان بينهم المصري والسوري والفارسي والأندلسي، ولكل منهم نزعة خاصة قسم عليها شعره ويظهر أثرها في قوله. والصفة الغالبة في شعر ذلك العصر أن معظمه كان شعراً غرامياً الغرض منه الغزل والتشبه مع خلاعة ومجون يرجع السبب الأصلي فيهما إلى كثر النساء اللواتي وقعن في أسر المسلمين في حروبهم. وهناك أشعار اشتملت على أمور سياسية وعلى مطاعن يعزى السبب فيها طبعاً إلى انشقاق المسلمين إلى أحزاب وإلى ما قام من الخلاف بين أسرة معاوية وأسرة الأمام علي. على أنه يمكن القول بوجه الإيجاز أن هذا العصر كان زاهراً بالشعر وقد نبغ فيه جماعة من فطاحل الشعراء وأعظمهم كالأخطل وجريير والفرزدق.

وبلغ الشعر أعلى ذروة في عهد العباسيين فإن النجاح الذي صادفه العرب والتقدم الذي بلغوه والمدينة التي أصابوها كل ذلك كان له أثر

كبير في الروح الشعرية. ثم إن معيشة الخلفاء وترفهم والخمور والحب الخ.، حوّل الشعر من حال إلى حال، فرقّ حتى صار نسمة من نسمات الروح وتهذيب ألفاظه وحلت مبانيه وخفّت روحه. هذا فضلاً عن تقدم العلوم وانتشار المدينة والفلسفة وبلوغ حرية الفكر والقول إلى درجة كبرى وسّعت دائرة العقل وشحذت القرائح ورفعتها إلى الابتكار فوصلت تخيلات الشعراء إلى درجة من السمو لم تصل إليها في أيّ من الأزمان.

ويمتاز الشعر في العصر العباسي من جهة شكله بمتانة الوزن والقافية مع السهولة والمرونة بحيث أصبح أسهل تناولاً وأطوع للشاعر وبروح جديدة كسرت قيود القوالب القديمة التي تقيد بها الفكر العربي في سالف الأزمان. وامتاز من جهة موضوعية بقوة التصور والمناقشات العلمية والخيالية والتأملات الفلسفية التي تضمّنها. وبعد أن كانت الأشعار في الماضي كفة القلوب فقط أصبحت تتضمن الحكمة والآراء العلمية والأبحاث المنطقية. فكان الأطباء يضعون كتباً في الطب شعراً. والفلاسفة يقيّدون شوارد أفكارهم وخواطرهم شعراً فيما يتعلق بمنشأ الكون والقضاء والقدر وحرية الاختيار وخلود النفس إلى غير ذلك من الأبحاث العويصة. ولا يزعمن زاعم أن ذلك كان عمل ناظم يرص الكلمات رصاً دون أن يكون في كلامه أثر من آثار الشاعرية الصحيحة، بل إن ذلك ما فعله جماعة من فحول الشعراء أمثال المتنبي وأبي العلاء المعري وابن هاني وغيرهم وأشعارهم في هذا الباب تنفذ إلى القلوب فهي من أحسن الشعر وأرقه وأكثره تأثيراً في النفوس.

أما ما آلت إليه حالة الشعر العربي بعد سقوط بغداد فإني أضرب صفحاً عنها مكتفياً بالكلمة التي قلتها فيما مر.

وإنما أقول أنه منذ القرن الثامن للهجرة (القرن الخامس عشر للميلاد) أصبح الشعر صورة ركيكة فاسدة..، وتقليداً سقيماً للأشعار القديمة لا أثر فيها للابتكار على الإطلاق وأصبح الشعراء - استغفر الله بل الناظمين - أضحوكة يقلدون من سلفهم تقليداً أعمى مع جهل مطبق بروح الشعر القديم وبأحوال الزمان الحديث على السواء، فتراهم كما كان الحال أيام امرئ القيس وأصحاب المعلقات يبدؤون بذكر المضارب والخيام في الصحارى والقفار ويشكون من الظمأ ويخاطبون الناقة التي أضناها السير وأنهكها التعب، ويغزلون بمحاسن المحبوبة بنفس الألفاظ التي كان تغنى بها الشعراء أيام البداوة مع أنهم يقيمون في مدائن أهلة بالسكان ومنازل عامرة توفرت لهم فيها أسباب الراحة والرفاه وبجانبيهم أنهر جارية تروي مياهها ما هم فيه من الظمأ، وهم يمتطون صهوات الجياد أفنيت عليها السروج من الخزي وقد تحجرت قلوبهم فلا تنبض لهوى ولا تشعر بعاطفة من عواطف الغرام!

ولكن ذلك لا يمنعنا أن نقول كما قال الأستاذ جول لومتر إن الشعر العربي في مجموعة ما حوى من العواطف الرقيقة أنقى شعر عرفه العالم. وقد أضاف الأستاذ إلى ذلك وهو الناقد البصير الذي لا يلقي الكلام على عواهنه أنه أقرب الأشعار إلى المعاني الرجولية والشرف والحياء الصحيح والشهادة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

لقبَ محمد كرد علي بـ"علامة الشام" وقضى عمره مدافعاً عن العرب ولغتهم وآدابهم وفنونهم بالإيمان العروبي في مطالع القرن العشرين بإمكانية اتصال حاضر العرب بحاضر الأمم المتقدمة، فشرّف لغتهم ولطائف أدبهم ودقائق فنونهم التي يعرضها في هذه المقالات لمن وُصف بأنه "أمة في رَجُل" كانت مظاهر حضارة لها قدمٌ في الأندلس وأخرى عند تخوم الصين. مقالات استلّت من تراث العلامة الذي بذل عمره في إجلاء الغبار عن ذخائر تراث العرب اللغوي والبلاغي والفني، والردّ على من طعن عليهم من المستشرقين والمبغضين والمغرضين، والسعي إلى نهضة عربية منفتحة ومتوّرة توازن بين التراث والمدنية.



ISBN 978-9-9226433-7-3



9

789622

643373

www.daralirfadain.com
info@daralirfadain.com
daralirfadain
dar.alfadain
دار الإرفدين

مكتبة
t.me/soramnqraa